مجموعة قصص

مملكة الببغاوات

شيرزاد حسن

ترجمة: مجموعة من المترجمين

مملكة البيغاوات
قصص قصيرة
شيرزاد حسن
مملكة البيغاوات
شيرزاد حسن

اسم الكتاب: مملكة الببغاوات

اسم المؤلف: شيرزاد حسن

ترجمة: مجموعة من المترجمين

التصميم: جمال حسين درويش

الطبعة الأولى: كوردستان– السليمانية

مطبعة: دار سردم للطباعة والنشر

عدد النسخ: 500

سعر النسخة: 2500 دينار
رقم الأيداع: 472 لسنة 2007
www. Sardamco.com

دار سردم للطباعة والنشر

سلسلة كتاب سردم العربي (11)

المشرف العام على السلسلة

نوزاد احمد اسود

ترجمة: صباح آرام[×]

كان يوماً نادراً.. يوم طار ببغاء الرئيس. أي طائر لعين يترك كل هذه النعمة والدلال؟! ساد اللغو البلاد، بدايةً في العاصمة وبعدئذ في المدن الأخرى، في كل زقاق وشارع انتشر ذوو القبعات الحمر والسود، رجال الرئيس، أذيع النبأ عبر الراديو والتلفزيون، وفي عناوين ومانشيتات الصحف، وعلى كل جدار ملصق: كل مخلص يعثر على ببغاء الرئيس ويجلبه الى القصر سيُكرم حاتمياً، صبية المدينة يبحثون على الأعمدة والأشجار، وكل عائلة بجميع أفرادها تبحث في السطوح وكل زاوية من البيت، في الشوارع يصدم المشاة بعضهم ويشد الشباب الغاضب منهم ياقات الآخرين، لا أحد يرى موطئ قدمه، الكل ينظر الى السماء، صوت جناح طائر، صرخة أو زعقة طائر كانت كافية لتخفق القلوب، الطلاب كانوا يتسربون بعد الدرس الثالث، يتسلقون الأبواب والحيطان بأقدامهم الدامية، مرضى الردهات كانوا ينسلون خلسة الى الباحة والحديقة وهم يبحثون في المروج وبين الأشجار رويداً رويداً، لعلهم يعثرون على ببغاء الرئيس. لقد ساد الهيجان العاصمة، وتهيأت المدن، ولم تكن القرى بعيدة عن هذه المعمعة، أيام الجُمع كان المئات يتدفقون الى مقاهي هواة الحجل والحمام والباز، أصبح ثمن ببغاء هرم لا يطاق، على ببغاء يردد كلمة واحدة فقط كانت المزايدة تستمر حتى المساء، ثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعا من النساء والرجال يتشابكون بالأيدي: آه.. ماذا يا ترى سر ببغاء الرئيس، المنجمون وكاشفو الغيب

بـدأوا ينقبـون فـي الكتـب، يتـأملون فـي الكتـب الصـفراء وينظرون الى النجوم.. يا ترى ماذا كان، ببغـاء يـردد فـي الحكـم؟ أي سـر؟ أيـة أمنيـة، أي دعـاء، أيـة شـتيمة؟ أي سحر وشعوذة.. أية نكتة أو مصيبة كان الببغـاء يرددهـا.. حتى وصل ثمن بندقية صيد ومسدس قديم الـى عشـرة أو عشرين ألفاً. كل سائق ترك سيارته ليغدو صـياداً، تحـول معظـم أصـحاب المحـلات الـى مـربيّن للببغـاوات، تحـت وفـي ظـل تماثيـل الـرئيس المقدّسـة كـان باعـة الببغـاوات يتبادلون الشتائم، لم يكن لائقاً هذا التبادل للشتائم فـي ظـل تماثيل الرئيس الجليل من قبل الباعة، لذا اضطر مسؤولو البلديات في المدن الى فتح أسواق جديدة لهؤلاء الباعة.

بعـد عشـرات.. مئـات الليـالي بـدأ أصـحاب الببغـاوات يلّقنون الطائر المسكين. لقد اعتقد الواعون وكاشفو الغيب بأن الرئيس ربما عَلَّمَ الببغاء ان يردد: (أنا ملككم جميعاً.. أنا صاحب كل أحلامكم).

لـم يكـن مـا توقعـه العرافـون ومسـتطلعو الطوالـع والمنجمون متطابقاً.

(أنا إله السماء وأرضكم..!).

ربمـا لقّنـت زوجـة الـرئيس الطيـر حكمـة أخـرى، كـل شيء يعلل الخجل والخوف في أسرة الرئيس، رغم ان لا شيء يخيفها او يخجّلها، يا تُرى بماذا لقّنت سيدة سيدات البلاد الببغاء؟ أي نوع من الكلام المبطن؟

(فـي الليـالي يلهـو مـع السـيدة وفـي النهـار يلهـو مـع الناس...).

لقد انتشر عدد كبير من التجـار وأصـحاب المطـاعم ومصلحي الإطارات والمهرّبين وبعض المدرسين الذين

تقاعسوا عن التدريس في غابات أطراف البلدة، ما كانوا يدعون عصفوراً يحط على شجرة، لقد غدا كل طير في نظرهم ببغاء، لم يبق ببغاء إلاّ وألقي القبض عليه، وعجز بائعة الأقفاص عن تلبية الطلبات، لم يبق ببغاء إلاّ ولُقّن الكلام والحِكَم الذي يُدخل السرور في قلوب أسرة الرئيس، زوجته، أبنائه وبناته، أخواله وأعمامه حتى الخدم والحرّاس، وبدأ أغلبية أساتذة الكليات والمعاهد دراسات عن رغبات عائلة الرئيس، عمّا يُفرحهم وعمّا يُحزنهم، واصطف الطلاب أمام المكتبات لاستعارة الكتب التي تتحدث عن طبائع وكيفية تكاثر الطيور وزرقها.. الخ. لقد اشتد النقاش حول الموطن الأول لهذا الطير، أهو في الهند أم في الصين أو في أفريقيا؟ ولكن أكثرهم اتفقوا على ان الجزيرة العربية هي الموطن الأول! وقد أُشيع ان ببغاء الرئيس كان ملكا لساحر كبير في الجزيرة وتم شراؤه بمبلغ خيالي، وقد أهداه أحد ملوك الجزيرة الى الرئيس. هل الببغاء من نسل العقاب والباز؟ لقد استحسنت وزارة التربية إعداد برامج مستعجلة للمعجبين بالببغاء، ذكراً كان أم أنثى؟ حتى يستوعب الجميع أسرار هذا الطير الملّون، الذي يُعيد ما يلّقن من الكلام دون زيادة ونقصان. في المرحلة الابتدائية والمتوسطة والاعدادية وصولاً الى الكلّيات أصبحت دراسة الببغاء ودنياه المدهشة ضمن مقررات المنهج، صار المدرسون الببغاويون يتحدثون عن عظمة ببغاء الرئيس وببغاوات الدنيا، لا ينسى صغار البلاد وكبارها الليلة التي ذرف فيها الرئيس الدموع على ببغائه المحبوب. رغم كون الرئيس هاوياً للطيور لكنه في

غمرة انهماكه بالاستماع الى كلمات ببغائه أهمل طيور الأقفاص الأخرى، لقد جلب رجالات الدولة أنواعاً نادرة من الطيور للرئيس، حتى إنهم اضطروا للبحث عن اسمائها من المختصين وفي القواميس، لكن عبثاً، لأن الرئيس ظل متعلقاً ببغائه. في اليوم الأربعين من فقدانه عمّ البلاد الحزن والحِداد، في تلك الليلة.. ليلة المعجزة.. لم يصدق الكثيرون حيث بلّل الرئيس منديله بالدموع، هذا الذي قدّم مليون شهيد ولم يذرف دمعة ولكنه في تلك الليلة كان يتحدث بصعوبة:

(يا جماهير الشعب.. إعذروني إن لم أتجلد صبراً.. وفي كل الأحوال لقد تعلّمت من الببغاء درساً رائعاً، أنا لا أريد مواطناً لا يتطبع بطبع الببغاء، كل من يحبني ويبغي أن يكون سعيداً عليه أن يستوعب كالببغاء تعليمات الدولة، وكل من هو حريص على العيش في مملكتي عليه أن يُربي ببغاء في داره، ستُنظم له هوية ويصبح من أصدقاء "نادي هواة الببغاء"، جميع أجور الببغاء ومصاريفه ستكون من نفقات الخزينة، انه فخر لكم لو استقطعتم المصاريف من أفواه أولادكم لتنفقوها على الببغاء وعالمه المدهش. وستصرف من نفقات الدولة على الصبية الذين يصيدون العصافير لببغاواتكم، ولا أريد أحداً يعاتبنا إذا تعرضت زجاجات بيته لحجارات الصبية هؤلاء.).

بعد تلك الليلة وفي الصباح إندفع هواة الحمام والحجل والبلابل والطيور الملونة الى السوق والقيصرية والمقاهي، يبيعون طيورهم بأبخس الأثمان، وبيعت طيور الحب والبلابل بفلوس معدودة وكذلك طيور القطا والحمام المتشقلب والحجل المغرد بقبضة من الدخن..

قبضة دخن للببغاوات المحبوبات. وأعّد المختصون محاضرات خاصة عن كيفية تربية الببغاء، ولو قتل أحدهم ببغاء صدفة كان يعاقب بعشرة أعوام من السجن حسب قانون الطوارئ لمجلس الثورة، ومن قتل ثلاثة من الببغاوات فعقابه السجن المؤبد، وصار العشاق في المتنزهات العامة يلاقون صعوبة في الحديث همساً نتيجة الضوضاء الناجم عن طيران المئات من الببغاوات فوق أشجار تلك المتنزهات، ولما كان سبّ الببغاوات ممنوعاً بدأ العشاق يشتمون بعضهم بعضاً، صارت الهدية المفضلة في مناسبات الزواج زوجاً من الببغاء، أصبح الشعار الأوحد على كل جدار وقنطرة وفي واجهات المعارض والمحلات.. وفي المدارس ودور المجانين والمستشفيات هو:

(مادمنا أحياء سنظل ببغاوات..!).

وتخلى الفنانون المبدعون عن اللوحات القيمة التي تصّور الطبيعة وبورتريت الفاتنات والصبية الذين يذرفون الدموع والوجوه الكادحة، الجداول والأشجار والسماء والغابات، صاروا ليلاً ونهاراً يرسمون الرئيس وببغائه المفقود. في عموم البلاد شهرياً كانت تقام المعارض، إضافة الى هدية الرئيس، كل وزير كان يودع هديته في مظروف ويبعثه الى الفنانين. عشرات.. مئات اللوحات الملونة، الرئيس والببغاء على كتفه، الرئيس وقد أدخل منقار الببغاء في فمه، الرئيس وقد وضع الببغاء على سبابته، الرئيس مع أفراد عائلته على مائدة الطعام والببغاء يشاركهم، الرئيس يصلي والببغاء فوق سجادته، نائم والببغاء عند رأسه، لم يكن عجيباً

عندما تقرر في تلك الليلة إزالة صور النسر من الرموز واللوحات الحكومية واستبدالها بصورة ببغاء بمنقاره المقوّس وأجنحته الملونة، وغدت صورة الببغاء بأجنحته المفتوحة على عَلَم البلاد. واستدعي الشعراء الى القصر لتنظيم قصائدهم اللاحقة في تمجيد ببغاء الملك وجميع ببغاوات البلاد. في كل ليلة ولساعة من الزمان يتكرر هذا الضجيج. وكتّاب القصة يدوّنون في ثنايا قصصهم سر إختفاء الببغاء ولغزه ويروون في ذلك حوادث عجبية، لكنها تنتهي جميعاً نهاية سعيدة واحدة هي عثور الرئيس على ببغائه وما تغمره السعادة بذلك، حيث يغدو ذلك اليوم عيداً وطنياً ويقرر بمرسوم جمهوري ان تغدو أنثى الببغاوات جميعاً ضمن عائلة ببغاء الرئيس (المذكر) الذي سيُعثر عليه اليوم أو غداً. في الأسواق والأزقة والشوارع، في الباصات وسيارات التاكسي والقطارات يشاهد الجميع وهم يمسكون بخيوط مشدودة ببببغاوات، أو يشدونها برسغهم. الببغاء يطير ويحط فوق الرؤوس والأكتاف، كلّما نظرت الى السماء لا تجد غير الببغاوات حيث الويل لأي طائر آخر، في كل زاوية وثغرة كنت تشاهد الببغاء، ويتساقط زرق الببغاء فوق رأسك، غداً كل شخص يمتلك في البيت فرشاة لتنظيف الزرق المتيبس من على ملابسه، كثيرون حاولوا إيهام الرئيس وبعثوا له ببغواتهم بأسماء مستعارة، لكن الرئيس كان نابهاً لأنه كان يعرف ببغاءه جيداً، حتى أخذ السياح وهم في طريق عودتهم وحتى المهربون يجلبون معهم من الجانب الآخر من الحدود أنواعاً غريبة من الببغاء، ولكن عبثاً، حتى كادت لوعة الرئيس على ببغائه ان

تودي به.
لمرات عديدة يجمع مجلس الوزراء ويسألهم الى ماذا يؤولون إختفاء الببغاء؟ وكيف يفسرونه؟ وكان الضجيج يسود المجلس.
- مولاي القفص، كان ينبغي ان يكون أكبر..
وأجاب وزير آخر (وهل هناك قفص أكبر.. كان يسع لعشرات الخرادل).
- ولكن مولاي كان قد حرّره في الآونة الأخيرة تماماً.
- مولاي، كان الببغاء في الأيام الأخيرة عنيداً، لم تعجبه الطيور الأخرى.
- لا.. أعتقد انه منذ ان منعتم عنه إلتهام بلبل (فنس) انزعج وطار..
- أتصوّر.. انه اختفى مكايدة للصحفيين، لقد وجهوا فلاشات عدساتهم الى عيونه حتى أصيب بالعشى.. ما مرّ يوم دون التقاط الصور له.
- ولكنه كان ضرورياً.. كانت مسألة أرشيف.. كان ينبغي تصوير جميع تحركات الببغاء مع الرئيس.
- لا.. كان الببغاء مدللاً ومغروراً، لقد تغيرت طبائعه.. لقد مارس الحب مع كل الطيور، حتى غدا لا يفرّق بين الديك والدجاج، لقد صار ضخماً بشكل كانت الطيور الصغيرة تنفق تحته.
- وكيف لا يكون مغروراً. قبل تفتيش الحرس الجمهوري كان على الرؤساء مشاهدة الببغاء.. حتى صار يزرق أمام أعينهم بل يشتم أحياناً.
- لو كنت أنا لفعلت مثله أيضاً.. لو كان هناك اثنان

من العقداء في خدمتي ينظفون قاذوراتي..

وكان الرئيس في هذه الجلسات العقيمة يهز رأسه حتى يغدو المجلس فوضى ببغاوياً حينذاك يغادره دون كلمة وداع..

مرّ عام ومرّة أخرى عم الحزن والحداد البلاد، وأدرك السجناء أنفسهم حين أوصوا آباءهم وأمهاتهم وآباء وأمهات أقاربهم أن يأتوا لهم بزوج من الببغاء، ربما عطف الرئيس عليهم وتلّطف بهم وعفا عنهم وكان الأكثر انزعاجاً المحكومين بالإعدام، من المستحيل أن يكون احتجاز الببغاوات في السجون من دواعي سرور الرئيس وهو في حالته تلك على ببغائه المفقود، من المحتمل جداً ان يعفو عنهم وعن ببغواتهم في عيد ميلاده، لقد أعفي الذين قضوا العمر في السجون بشرط واحد أن يعثروا على الببغاء خلال شهر واحد وإلاّ سيعدمون، كان متعذراً جداً العثور على ببغاء الرئيس في بلاد مليئة بالببغاوات.. من المخجل.. في ساحات المدارس والجوامع والمستشفيات، في القيصريات وسوق السماسرة وأمام باب المحافظة كان الببغاء يمارس الحب دون حياء، وكانت طالبات المتوسطات والثانويات يخجلن من المنظر والمدرسات يزعقن بهن في الصفوف (أيتها الصفيقات درن بوجوهكن.. أما والله ترغبون في هكذا..).

ومن فرط حب الرئيس لببغائه استبدل النشيد الذي ظل لمئة عام بنشيد جديد كتبه أكثر الشعراء ببغاويا في البلاد. بعد ثلاثة أيام حفظ جميع طلاب مدارس البلاد النشيد الجديد، في الصباح كانت المدن في اهتياج، في كل مدينة

انشـئ حقـل خـاص بتكـاثر الببغـاوات، وأعـد أسـاتذة البايولوجيا في الجامعات محاضرات خاصة بهذه المناسبة وكانت النفقات تصرف لهم من ميزانية الرئيس مباشرة. وفي يوم جمعة وأمام أنظار الناس وفي ساحة الشعب، حيث تمثال الرئيس وعلى كتفه ببغائه، تم شنق ستة أشخاص، إثنين منهم من الشيوخ والأربعة والآخرين من الشبان لأنهم ادعوا بأن الرئيس يكذب وأنه لم يفقد ببغاءه أصلاً وأنه مجرد خديعة يبغي من ورائها تحويل الجميع الى عَبَدة الببغاء. ثلاثة منهم من أهل المدينة والآخرون من الريف، كانوا عراة وبلا أهل وظلوا معلقين حتى تعفنت أجسادهم، ثم جيء بالمئات من الببغاوات لتلتهم اللحوم المهترئة، كان مخجلاً ان تكون هناك أسرة لا تربي الببغاء سواء في المدينة أو في الريف، وفي الأمسيات كانت الشعارات التي تستهوي الرئيس تذاع من الإذاعات والتلفزيونات، وكانت لكل شخص حرية اختيار أحد تلك الشعارات لتلقين ببغائه، مرّت سنة وقد تناسى الناس الكثير من همومهم، وأُجري إحصاء في عموم البلاد وقد سُرَّ الرئيس بنتائجه كثيراً الى حد كاد ينسى معه ألم اختفاء ببغائه، لأن كل مواطن في البلد غدا من نصيبه زوج من الببغاء، ذكر وأنثى، وهناك بشرى للمواطنين كافة بأن آلافاً من أنثى الببغاوات هي في طريقها من الخارج الى البلاد ستوزع على من يمتلكون ذكوراً لببغاوات، ولن يحرم أحد من ذلك. وأن الرئيس وأسرته مسرورون جداً لا لأن الناس يلّقنون الببغاوات الحِكم بل لأن الببغاوات تلقن الناس الحِكَمْ. ولو لم يكن الأمر كذلك ربما مات الرئيس كَمَداً. لأن الببغاء وكما تبين كان على كتفه في كل

اجتماعاته حتى إذا تلعثم رئيس الوزراء أو أحد الوزراء وبدأ اللغط أطلق الببغاء عفطة منهياً الاجتماع بذلك. في السنة التالية أعلنت في البلاد عطلة لمدة شهر، باستثناء المعامل فان المؤسسات الحكومية الأخرى ستُعطّل، وفي كل مدينة يقام مهرجان، وكل من يرى نفسه لائقاً يحق له المشاركة، ويسجل اسمه في أحد حقول تربية الببغاء في المدن والقرى، وستُمنح هدايا الرئيس واسرته لِمَن لقّن ببغاءه بمهارة أطول العبارات. عبارات تدخل السرور في قلب الرئيس.

الهدية الأولى ستكون للوطني المخلص الذي يكون قد نسي كل شيء وغدا اصم وأبكم كالطفل الوليد لتوّه لكن ببغاءه قد تلقن كل الجمل والحكم التي تسعد الرئيس. وسيفتح الرئيس أبواب القصر على مصاريعها لمدة ثلاثة أشهر حتى يقبل آخر متنافس الى القصر. ومن لا يجد في نفسه القدرة على تلقين ببغائه الحِكم الرسمية فان الرئيس بصدره الرحب يفتح حدود البلاد لهم ليغادروها الى جهنم تلاحقهم لعنة الرئيس وأسرته ويبقى في البلاد المخلصون..!

مضى شهر.. وقد فُتحت الأبواب المغلقة.. وتقاطر الناس على الشوارع وازدحمت الأزقة والطرقات، في الصباح كان كل موظف ومعه ببغاءه على كتفه راجلاً أو راكباً يتجه نحو المؤسسات ساكتاً كالأصم الأبكم وبعضهم أطلق لحيته، شيباً وشباناً، ذكوراً وإناثاً كمن مسهم السحر، ذاهلين يتأملون بعضهم، صدقاً أو ادعاءً لا أحد يكلم الآخر ليثبت ان كل ما كان يعرفه من الكلام والحِكم قد لقنه لببغائه، والببغاوات يزعقن بآلاف الكلمات

دون رابط ومن دون فعل وفاعل وصفة وموصوف وضمير وصل. غير هذا الزعيق والصراخ ما كنت تسع صوتاً آدمياً، حتى في المخادع كانت النسوة تكلم الرجال بالبنان والإشارات، باستثناء الصبية الطائشين الذين كانوا يثيرون الضجيج في الأزقة والطرقات وكانوا يُشبعون ركلاً وضرباً على مسلكهم هذا، أنبه الأساتذة وأذكى الطلبة كان من تكفيه الإشارة فقط، الأسئلة والأجوبة كانت تتم من خلال إيماءة رأس أو تصفيق، وكان الأطباء والمرضى قد نسوا الكلام منذ فترة، في الكليات كانت السبورات والطباشير كافية، في المدارس والمقاهي والملاهي ومحلات السمسرة كان الناس يتبادلون الحديث بالأيادي والحواجب، حتى الببغاوات كانت مذهولة من هذه الظاهرة، ولم يبق للعشاق غير العناق والعظ والدغدغة، وكان العطار والتاجر والبقال والقصاب والاسكافي ومصلح السيارات والحداد والنجار ينهون المساومة التي لا تُعجبهم بعفطة. ومن شدة الازدحام كان الشباب والشيوخ يضطرون الى السفر الى العاصمة بموجبات، المحطات كانت مزدحمة ليلاً ونهاراً. ليس فقط الباصات والسيارات الصغيرة، حتى اللوريات والتراكترات كانت مكتظة، ومن كان أكثر إخلاصاً كان يصر على الوصول الى قصر الرئيس مشياً على الأقدام، لا يهمهم الجوع والعطش ولا الحر والبرد وعندما يتفضل الرئيس يستقبل الآلاف من مربي الببغاوات، في الإذاعات والتلفزيونات كانت تفاصيل الاستقبال تذاع كل صغيرة وكبيرة، وخصصت أيام الاسبوع لاستقبال أهل القرى والمدن. وخصصت صفحة مستقلة في كل

الصحف للببغاء وعالمه العجيب. وليلاً كان الرئيس يطل على الجمهور مع ببغائه بحكمة ضاحكاً، ويستأنس مربو الببغاء بقهقهة الرئيس وكانت بسمة صفراء ترتسم على شفاههم وحتى لا يسلب أحدهم حكميات ببغاء الآخر كانوا مرعوبين، وعلى شاشات التلفزيون تعرض ألوان الطيور وصفقات أجنحتها، وملايين الناس في عقر دورهم في دهشة وهم محتارون، ومع كل قهقهة للرئيس تنطلق من العاصمة كان صداها المهيب يتردد في كل بيت وفي كل قرية ومدينة، وما كان أحد يعلم ماذا قال الببغاء حتى أطلق الرئيس قهقهته تلك!

والأغرب من كل هذا.. مئات من الشباب والشيوخ، أبناء وبنات البلد بمجرد وصولهم العاصمة يخيطون أفواههم وهم يحلفون بأنهم لن يأكلوا ولن يشربوا حتى ينالوا المبتغى! وآلافٍ من الذين وفدوا الى العاصمة مشياً على الأقدام نال منهم التعب وتساقطوا، عشرات من الذين كمّوا أفواههم نال منهم الجوع والعطش والببغاوات المشدودة المناقير عجزت عن ضبط أجنحتها ورقابها، ووصلت صدى هذه التضحيات الى القصر، وأمرَ الرئيس برحابة صدر انه في استطاعة من أضربوا عن الطعام والشراب، وفي استطاعة الببغاوات المشدودة المناقير أيضاً، في استطاعة هؤلاء جميعاً فك الاضراب وتناول الشراب والتهام الطعام. والذين بقوا مضربين حتى النهاية ماتوا أبطالاً، وقد دفنوا مع ببغاواتهم التي تساقطت أرياشها في المقبرة الخاصة بالرئيس وعائلته. وكثيرون كانوا يحلمون بتلك الميتة البطولية، انتشرت اشاعة مفادها ان الذين تظاهروا بالصم والبكم كذباً صدرت مراسيم جمهورية

بشـنقهم، الببغـاوات التـي تتطـابق كلماتهـا وحكمهـا سـيقبلها الرئيس مع أصحابها، أما الذين يتباطأون عن المنافسة لأي سبب كان فالله وحده يعلم ماذا يفعل بهم الرئيس، وعندما علم الرئيس بهذه الأمور أطل من الشاشة وقد زين صدره بعشرات الميداليات والنجوم والألوان وبابتسامة صفراء مخادعة أبلغ الجميع (ليس من حقكم أن تخافوا.. أو تقلقوا وتترددوا، سيأتي دوركم جميعاً ولآخر مرب للببغاء سيظل باب القصر مفتوحاً، الذي يخسر هذا الرهان المقدس اليوم، فليجاهد جيداً ليفوز به في المستقبل، إذا لم يقدر هو فليحث أطفاله وأولاده على حب الببغاء وعالمه المدهش، ومن هذا المنبر أبلغكم ان أي واحد منكم إذا استطاع أن يلّقن طيره كلمة واحدة، فقط كلمة واحدة تدخل السرور الى قلبي، ليعلم جيداً انه في الوقت الحالي سينال عطفي.. والى أمام يا مدرّبي الببغاوات في بلادي).

كانت تلك الليلة، الليلة الوحيدة التي نام فيها الجميع بهدوء وراحة بال وفي الصباح ابتهل الجميع الى الله ان يمّد الله في عمر الرئيس.

وبدأ الذين التقوا الرئيس يعودون مع ببغاواتهم جماعات جماعات، وكل شخص يسألهم: ماذا حصل؟ ماذا حدث في القصر؟ من شاهدتم؟ ماذا تغديتم ظهراً؟ ماذا قال الببغاء؟ لماذا ضحك الرئيس؟

كان الأخرس يهز رأسه تعباً، يجر نفسه متثاقلاً والببغاء فوق كتفه يرنو الى الوراء ويقول للجمهور فرداً فرداً:

(غيغا.. غيغا..).

وهؤلاء ينظرون الى بعضهم في ذهول ويسألون:

(غيغـا) وهـذه كانـت الحكمـة الأخيـرة التـي تعلمتهـا الببغـاوات العائـدة مـن القصـر، ولـم يكـن أحـد يعلـم متـى ينتهي هذا الرهان وأي محظوظ سيفوز به؟!

* شـيرزاد حسـن، زقـاق الفزاعـات، مجموعـة قصـص، ط1، 1997.

عزرائيل

ترجمة: آزاد برزنجي

لست أدري هل أشكر الشيطان، أم ألعنه لأنه عرّفني بعزرائيل؟.. فلولاه لما كنت أكتشف حيلة أمي.. آه.. يا أمي الجميلة والحنونة.. آه يا أمي الخائنة.. نعم.. أماه.. أنتِ التي خدعتِ أطفالك.. آثمةٌ أنتِ.. أنتِ الحنونة التي كانت الملائكة تصلي على سجادتكِ، بل على وشاحكِ. لقد بعتِنا من أجل ذلك الـ"عزرائيل"، أدرتِ ظهركِ لأطفالكِ.. بناتك وأولادك الذين يكنّون لكِ حباً وصالحت عزرائيل. التمسنا منكِ بعيوننا، وبخناكِ.. قلنا لك بالله عليكِ يا أماه ابتعدي عن فراشه، من الآن فصاعداً لا تنامي مع ذلك العفريت، أنفاسه كأبخرة الجحيم، يا لصفرة أسنانه التي سممتها كثرة التدخين. أماه.. كيف سمحت لنفسك أن تبيعي فلذات كبدك من أجل ذلك الرجل؟..

في المرة التي فيها شجّ رأسك الصغير بعقب بسطاله المسمّر.. حيث جرح العفريت جفنكِ.. فانسابت دمائكِ

الزكية على ذقنكِ الأشيم، وامتنعنا نحن عن الطعام قهراً، وأنتِ عدتِ الى والدتكِ المطلقة مغلوبة على أمركِ، لم نذق شيئاً ذلك المساء.. وعشرات أماسٍ أخرى.. بل مئات أماسٍ مضت وستمضي.. نحن الجبناء كنا نضرب عن الطعام، كنا نختفي تحت لحافنا البالي منذ المساء، محتضنين بعضنا البعض، ما كنا نملك غير لحاف واحد، حزناً على مغادرتكِ لم تكن اللقمة تستسيغ في حلوقنا.. ولكن آه.. حينذاك كان يضربنا، يبصق علينا ويشتمنا "يا أولاد القحبة.. ألا يستطيع أحد منكم أن يقلي لي بيضاً بالدهن؟"، وما أن يبدأ بالصراخ حتى نصطف كجنود هتلر ونبدأ بإعداد الطعام.. أنا أجيء بالمقلاة، وشلير بالبيض، وفرهاد بالدهن، وباكيز بالنار.. وهو يلوك الطعام بصفاقة.. بلى يا أمي الجميلة والخائنة.. لم يكن ذلك الرجل يشعر بخجل، كنا ندعو الله أن تخنقه إحدى تلك اللقم، كنا ننام جياعاً وهو يلتهم اللقم الكبيرة، كان يبصق علينا ونحن نسترق النظرات من تحت اللحاف. بعد اليوم الذي اجتثّ فيه شجرة التين.. بعده بخمس سنوات ولما وافت أختي "نرمين" المنية متأثرة بالسعال الديكي قلتِ له "سمه.. أنتَ السبب في موتها..!"، فصرخ ملء الغرفة "هذا يعني بأنني عزرائيل..!"، قلتِ حزينة "لا.. لست بعزرائيل.. لأنه هو أيضاً من ملائكة الرب.. ولكن منذ اليوم الذي قطعت فيه شجرة التين لم نصادف خيراً، والله لا يرزقنا وحالنا يزداد سوءاً بعد سوء، نكدّ ونشقى ولا نلقي إلاّ الأمرين..!". ولكن ما جدوى كلامكِ يا أماه..؟ لقد خنتِنا وخنتِ نفسكِ وشجرة التين أيضاً.. تينك المباركة.. أنتِ التي تلتقطين صغار القطط

والعصافير والخطاطيف الضالة كي يرأف الله بحالنا ويزيدنا لقمة، لقد أتيتِ بفسيلة شجرة التين من على مرقد "وكاشه" وغرستيها في باحتنا الصغيرة كي نزداد بركة، وفي أعياد الضحى تسقينها بدماء الدجج والديوك التي كنا نذبحها كي يأكل أبناؤك من ثمارها المباركة ويتفيؤون بظلالها المقدسة، وتسقط أوراقها الميمونة على رؤوسنا.. وعسى أن يأكل هو أيضاً من ثمارها ويترك المقاهي والحانات ولعب القمار ويسلك الصراط المستقيم ولا يكيل علينا الضربات ولا يجركِ من شعركِ.. ولكننا يا أماه لم نره أبداً يأكل حتى تينة واحدة، بل إنه كان يكرهها ويكرهنا، كان يقول "حتى لو كنتُ على شفا الموت وقيل لي إن أكلت من ثمار التين لشفيت لما أكلت منها".. وكنا نتمنى أن لا يأكلها كي تبقى لنا.. لكنه لم يقف عند هذا الحد.. أتتذكرين.. ذاك اليوم.. كان مساءً خريفياً بارداً، فتح الباب راكلاً إياه، مقتلعاً عضاديته، بقي واقفاً لوهلة عند عتبة الباب، حاملاً في يده فأساً يدخل الرعب في النفوس، فأساً يشطر الشعرة شطرين، كان يتلاعب بالفأس بين يديه.. يهزّه، ثم ينظر إلينا ويضحك، أحست الشجرة بذلك فسقطت منها عدة وريقات، سقطت كل واحدة منها على رأس طفل من أطفالك، وهمست الوريقات في آذاننا "قولوا لوالدكم ألا يقتل والدتنا..!" لا تقولي هذا إفتراء، أنتِ بنفسكِ كنتِ تقولين لنا "حتى الكلاب والقطط والأفاعي والحشرات والأشجار تتكلم، تحزن عند الكوارث وترقص عند الفرح.. وفي أيام الجمع تبتهل الى الله وتسبّح باسمه.."

لا نكذب يا أمنا الحنونة والجبانة.. نحن لا نكذب..

كانت الأوراق تبكي، وعزرائيل يضحك وفي يده الفأس، وهو يتوق لقبض روح الشجرة، فارتعشت الشجرة وارتجّت يميناً ويساراً خوفاً من أَجَلِها المحتوم، ولما علمنا نحن أطفالك بأن الكارثة وشيكة الوقوع جئنا إليكِ وتضرعنا صامتين، ولما رأينا الخال الأحمر في عينك اليسرى وقد أسودّ لونه كالقطران.. أيقننا بأن الكارثة آتية لا محالة، وأنتِ لا حول لكِ ولا قوة.. وكنتِ دائماً ترددين "حين يعزم ذاك الـ(عزرائيل) على فعل شيء.. كأن يكسر يداً، أو يدمرّ حائطاً، أو يجتث شجرة من جذورها.. لا أحد يقدر أن يقف بوجهه يا أولادي.. لا تزيدوني هماً فوق همي". وبعد تلك الكارثة بسبع سنين حينما انكسرت يد "شيرين" وبقيت في الفراش تئن لثلاثة أشهر.. قلتِ "سمه.. إنها لعنة وكاشه.. تلك من وراء ما فعلت بالشجرة المقدسة.." ذاك الكافر.. أتذكرين ماذا فعل..؟ إنه اضرط بكِ.. اضرط بفمه ضراطاً لم يجد صداه له مكاناً في غرفتنا الوحيدة والصغيرة، وأنتِ شرعتِ بالبكاء وقلتِ متأوهة "إنكَ غارق في الذنوب، ان السماء لن تمسك بسوء.. بل تمس أطفالي". وبعدها بثلاث سنوات ولما رسب "محمد" في الرياضيات.. صحتِ "سمه.. هذه أيضاً لعنة التين".. وبعدها غدت أيامنا كلها.. ولياليا وابلاً من اللعنات وأصبح العمر كله لعنة أبدية.. لقد توسلتِ منه بعينيكِ، والخال الأحمر في عينكِ اليسرى يزداد اسوداداً وينتشر الى أن يشمل بياضها أيضاً.. منذ ذلك اليوم وكلما حدقتِ في ما بقي ظاهراً من جذع الشجرة كانت عينكِ اليسرى تغدو قطرة من القطران.

كلنا.. أنا وفرهاد ومحمد وشلير وشيرين وباكيز..

ومعكِ شكّلنا سوراً حول الشجرة، ولكن دون جدوى، فقد بقيت هي تمطر أوراق البكاء. كانت تدرك بأن فأساً في قبضة عزرائيل تعني النهاية، ولا محالة بأن الكارثة واقعة، حتى أنتِ.. كنتِ تعلمين بالحقيقة، أنتِ خنتِنا، ونحن نشفق عليكِ.. ومنذ الآن فصاعداً تحت ظلال اية شجرة ستجلسين وتحزنين وتبكين، البكاء الذي كنا نتصور انه عادة يومية لكل نساء حيّنا والأحياء الأخرى، نساء كل القرى والمدن البعدية.. تلك القرى والمدن التي كنا نتمنى أن نكبر بسرعة كي نسافر إليها.. كنا نتصور أن كل أمهات العالم لابد أنْ يبكينَ ولو لمرة واحدة في اليوم.

كان سياجنا الذي شكلناه نحن أطفالك الخائفون حول الشجرة هشاً، ولما تقدم عزرائيل باتجاهنا لاعباً بفأسه في الهواء كدنا نموت ذعراً، فانفكت أصابعنا المتشابكة بعضها مع البعض، فنظرنا نحن الأقزام الى عزرائيل العملاق ومقبض الفأس في يده طويل مثله، بحيث يكفي لا لقطع شجرة تين واحدة فحسب، بل لقطع مئات الأشجار.. بل غابة بأكملها، فاستهزأ بخوفنا وبخوف الشجرة وارتعاش أغصانها، تقدم أكثر وشمر عن ساعديه، وما أن ضربها الضربة الأولى حتى انفطر فؤادها وشرعت بالبكاء وغطت مئات الأوراق باحتنا الصغيرة، كانت الأورق تتلألأ متطايرة في الهواء وهي تنتحب، لكن وا أسفاه.. متى كان عزرائيل يرأف بحال فريسته؟.. لم يكن يبدو أن الفأس ينزل من فوق رأسه على جذع الشجرة، بل ينزل عليها من سماء عالية بعيدة، ورأسنا يطن من أثر أزيزه، مسكتِ بيديكِ المرتعشتين

يديه المشعرتين.. تلكما اليدان اللتان كنا نخاف من عروقها الزرقاء البارزة الغضبى، انتحبتِ.. نحّى يديكِ الحنونتين بقسوة.. توسلتِ إليه "لا تقطعها.. إنها شجرة مقدسة، منذ أنْ غرسناها والخير يعمر بيتنا.."، ضربة أخرى وصيحة أخرى، شظايا وجروح أُخر.. ودم أبيض كالحليب.

أمي المذنبة.. أولادكِ.. أبناؤكِ وبناتكِ لن يعذروكِ. قولي لنا.. كيف سمحت لنفسكِ أن تنامي معه ثانية، أنتِ خدعتِنا.. آنذاك كنا أطفالاً مخدوعين، أنتِ وذاك الـ"عزرائيل" الذي اجتث الشجرة من جذورها كنتما تسخران من عقولنا الصغيرة الساذجة.. لا.. يا أمنا الحزينة.. العديمة الوفاء.. نحن لن نغفر لكِ.. لن نعفو عن ذنوبكِ، اجتث شجرة سعادة طفولتنا الوحيدة ولم تمنعيه عن فعلته، نعم.. هذا ما حدث في الليلة التي اجتثت فيها شجرة التين.. أمنا الثانية.. أنتِ كنتِ ترددين دائماً "هذه التين المقدسة أختي، وهي أمكم الثانية". كنا نلعب ونلهو وننام تحت ظلالها، وكانت هي كل صباح تعطي كلاً منا تينة نأكلها، وقد يزيد عدد التين على عددنا؛ آنئذٍ كنتِ توزعين ما زاد عنا على أطفال حارتنا الجياع.. يا لجبنكِ يا أماه.. في تلك الليلة نفسها ذهبتِ ونمتِ معه، تسلل الى فراشك ولم تطرديه، أماه إنه لم يقطع شجرة التين، بل قطع مصدر حياتنا ونبع سعادتنا، لم نكن نقدر على شراء كيلوغرام من التين، كنت تجففين أوراقها وتغلين دُقاقها ومن ثم تشربين ماءها.. كنتِ تقولين "إنها روح وكاشه.. ما ان أشربها وأنعم بالصحة والعافية". وكنتِ تستعملينها أيضاً كدواء شاف

لآلام رأسك وبطنك وظهرك. غالباً ما كنتُ أستيقظ صباحاً على صوت طائر جميل لا اعرف اسمه وهو يغرز منقاره في تينه الناضجة حد التعفن ويمتص ريقها حتى الثمالة. كان ذلك الطائر الصغير يُسكرني بتغريده، فيعد أن احتلمتُ وتولّهتُ بحب جرتنا (نازي) كنت أود الاستماع لغنائه الفردوسي الخلاب كي يلهمني كلمات أرسلها لـ"نازي"، أحياناً كنتُ أحتضنها وأرفعها كي تقطف تينة، وكان وجهي ينحصر في ذلك التجويف الذي لا أجرأ أن أذكره. أماه.. إنه قتل روح وكاشه بفأسه، إنه حرمني من عبير صدر نازي، وبكى فرهاد لانهدام أعشاش فواخته على الشجرة، انه حرم الى الأبد من النظر الى بيوضها وصغارها، من الآن لن تحط العصافير اسراباً في باحتنا ولن يستطيع هو أن يخفي نفسه متربصاً لها بمصيدته، فلن يأكل منذ الآن لحمها المشوي اللذيذ، شيرين وباكيز كانتا تبكيان لأرجوحتهما التي ذهبت ولن تعود.. أنا أيضاً أبكي حين أتذكر تلك الارجوحة.. حيث كانت حبيبتي "نازي" تقلد الصغار وتحب أن تلعب الأرجوحة وتقول لي: "تعال وادفعني..!". آه.. يا أمي الحبيبة.. اللعنة على كل الآباء.. فالهواء يرفع فستانها ويكشف عن جسدها الذي كانت عليه تمتزج أشعة الشمس بظلال الشجرة المقدسة، وأنا.. كانت الرعشة تملأ كياني تارة وتارة أخرى أتوقد كالشرارة على إيقاع تلك الظلال الواقعة على وجهها حيناً وعلى فخذيها حيناً آخر.. انجينا يا أماه.. أنجدي تينكِ المقدسة، دواء آلامك وأمراضك، فيء همومك وأحزانك، أنجدي عش الفواخت وبيوضها،

أنجدي أرجوحة "نازي" وتينة طائر السحر الغريد.

حاولتِ أن تمنعيه.. وكاد أن يشطر بفأسه رأسكِ الى شطرين، لكننا منعناه من ذلك.. لقد قتل الشجرة، فسيان لديه أن يقتلك أيضاً، ماتت أمنا تلك.. فلتبقين أنتِ على الأقل، اقتربتِ منه ثانية، وكان الفأس يلمع في يديه لمعاناً ذهب ببصرنا، توسلتِ إليه.. بكيتِ.. قال عزرائيل "مريم.. هذه الشجرة لا تسمح لكرومي أن تتسامق.. هذه التين اللعينة توهن قوة كرومي..!".

قلتِ له حزينة "سمه.. كرومك متيبسة..".

"لا.. ليست متيبسة، انها أصيلة، أتيت بفسيلتها من سفين".

"من أجل أطفالك.. لا تقطع الشجرة.. انهم يحبونها أكثر من كرومك".

"وكرومي.. ماذا بها..".

"ليس بها شيء.. ولكن أرجوك لا تقطعها كي لا تنزل لعنة الأولياء علينا".

"هراء.. لا أضحي بكرومي من أجل تينكم..!".

"إذن أنتَ تصر على قطعها..؟".

"لاريب في ذلك".

"التين مقدسة.. وقد ذكرها الله في القرآن أيضاً.. لم تفعل ذلك؟..".

"حتى لو ذكرها الله في كتبه الأربعة..".

"لكن الله.....".

لم يسمح لكِ بأن تنهي كلامك، نحاكِ جانباً وأنزل الضربة الأولى على قلب الشجرة التي أنَّتْ من الألم، انه لم يكن ينزل الضربات على قامة شجرتنا الحبيبة؛

بل كان ينزلها على قاماتنا نحن، لكنكِ مخطئة يا أماه.. فنحن ضربون لحد الآن، لكنكِ استسلمتِ له الليلة نفسها، خدعكِ بتلك الكلمات المعسولة التي كنتِ تسمعينها منه بعض الليالي لا غيرها، المرة التي مرضتِ فيها قلتِ "أبنائي الأحباء.. إني على وشك الموت.. عليكم بتبرئة ذمتي". لم ننطق بكلمة.. لم تعرفي سبب صمتنا، لم تكوني تعرفين اننا كنا ساعتها نتذكر خطيئتكِ تلك.. خطيئة تلك الليلة المشؤومة، لم نكن نستطيع تبرئة ذمتك، ففاضت أعيننا بالدموع.. آه يا أماه.. مع كل ضربة فأس كانت الشظايا تتطاير نحو أحضاننا.. شظية لي، وأخرى لمحمد، وغيرها لفرهاد، وشلير وشيرين وباكيز.. ثم لكِ أنتِ.. كانت الشظايا تتوسل وتستنجدننا لإنقاذ حياة الشجرة.. لم نستطع.. لم نستطع.. الليلة نفسها.. ليلة قطع الشجرة، كانت ليلة بلوغي.. أو ليلة احتلامي كما تسمينها أنتِ..! ولكن أي احتلام؟ أماه.. لقد حلمتُ بـ"نازي"، بعبير صدرها ونهودها الفتية، وبشذى جسدها، لم أكشف عن السر ذاك.. وكان ذلك بمثابة انتقامي منك، لأنكِ الليلة نفسها استسلمتِ له ونمتِ مع عزرائيل، وحين بزغ النهار، لم أكن أعلم أأشكر الشيطان أم ألعنه لأنني اكتشفت سر عزرائيلك، عار لكِ يا أماه.. يا لأكاذيبك القبيحة، نحن نخجل من كوننا أولادكِ، وخجلى أمام روح شجرتك، وكنتِ غير وفية لنا ولها، بعد الليلة التي أتاني فيها الشيطان في ثوب (نازي) وأقضّ مضجعي حتى الفجر.. لم أسرك بالبشرى تلك.. حرمتك من ذلك الفرح، فرح بلوغي سن المراهقة، فرح توزيع الحلوى

على الجيران والأقارب احتفاء بالمناسبة تلك، كنتُ دائماً أخفي عنكِ ملابسي الداخلية القذرة الصفراء.. بدأتْ شعيرات شاربي تظهر وصوتي يغلظ.. لكن رغم ذلك بقيت محتفظاً بسري ذاك.. إلاّ أن وجدتِ وبعد سنتين من ذلك بقعاً صفراء على فراشي، فقلتِ:

"لا.. لن أصدق.. فابني مازال طفلاً..!".

وفي الليل عندما تمددتِ الى جانب ذاك الـ(عزرائيل).. سمعتُ تأوهاتكما المخزية تتحدثان عنيّ.

"سمه.. لقد احتلم ابنكَ قبل أوانه..".

لم يستطع عزرائيلك المتعجب أن يجيبكِ.. فكررتِ "انه مازال طفلاً.. هذه أيضاً لعنة التين.. لعنة وكاشه..!".

لم يجب بشيء.. تنفسّ طويلاً.. كنتُ أرى سيجارته المشتعلة في يده، وكنتُ أسمع شخيره المزعج.. سمعتكِ تقولين له بصوت خجل "لن أنام معكَ من الآن فصاعداً.. هذا حرام.. أطفالكَ كبروا.. من الحرام أن ننام كلنا في غرفة واحدة".

لم يجبكِ، وأخذ نفساً قوياً من سيجارته فاضاءت ما حولها لبرهة، قلتِ له: "فلنبني ولو غرفة صغيرة الى جانب غرفتنا هذه".

ولكن بعد ماذا يا أماه.. بعد ماذا..؟ إني عرفتُ ان ذاك الـ(عزرائيل) الذي كنتِ تتحدثين عنه وكان ينسل الى فراشك؛ كان والدنا، ذاك الذي قطع رقبة شجرتنا بقسوة طاغية، وفي نفس الليلة دخلت معه الفراش دون إباء، انكِ بسلوككِ ذاك كويتِ قلوبنا، ذهب عنّا النوم تلك الليلة وأرقتنا هموم التين والعش والبيض والفواخت

والارجوحة و(نازه) وماء الأوراق الميمون الشافي لجميع الجروح. نعم.. كنتِ تقولين لنا "أولادي.. بناتي وأبنائي الأحباء.. بعد أن أطفئ الفانوس أريدكم ألا تخرجوا برؤوسكم من تحت اللحاف، لأن ملائكة السماء تنزل بالليل وتجوب كل البيوت.. عزرائيل، اسرافيل، ميكائيل، رضوان، شيطان.. أبناء الشيطان والعفاريت والأرواح الشريرة.. فيما نحن نائمون؛ هم صاحون ويقظون.. يتجولون في البيوت دونما خجل أو خوف".

سألتكِ مرة "أماه.. اني أسمع في بعض الليالي همسات وأنفاس متقطعة وتأوهات.. أسمع أشياء كثيرة".

"ابني.. حذار أن ترفع اللحاف من على رأسك، هو عزرائيل بعينه، انه تواق لقبض الأرواح.. أحياناً يمرّ من بيتنا.. انهم يخترقون حتى الجدران والسقوف".

"أماه.. إذن من هو ذاك الشبح الذي أسمعه ليلاً يتمشى في غرفتنا حيناً ويشرب الماء حيناً آخر ومن ثم ينسل الى فراشك؟".

"إنه هو بعينه يا ولدي.. عزرائيل.. قد يتعب أحياناً ويريد أن يأخذ سنة من النوم".

آه.. يا أمنا الخادعة، ففي اليوم التالي.. لا بل الليلة نفسها عرفت أن الـ(عزرائيل) الذي كان يقاسمك المخدع منذ ليلة قطع شجرتنا كان والدنا بعينه.. والدنا العصبي.. ذا المزاج الدموي.. والدنا الذي قتل الشجرة لأننا نحبها.. وسفك دماءها الصفراء..

كان يجب أن تفعليها يا أماه.. كان يجب الا تفعليها.. اني اكتشفتُ خيانتكِ، كلنا اكتشفناها.. من منّا كان بوسعه أن ينام..؟ عاد الى البيت في وقت متأخر من

الليل.. فتح باب الغرفة، فانثال علينا ضوء القمر، أتى بفأسه من الباحة الى الغرفة، كان الفأس يلمع تحت الضوء الفضي، أغلق الباب من ورائه، فخرج الضوء مرة أخرى من غرفتنا، أسند الفأس الى الباب بصمت، أصابنا الهلع، حيث خشينا أن يقطع رقابنا الدقيقة كرقبة الشجرة.. بدأنا نقترب أكثر من بعضنا ونتكوّم تحت اللحاف، اللحاف البالي والمليء بالثقوب، قلتِ له ونبرتكِ تشبه نبرة شخص يكاد يختنق "لِمَ.. لَمْ تنم في الحانة..؟". إنه حينما كان ينفعل ويبدأ بضربك وضربنا، أو حتى حينما أراق دماء الشجرة، كانت الشهوة لا الدم تجري في عروقه، اني عرفت ان الشبح الذي كان يداهم غرفتنا في مئات الليالي السابقة ويفزعنا كان ذاك الـ(عزرائيل) وليس الـ(عزرائيل) الحقيقي.. إذ ما الذي يفعله عزرائيل في هذا الهزيع الأخير من الليل في الحانات والمقاهي..؟ نزع سرواله بصمت، ومن ثم قلنسوته.. فيشماغه.. لم أكن أرى شيئاً، بل أسمعه من تحت اللحاف، وأعرف انه عزرائيل ينزغ ملابسه، ثم ذهب وبدأ يبول عند باب الغرفة، وكان خرير بوله في هذا الهزيع من الليل الصامت يشبه هدير جدول في واد صغير، كنا دائماً نرى مع كل صباح جديد آثار بوله عند الباب، يبدو ان عزرائيل يبول أيضاً، خرجت منه ضرطة تردد صداها في الغرفة، شعرنا بخجل شديد تحت اللحاف بحيث بلل العرقُ ظهري، ثم بدأ وعلى مهل بالاقتراب من مخدعك، رأيتكما بعيني اليسرى من ثقب اللحاف.. لا.. لا تنكري يا أمنا الجانية.. كيف استجبتِ لنفسكِ أن تفعليها.. لم يتركِ.. همهم ثلاث

مرات "لا تديري ظهركِ الي.. يا مريم..!".
أجبتِ حزينة "لمَ قطعتَ الشجرة..؟".
"لا تديري ظهرك.. فغداً هو يوم الجمعة".
أجهشتِ بالبكاء.. يا لدموعكِ الحاضرة.. قلتِ له بصوت خانق..
"لم يأكلوا حتى عشاءهم.. فلتعمى عيناي..".
"لا تثيري أعصابي فأقطع جميع أشجار حارتنا.. كوني امرأة طيبة وأديري وجهك لي".
"سيلعننا وكاشه.. و..".
"غداً هو الجمعة يا مريم..".
"كم كان الأطفال سعداء بها".
"غداً جمعة.. خطيئتك هذه وأنتِ مديرة لي ظهرك أكبر من خطيئة قطعي الشجرة".
"ضحيت بتلك التين المباركة لذاك الكرم العقيم".
"غداً.. هو الجمعة.. كوني.. امر.. أة.. طيـ.. بة..!".
يا لجبنكِ يا أماه.. خدعكِ بكلماته المعسولة، وخيّم صمت قاتل ومثير للاشمئزاز على الغرفة، صمت الخيانة، صمت الفضيحة، وكان نسيماً سيئ النية يتلاعب بأوراق التين الميتة في الباحة يكتسحها.. ويكومها في الايوان وعلى مقربة من باب غرفتنا، كان حفيفها يحفر في نفسي جروحاً غائرة، ولكن أوراق كرومه اللعينة كانت تتمايل وترقص فرحة بالرياح. بعد دقائق قليلة من بكائكِ بدأتِ تتأوهين وتزعقين.. لا.. لستُ أنا يا أماه.. لستُ أنا.. بل ضوء القمر الباهر هو الذي هتك سركما.. تلك الباقة من الضوء التي كانت تنسكب عليكما من الكوة الواقعة فوق باب غرفتنا، ولقد

أزالت حركاته الكثيرة اللحاف من فوقكما.. آه يا أماه.. ما الذي رأيته..؟ ماذا رأيتُ..؟! وما الذي أراه..؟! الخيانة.. الخيانة.. الخيانة.. يا لزفراته الدنسة، يا لصفرة أسنانه التي سممتها السجائر.. خيانة ليلتك تلك في قلبي جرح لا يندمل.. شرخ عميق في روحي، كنتِ تبكين ويقلبك هو في مخدعك حسب هواه، خشيتُ أن تخرج عيني اليسرى من محجرها من هول ما رأيتُ، خشيتُ أن تختنقي تحت ثقل جسد عزرائيل.. لا.. هذه ليست أمنا.. أمنا لا تحتضن عزرائيل في ضوء القمر.. لا تعانقه، أمنا لا تدير ظهرها لنا.. لا.. أماه.. نحن أطفال تلك الليلة الخائفين، كم كنا وحيدين.. امتلأت عيناي بالدموع.. ومن بين دموعي رأيتكما سبحين.. سمعتهم يبكون أيضاً.. كنا نضغط على حناجرنا لئلا تخرج أصواتنا.. ثم بدأنا أنا ومحمد وفرهاد وشلير وباكيز نضغط على حناجرنا.. بعضنا البعض.. كنا على وشك أن نخنق بعضنا حسرة على فعلتكِ تلك ونموت كشجرتكِ، وأخيراً رفع برأسه.. ومن ثم بجسمه العاري كأفعى كبيرة.. ثم قال بكلمات متقطعة:

"مريم.. أسمع.. بكاء.. أحدهم".

أجبتِهِ "لا شيء.. ربما يحلمون بالشجرة".

يا لتلك الليلة التي لم تنته، منذ تلك الليلة.. منذ ذلك اليوم.. ابناؤكِ وبناتكِ لا يجرؤون أن ينظروا الى بعضهم، يشعرون بالخجل، نحن خجلون، خجل قاتل يساورنا دوماً.. أمنا الطاهرة تضاجع عزرائيل؛ منذ تلك الليلة مرة أشكر الشيطان وأخرى ألعنه لأنه عرّفني بعزرائيل.. عزرائيل الذي اختلطت أنفاسه القذرة طوال

ليال كثيرة بأنفاس أمنا النقية، ونحن نلعنه في السر، نلعنه على قتله الشجرة في ذلك المساء، نلعنه على فعلته تلك الليلة.. يا لخطيئة تلك الليلة.. الخطيئة الكبرى.. ليلة الأمهات الناكثات للعهد، ليلة الأمهات الجميلات.. الغارقات في العطف والحنان.. الغارقات في الإثم.. المليئة قلوبهن بالهموم.. الأمهات الحزينات.. الحزينات.. الحزينات..

من مجموعة قصصية باسم "زقاق الفزاعات"

قبلة مالحة

ترجمة: آزاد برزنجي

"أنا أنتِ.. وأنتِ أنا.. ولكنكِ كنتِ نفسكِ.. وأنا كنتُ نفسي أيضاً.. أنا أحب أن أقبّل نفسي. وأنتِ تحبين أن تقبّلي نفسكِ، ولكنكِ لن تقدري.. ولا أنا أقدر، إذن قبليني عوضاً عن نفسي، وأنا أقبلكِ عوضاً عن نفسكِ".

قصيدة لشاعر فرنسي

كانت (**هيرو**) تعرف أنني أقرأ الفلسفة كثيراً؛ بجميع اتجاهاتها ومذاهبها، لكنها لم يخطر ببالها قط أن تصبح الفلسفة جسراً أعبره لتقبيلها هي. كانت تهواني وأنا أيضاً كنت أهواها.. أو بالأحرى كان يحب بعضنا الآخر، ولكن لم تفلح محاولاتي كلها لإجبارها على الاستسلام. كنتُ أقول لها "تأملي.. الى أين نصل في مناقشاتنا.. لن تبق صغيرة أو كبيرة إلاّ ونتحدث عنها.. الوجود والعدم، الموت

والحياة.. التخمة والجوع.. الحب والكراهية.. كل خفايا هذا الكون، روح الانسان وجوهره.. ولكنكِ في هذه المسألة تفكرين كأية فتاة غرّة من فتيات سهل "قراج" و"كنديناوه".

فكانت تسأل بدلال.. "أية مسألة..؟".

كنتُ أجيبها بشيء من الدهاء الممزوج بالحب "مسألة عناقي معكِ".

فكانت تقول بخجل "صحيح.. ولكنني أحب أن تبقى متعطشاً إليّ دائماً.. يثيرني عدم قدرتك النيل مني ويلذ لي وقوفك متلهفاً لي عاجزاً عن فعل أي شيء غير النظر فيّ..".

"وحبي..؟".

"وماذا في ذلك..؟ فليشتعل أكثر.. لأنك من النوع الذي إنْ اشتعلتَ أكثر في حبك لي تحدثت لي أكثر عن الفلسفة وغرائب هذا العالم وعجائبه".

"وهل تظنين أن عناقك يُطفئ فيَّ ذاك الأوار..؟".

"لا.. ولكنني لا أريد أن ينطفئ أوار روحي..".

"ولكني أخالفكِ في التصور.. أنا موقن بأن حبنا سيكون أروع لو تعانقنا".

"ولكن كنتَ دوماً تردد: لن يستطيع العاشقان أن يتعانقا وليست هناك قوانين تجبرهما على ذلك".

"لا أفهم ما تقصدين".

"بلى تفهم.. عندما نصل بكلامنا الى اللحظة التي علينا أن نتعانق لن نتحدث عنها، نجد أنفسنا في تلك اللحظة وقد ذاب كل منّا في الآخر.. وختامه السلام".

"لا.. تكذبين.. أنتِ تخافين.. وكأية أنثى لا تريدين أن

تبادري.. ولهذا أراك تفلسفين خوفكِ هذا..".

"ما الذي تبغيه بقولكَ هذا..؟".

قلتُ بحزن "لا أبتغي شيئاً، ولكنه من غير المعقول أن لا يجمعنا إلاّ لقاء واحد في شهر بأكمله، ثم أجد نفسي مجبراً على أن أتحدث إليكِ عن العصور الحجرية واكتشاف الحديد والبرونز وسلطان المرأة.. ثم الرجل وتاريخ المرأة المليء بالانتصارات والانتكاسات ابتداءً من حياة الكهوف وحتى وقتنا الحاضر، كل ذلك كي أنال منك قبلة واحدة.. قبلة واحدة فقط..!".

"وهل تظن ان هذه القبل لا تستحق ذلك، ياما قاتل المئات من البشر، وحاربت الشعوب بالسيوف وكلها من أجل قبلة واحدة.. عندما أعطيكَ قبلة.. هذا يعني أنني قد ارتبطت بك بمشاعري ووجودي كلها..".

"لاحظي كيف تتحدثين.. كأنكِ لا تعرفين قدر نفسك.. لا تقولين أقبلكَ؛ بل تقولين أعطيكَ قبلة.. لماذا يا هيرو؟ سبق أن قلتُ لكِ.. لا تقولي "أعطيكَ قبلة" بل قولي "أقبلك" لأن "أعطيكَ" كلمة لا تليق بالعشاق، انها تعبّر عن روح الذل والانقياد عند المرأة.. إننا سواء في ما نفعل.. اي إما أن يقبّل أحدنا الآخر.. أو يعطي أحدنا الآخر قبلة".

"ها انني أراكَ تكذب ايضاً.. ها أنتذا تطلب مني قبلة.. إذا كنتَ مؤمناً بما تقول دعني وشأني.. أتركني الى أن آتيكَ بنفسي يوماً ما وأطلب أنا القبلة منك.. لِمَ يحق لكَ أنتَ ذلك ولا يحق لي.. لِمَ..؟".

لم أجب.. نكستُ برأسي، بقيت متأملاً، حزيناً وقلقاً، وكانت هي تسترق النظرات إليّ ماكرة وترسم ابتسامة

على وجهها.. ثم قالت مواسية: "فيم تفكر.. لم سكتت.. ها..؟".

"هيرو.. هناك رغبات وأمانٍ يجب أن لا ننظر إليها باحتقار، لأنها رغبات عظيمة حقاً، ولا تستطيع الفلسفة أو العقل أو كل حِكَمْ الدنيا أن تفعل إزاءها شيئاً..!".

"مثل ماذا..؟".

"مثلاً.. الآن أكاد أجنّ لعناقك ولا أتجرأ، نحن وحدنا ولكني لا أتجرأ.. هل سبق أن رأيتِ الحمام، العصافير، القطط، أو حتى بقية الحيوانات والطيور أن تتحدث عن الفلسفة ولا تتجرأ على تبادل القبلات.. فجأة ترى حمامتين وقد بدأتا بتبادل القبل".

"ولكن أحياناً لن ترض الأنثى فتراها تطير..".

"والذكر ورائها..".

"نعم..".

"إذن أنتِ تنوين الطريقة نفسها؟".

"إنه قانون الطبيعة.. إنها ليست ذنبي.. لا تحدّق فيّ هكذا..".

"لكنها مرض..".

"لستُ مبتدعتها.. الطبيعة هي المذنبة..".

"أتعرفين انكِ ماكرة جداً.. تسدين بوجهي كل الطرق..!".

"عاودنا الكرة ثانية.. إذا كنت متلهفاً جداً.. تعال قبلني وأخلصني من هذا العذاب..".

"لا.. لا تعتبريني مستهتراً.. عندما تقولين هذا.. وكأنني أسلبً منكِ شيئاً ليس بملكي.. وأنا أعتبرها

سرقة".
"أنـتَ تحيّرنـي.. اقـول لـكَ "لا" تحـزن، أقـول لـك "هاك" تقول: لست بسارق".
"حسناً.. سأسألك سؤالاً يا هيرو..".
"تفضل.. يا روح هيرو..".
"المسألة عندي ليست في أن أقبلك فقط..".
"إذن..؟".
"إن ناقشنا هذه القبلة من منظور فلسفي فانها تعني لي كثيرا من المعاني..".
"ربما لا تعني لي شيئاً..".
"بـل تعنـي ولكنـكِ لا تدركينـه.. أو تغضـين الطـرف عنه..".
"كيف..؟".
"أنتِ تعرفين بـأن كلينـا.. بـل وكل العشـاق وحيـدون، انهم وحيـدون دون القبـل والعنـاق، وهـذا مـا يفسّـر لجـوء النـاس الـى أحضـان بعضـهم الـبعض سـاعة شـعورهم بالوحدة".
"ألا يمكـن أن يكـون لجـوؤهم هذا لغـرض آخـر غيـر العشق..؟".
"بـل يمكـن.. ولكـن الـذين يحتضـنون بعضـهم الـبعض دونما عشق حقيقي هم وحيدون الى الأبد.. وهذا هو سرّ تعاسة الكثير من الأزواج والزوجات..".
"ولكنهم مقتنعون بحياتهم ويعيشونها..".
"لكنها حياة كاذبة..".
"وأنتَ..؟".
"أنـا أيضـاً أعـيش الآن حيـاة كاذبـة.. ولكنهـا ليسـت

ذنبي..".
"ذنب من إذن..؟".
"ذنبكِ أنتِ..".
"أنا.. لماذا..؟".
"لأن بُعدكِ عني هو سرّ وحدتي.. أو بمعنى آخر ابتعادك عني وأنت بجانبي..".
"لستُ أفهم..".
"بلى.. تفهمينني حق الفهم.. تريدين أن أثبت لك كيف إنني وحيد والذنب في ذلك يعود إليك..؟".
"حسناً.. ها أنذا أنصتُ إليكَ.. تكلّم.. لم صمتتَ؟.. تكلّم..".
"حبيبتي هيرو.. لا أحد منا بإمكانه أن يرى نفسه من غير وجود المرآة أمامه.. ولكنني ومنذ طفولتي كنتُ أحب أن أرى نفسي دونما مرآة.. وهذا مستحيل.. والمرايا كاذبة دائماً.. أنظري الى نفسكِ.. سترين يمينك يصبح يسارك في المرآة وبالعكس..".
"غريب ذلك.. لم أجرب هذا من قبل.. ولكنني كنت أرغب أن أرى نفسي دون استعمال المرآة..".
"عدا ذلك.. أنظري.. إن لدى كل واحد منا يدان، نستطيع أن نلمس بهما الأشياء.. كل ما في هذه الدنيا نستطيع أن نمسكها بأيدينا.. وأن نتحسسها.. هل هي حارة، باردة، صلبة، ناعمة، ملساء، خشنة.. ولكن ايدينا لا تستطيع أن تلمس نفسها..".
قالت مازحة "فلتمسك يدك اليسرى بيدك اليمنى.. وبالعكس..".
"مسكينة أنتِ لا جدوى في ذلك.. يدك اليمنى تبقى

وحيدة لأنها لا تستطيع أن تلمس نفسها.. واليسرى أيضاً كذلك..".

"لعبة جديدة.. وماذا بعد..؟".

"عيونكِ.. باستطاعة عيوني رؤية كل الأشياء، ولكن لا تستطيع أن ترى نفسها، إن عينيّ الآن تريان عينيك الجميلتين.. ولكنها لا تستطيعان رؤية نفسيهما..".

"هذا صحيح.. ولكن ماذا في ذلك..؟ ألستُ أنظر الى عينيكَ وأرى فيهما الشوق ولهفة الحب، وأنتَ تنظر الى عينيّ..".

"ولكني أرى فيهما المكر..".

"ولكنه مكر يفيض حباً..".

"حقاً.. إنها لكذلك.. إنها..".

"استمر في حديثكَ..".

"حسناً.. إذن وحسب ما تقولين.. عليّ أن لا أشعر بالوحدة ولا أحزن لعدم رؤيتي عينيّ، لأنكِ أنتِ تستطيعين رؤيتهما عوضاً عني.. وأنا أستطيع رؤية عينيك عوضاً عنك..".

"نعم.. لاسيما انك مؤمن بالحب وكما تقول اننا شخص واحد لا شخصين".

"فليكن كذلك، ولكن سؤالي هو: هل أحيا أنا من أجل نفسي أم من أجلك، هل جسدي ملكي.. عيوني، فمي، شفاهي، يدي، رجلي، أذني ولساني.. هل تعيش هذه الأعضاء من أجلي، أم أنا الذي أعيش من أجلها..؟ أنا بجسدي هذا.. بأعضائي كلها أحبك.. ولكنني مجرداً من هذا الجسد أو خارج هذا الجسد من أكون..؟ ما دمت أعيش لنفسي فلِمَ لا أعانق نفسي؟ لِمَ

تنظرين الى عيني عوضاً عن نفسي؛ وأنا أنظر الى عينيك عوضاً عن نفسك..؟ لم لا ارى عيني.. ولا ألمس يدي بيدي نفسها.. لِمَ تتذوق لساني الأشياء كلها ولا تستطيع أن تتذوق نفسها..؟ هل أعيش أنا من أجل نفسي.. لأنني لك.. أم أن الحياة قد فرضتها عليّ وبدافع من الخوف لأنني لا أصل الى نفسي.. فألجأ الى خداع نفسي وأعانق شخصاً آخر كي أثبت انني قد وصلت الى نفسي وإلاّ أخدع نفسي، أرجوكِ لا تجعليننني أشك في نفسي.. "أأنا كائن أم غير كائن..؟" إن كان كذلك؛ فهذا يعني انني أحب نفسي.. ولكنني لا أستطيع الوصول الى نفسي، لا يدي تستطيع الوصول الى يدي، لا لساني تستطيع أن تتذوق نفسها، لا شفاهي تستطيع تقبيل نفسها، لا عيناي.. لا.. لا.. أنت أيضاً تحبين نفسك مثلي.. حبيبتي هيرو.. إني لا أفهم.. هل أنا أحب ذاتك في ذاتي أم أحب ذاتي في ذاتك..؟ شيء غريب.. ألَمْ يسبق لكِ أن رغبتِ في تقبيل نفسكِ..؟ لقد سبق لي أنا.. ربما أنت كذلك.. ولكن وا أسفاه.. لا انا أستطيع أن أقبل نفسي ولا أنتِ.. أنتِ لا تفهمينني.. أنتِ تعذبينني.. ستقتلني همومك ذات يوم.. إنكِ جائرة حين لا تسمحين لي أن أعانقكِ.. أتصل بك كي أصل الى نفسي. يقول (ديكارت): "أنا أفكر إذن أنا موجود..!" وأنا أقول: "أنا أعانقك إذن أنا موجود..!". أنوي أن أقول.. اسمعيني يا هيرو.. أنت تحبينني وأنا أيضاً أحبك.. أنا أحبك مقدار حبك لي وأنت تحبينني مقدار حبي لك.. لا.. لا تقولي شيئاً، لا تقولي: أنا أحبك أكثر.. لأنني

آنذاك أرفض هذا وألح بأنني أحبك أكثر ويبدأ الشجار ثم الخصام، وستكون القضية من يحب منا الآخر أكثر.. هذا ما يعذبني.. هيا.. أنظري إليّ.. لا تحتاري.. لا تندهشي.. لست أخجل.. ها قد امتلأت عيناي بالدموع.. ولكنني أمامكِ فقط لا أخجل من بكائي.. هذا جور.. جور.. جور أن لا نستطيع تقبيل أنفسنا.. ان لا نستطيع أن نمتزج ونذوب في بعضنا.. إن هذا ليجعل مني مجنوناً.. يجعل مني كذلك لأنني لا أستطيع الوصول الى ذاتي. إنه لذنب كبير أن لا أستطيع معانقة نفسي ومواساتها.. ماذا بكِ..؟ تبكين بدروكِ..؟ كفّي عن البكاء.. لَمْ أقصد ذلك.. لا تذرفي دموعاً.. كنت أنوي أن أقول لكِ.. مادمتِ تحبينني مقدار حبي لنفسي ومادمتُ أحبكِ مقدار حبكِ لنفسك، ولأنني لا أستطيع تقبيل نفسي وأنتِ لا تستطيعين ذلك.. إذن اقتربي كي أقبلكِ عوضاً عن نفسكِ وأنتِ قبليني عوضاً عن نفسي.. إن هذا جود.. لن تصل يديّ الى نفسي لأن يديّ لا تصلان إليكِ، أنتِ مسكينة.. كاذبة.. تريدين الوصول الى نفسك؛ ولكنك لا تجرؤين، تحبين نفسك من أجلي.. كما أنا أحب نفسي من أجلكِ.. ماذا بكِ..؟ هل هذه أنتِ..؟ أما زلتِ تبكين..؟ رميت بنفسكِ في حضني..؟ لا تخجلي.. حسناً فعلتِ.. يا لهذه الدموع المالحة على شفتيكِ الدافئتين.. لا تبكين.. بالله عليكِ.. اعتصريني عوضاً عن نفسي.. وأنا أعتصرك عوضاً عن نفسك.. منذ وقت طويل وأنتِ تريدين أن تعانقي نفسكِ.. أن تعانقيني.. وأنا أيضاً أكاد أجن لذلك.. يا له من زمن

طويل.. بل يا له من عمر كان مليئاً بالوحدة.. أية وحشة عشتها.. كفي عن البكاء كي أكف أنا أيضاً.. أرجوك لا تبكين.. لأن مذاق دموعك المالحة يمنعني من أن أعرف وأحس طعم شفاهك.. شفاهي.. شفاهكِ.. أين شفاهي.. شفاهكِ.. كفي عن البكاء.. لم أنو ذلك.. ما هكذا يصير يا هيرو.. ملأتْ دموعك فمي.. لم أنو ذلك.. لم.. أنو.. ذ.. لك.. لم.. م.. م.. م..

---

* عن العدد (1179) من جريدة هاوكاري – 1990/5/21

-مجموعة "زقاق الفزاعات"

تلك الليلة التي أحببت فيها الكلاب

ترجمة: آزاد مولود

حتى هذه الليلة كنتُ عدواً للكلاب وسلالتها، بل كنت عدواً حتى للذئاب والثعالب وكلاب الصيد وما ينتمي الى فصيلة الكلاب. إني لأكره كل من يربيها أو يحبها أو يذكرها، والآن حيث تجاوز عمري الثلاثين لم أسافر الى تلك القرى القريبة الجميلة والرائعة للنزهة وقضاء سويعات سعيدة إلاّ ما ندر.. وكل ذلك بسبب كثرة الكلاب فيها.. بينما يتحرق الأجانب والغرباء شوقاً لزيارتها.. قرى يغمرها الهدوء والصفاء والأجواء الشاعرية.

آه يا إلهي.. لكم كان قلبي مليئاً بالحقد على الكلاب حتى هذه الليلة، ان هذا العداء يعود الى زمن غابر.. زمن طفولتي.. فكلما كنت أسمع عواء كلب أتأرق في تلك الليلة ويجتاحني الحزن والضجر.. لست أدري لِمَ أتذكر طفولتي بينما لا أحبها ولا أوّد استذكار لحظاتها،

لكني أذكر جيداً كيف كانت والدتي تبدد الرعب الناشئ في عيوني عند سماعي لعواء كلب، إذ كانت تخاطبني:

"نم يا ولدي العزيز.. لا تخف، لا شيء يدعو الى الخوف.. إن هو إلاّ عزرائيل يهبط من السماء ليقبض الأرواح، إسحبْ الغطاء وخبئ نفسك. إن كلباً قد أبصر عزرائيل، لذا فإن عواءه يشفق السماء.. ان الحيوانات تراه فقط لأنها لا تنطق بالسر.. خبئ نفسك يا ولدي..".

ان يهبط على سطح دارنا هذا ما كان يرهبني.. لكن لا.. فهناك سطوح دور أفخم وأوسع، وعزرائيل عملاق هائل.. سطح دارنا لا يسع عزرائيلاً ضخماً وهائلاً، كنتُ أغفو وعزرائيل يقاسمني أحلامي.

بما اني ترعرعت في حي يعجّ بالكلاب والجوع والشتائم، كان من المفروض أن أكون غاوٍ للكلاب، ولكني بعيداً عن أولاد الحي وبعكسهم لم أألفها، الكل يقولون بان الكلاب وفية، ولكني لا أقرأ أية قصة تحكي عن وفاء الكلاب، أمزق كل صورة تحويها، لا أزور داراً يحرسها كلب ما، ولا أرغب مشاهدة أي فلم يُسمع فيه نباح كلب، لا أتأخر في العودة الى غرفتي ليلاً، مع اني أحب الليالي الهادئة وتلألؤ النجوم والسير وحيداً في الشوارع المظلمة والخالية من السابلة، في الليل ليس هناك من يلامس كتفه كتفي، وليس ثمة وجوه محتقنة بالحقد والكراهية، وجوه مصفرة، ولا نساء سائبات.. متوحشات.. عديمات السحر.. هناك كلاب كثيرة فقط.. كلاب تنبح.. لذا لا أعود متأخراً..

لحد هذه الليلة كنت أكرهها بقدر ما أكره الموت، لو كنت أؤمن بالقتل.. لقتلتها.. كل العقد النفسية.. الخوف

والحـزن والحقـد والخجـل.. وحتـى الجنـون.. وحتـى الجنون.. جميعها تعود لتلك المرحلة الحساسة.. الزمن الشفاف للطفولـة. نحـن جميعـاً، الخبيـث منـا والطيـب، الملاك منا والشيطان نعاني من سطوة قوى سرية لهذا الدهر الموغل في القدم. قبل أيام أدركت هذه الحقيقة في كتاب حول "علم نفس الطفل"، لن أحب الكلاب ولم يستطع أحد على اقناعي بحبها، أنا لا أفهم في حب ووفاء الكلاب، انها أنانية وانتهازية، تحني رؤوسها وتجامل وتلاصق كل من يقذف لها بكسرة خبز.. وعلى نقيض ذلك انها على استعداد لمعاداة الآلاف من الآخرين.. آلاف من الناس الطيبين والخبيثين.. أنا لا أستسيغ مثل هذه الفلسفة، والكلاب كونها لا تعرف شيئاً عن – الصراع الطبقي – تحزنني وتجعلني أكثر حقداً عليها.. فبعضها تصاحب الرعاة الفقراء وبعض منها تتنعم بحياة القصور الهانئة، ومنها سيئة الحظ تنتظرها المصائر السود، يصيبها الوهن وتموت على المزابل.. يا للعجب والغرابة.

بذلت جهوداً كثيرة، قرأت كتباً كثيرة عن الكلاب وأمراضها، أخفت الناس بخطورة هذه الأمراض، كل ذلك كي يأخذ الناس كلماتي مأخذ الجد ويكرهون الكلاب أشد الكراهية.. ولكن هيهات.. لأن كل من أحب شيئاً حمل في سبيله ما وجد من الخوف والألم والقذارة كمن يحمل غلة من القمح في زمن القحط.. انني الوحيد الذي لا يحب الكلاب.

منذ فترة وبعض من زملائي يضجرونني.. حيث قرأوا خبراً في جريدة وراحوا يطنون من حولي كالذباب

ويرددونه: إنها ثانية قصة الكلب ووفاءه:

"أُبعِدَ كلب عن صاحبه مسافة مائة وعشرين كيلومتراً.. ولكن هذا الشريد قطع كل هذه المسافة عدواً ودون توقف عائداً حتى بلغ مالكه.. لكن التعب شلّه، فلفظ آخر أنفاسه".

وفي كل مرة كنت أقول لهم:

"أشك في صحة مثل هذه الأخبار..".

ولكي يكون ردي أقوى كنت أروي لهم تلك القصة التي رويتها لمئات من الناس:

"في صغري.. كنت أعيش في حي مليء بالكلاب والجراء السائبة، كل واحد من أصدقائي يملك منها اثنين أو ثلاثاً.. كانت الكلاب شديدة البأس، قذرة وضارية، لكنني وحدي الذي صادق كلباً مسكيناً ضعيفاً واهناً ومن أشد الكلاب تعاسة، نبذه الجميع فبقي لي.. لم يحبه أحد.. كان يرفسه ويركله كل من يمر به.. جميع أهالي الحي.. رفاقي الآخرون من الأطفال.. الكلاب السائبة.. بحيث كان يئن على الدوام وبقساوة.. حتى وهنت قواه.. وبدأ الصديد يتقطر من جسده وتعرى من الشعر الذي يكسيه تماماً.. ثم كسروا له ساقاً وفقأوا إحدى عينيه.. كنت أصغرهم سناً وأنحلهم.. حزيناً لا حول لي ولا قوة مثل كلبي، لربما ضعفنا هذا كان القاسم المشترك بيننا، ولقد سعدنا بالتقائنا، كنت أتوسل إليهم كثيراً، ارجوهم.. ولكن ما كانوا يصغون قط، وطالما كانوا يضربونني حقداً على حبي لهذا الكلب الشريد، وكنت أنا الآخر أهاجم كلابهم كلما سنحت الفرصة لي.. الى أن وصل بهم الحال الى مقاطعتي.. فأصبحت كطائر ضل عن سربه. أُبعدت عن

ألعابهم ومرحهم.. وحيداً في عزلتي.. انتقاماً مني ومن حبي وتعلقي عذبّوا كلبي المسكين والغريب.. أصبحتْ كومة من العظام تسير، بكيتُ له كثيراً.. كنت أعانقه، أحتضنه، أحنو عليه وأخبئه.. يفتشون عنه في كل زاوية وركن حتى يجدوه، ولم يشف كل هذا غليلهم.. فذات يوم أجمعوا على رميه في حفرة قديمة ومركونة بالقذارة.. لم أجرؤ أن أقول لهم:

"بالله عليكم.. لا تفعلوا ذلك".

خبأتُ نفسي.. انتظرت الى ان اختفوا مع كلابهم الملعونة.. فأسرعت في النزول الى الحفرة.. كان يبعث بأنينه وبكاءه ونباحه الى الفضاء الخارجي الواسع عبر رقعة السماء الضيقة التي تكونها فتحة الحفرة، كان يبعثه كي أغيثه.. حاذرت الاّ أسقط عليه ولكن لم يخطر ببالي وجود خلايا للزنابير في الحفرة، وصلت إليه، التقينا بلهفة عاشقين مبعدين، انثنيت.. انحنيت عليه أكثر، اردت أن آخذه في حضني كي أرفعه وأخلصه.. بات شيطاناً ضريراً.. واجهني.. في لحظة ما انزلق بين ساقي.. هاتين الساقين العاريتين الهزيلتين تحت جلباب طويل ورث، عض بأنيابه ربلة ساقي، ومن شدة الألم ندّت مني صرخة بأعلى صوتي، كنت أدور داخل الحفرة مرتطماً بالجدران.. أصبت بالدوار، ثم هاجت الزنابير.. سحبت نفسي من عضة كلبي الملعون منتفضاً.. ترى لِمَ هاج في وجهي هكذا..؟ لا أعرف.. التصقت زنابير كثيرة برقبتي ويديّ ووجهي، بل وصلت أعداد منها داخل..... حاولت الصعود والفرار مرتبكاً.. ثبّتُّ قدمي في الثقوب المعمولة على جانبي الحفرة، كانت ملساء ولزجة.. فتهاويت فوق

الكلب مرتين.. لست أدري، ولكن تولّدت لدي قناعة ما زلت محتفظاً بها لحد هذه الساعة، بأن بقية اضلاعه السليمة قد انقفصت حينذاك تحت ثقلي ونفق على أثره.. ولما أفلحت في الخروج كان محجرا عينيّ ضائعين في وجهي المتورم.. كنت أنتحب وأخور.. ضيعت نفسي.. هي المتاهة بعينها.. وصعب على كشف الطريق.. وسرعان ما احتشد أهل الحي.. وساد اللغط بين الرجال والنساء.. أخذوا بيديّ وسمعتهم يقولون:

"لتهلك.. انه ابن سمه".

"سيموت.. أي والله.."

"قصّر الله عمرك يا ولد".

"تالله فان والده سيعلقه..".

عمّ الضجيج وقامت القيامة، لم أفهم شيئاً، كانوا يجرونني نحو البيت.. كنت أصطدم بالناس والجدران كحيوان أعمى.. ومن هذا البعد شممت بان والدي واقف لي بالمرصاد.. هذا الأب الذي لم يكن يضطهدني طوال حياتي، كنت بالكاد ألمحه، لكنه ما أن رآني حتى أرعد وأزبد، والدم صاعد الى صدغيه، وأهل الحي يتلهفون لمشاهدة هذه المسرحية الساخرة.. فراحوا يسردون له حكايتي مع الكلب والحفرة والزنابير.. وهو العنيد الغاضب الهادر اللاعن المتوعد.. وفي شرايين رأسه دماء تفور.. دماء المتوحشين، ومنخراه كمنخري حصان منهك، هاجمني هجوماً مخيفاً، كنت أعرف طعم صفعاته لذا فقدت كل أمل في الخلاص، امتلأت أحذيتي البلاستيكية بالبول وأنا ما زلت بعيداً عن مخالبه، ركلني ثلاث ركلات قوية شلت وجودي.. كنت منتفخاً بحيث

كان يصدر مني الصوت كطبل مشروخ.. أنقذوني من براثنه بصعوبة وأنا خائر القوى، كنت أصرخ، نسيت كل شيء.. إلاّ الكلب الملعون، أمي الباكية دوماً بكتني كثيراً.. الأم التي طوال حياتها تنال صفعات أبي وتبكيني، كانت قطرات دموعها تسقط على قفار رقبتي وتسيل.. كانت دافئة في البدء ثم تبرد، تميل نحوي.. تنحني فوقي.. كانت كالعذراء تنحني على المسيح الجريح.. ابتلعتني أحضانها الحنونة، تلطف أحد الجيران واصطحبني الى بيته. اصبحت اضحوكة للناس وهم يترددون لمشاهدتي، عجائز انهمكن في إعداد العقاقير لي.. فيكف لي أن أحب الكلاب إنْ كان هذا جزائي مع هذه السلالة اللعينة؟.

وفي كل مرة أعيد هذه القصة أريد أن أرى وأقرأ ما في عيونهم.. انهم يقولون لي:

"هذه مصادفة.. قد لا تتكرر مع كلاب أخرى..".

حتى هذه الليلة كنت أوّد لو تنقرض، تتهافت، أوّد لو يعود العصر الذهبي لمبيدي الكلاب.. وحتى الآن حينما أنزع ملابسي وأرى موضع عضته.. أصب عليه لعناتي.. لحد هذه الليلة ورعبي لم يتبدد.. ولكني أعرف ما الذي جعلني أستعيد تلك الذكريات المرّة.

انها ليلتي الخامسة وأنا أعيش مع كلب.. تخيّلوا.. فسروها.. أنا.. ذلك العدو اللدود لجنس الكلاب.. خمسة أيام بلياليها أعيش مع كلب وفي الدار نفسها، الحقد جعلني أؤمن كالهنود بأن انساناً شريراً وقذراً ومنبوذاً قد يصبح كلباً بعد موته.. أجل انها روح شريرة.

لست وحيداً.. أعيش مع صديق لي.. غريبان في هذه

المدينـة.. وصـديقي هـذا مـن فـرط حبـه للكـلاب يـرقص حينما يسمع نباحها، ولا يتقزز حتى لو يلعقها.. وهو الذي جاء بكلبه هذا.. يغسله.. يقبّله أمامي.. يا للهول.. يتشمم رائحته ويمسد جسده.. ولولاي لجمع كل كلاب مدينتنا في هذه الدار.. يا لتعاستي..!

غرفة وحيدة تشرف على حديقة واسعة وكبيرة. تحيط بها أشجار اليوكالبتوس والصفصاف التي تفتح أحضانها للسماء.. الخريف في أواخره.. هامات وأحضان الأشجار عارية.. والحديقة قد اصفرّتْ تماماً.. في الخريف تصفر الدنيا تتعرى والطبيعة دونما خجل، أنا أفضّل الخريف على بقية الفصول، اصفر كعيني حبيبتي، كم أحب أن أتشمم رائحة الأوراق الصفراء، فخشخشة تهشم ورقة ساقطة تحت قدمي انما يفتح جرحاً في قلبي.. أحياناً أرى هذه الأوراق تطير مع العواصف كعصافير محلقة، وحينما تصطدم بوجهي ورقة أحس بقشعريرة كما لو كانت يدها تحتك بوجهي.. ولكن مجيء هذا الكلب أضجرني وأنساني كل شيء.. فرحي بجمال الخريف وسحره.. وعشقي له قد تغيّر.. حاولت معه.. لكنه أصرّ على بقائه.. فكيف يفرط به وقد أهداه إياه صديق عزيز على نفسه.. وصديقي هذا يخال نفسه مالكاً لضرغام وهو يملك كلباً.

صاحب هذه الجنة الصغيرة يحب الأشجار بجنون.. يوم استأجرنا الدار قال:

"على شرط ان تراعوا حديقتي وأشجاري الحبيبة.. إياكم أن تنسوا سقيها".

هذا الرجل يحيا ويموت من أجل شجرة، وأنا من أجل

عيون حبيبتي العسلية، وصديقي من أجل كلبه. وأنتم لكل واحد منكم طريقته..

هذه الغرفة الصغيرة والمزينة.. الحديقة.. الأشجار والأعشاب.. الورود البرية.. زقزقة العصافير على الأشجار.. الشتاء والربيع والخريف والصيف.. كل هذه المناظر والأزمنة تمرّ علينا وعلى الأشجار.. انه عالم الخيال والعشق والشعر، الليالي الممطرة، العواصف وتساقط الأوراق في الخريف.. كم هو عالم مليء بالأحاسيس والغربة والحزن والفرح والجنون، مليء بالأحلام والرغبات والبكاء والحنين.. ولكن ماذا أفعل وقد نشر هذا الكلب الغبار والضباب على مرآتي الجميلة، لقد بت لا أطيق شيئاً من خوفي وحزني.. كلب أحمر كثير الوبر.. أطرافه الأمامية مقوسة.. هائج.. عند التقائنا لأول مرة احمررت.. لم يكف عن النباح حتى افهمه صديقي كل شيء.. حينئذ استكان، تأملني وشمم رائحتي، هذا ما جعله أليفاً لبرهة.. في حين حملت في قلبي حقداً أسوداً.. هيهات أن أكون ودوداً معه.. لم أكن آبه لجوعه وعطشه.. كان يذكرني بالموت والطفولة والحفرة والزنابير والضرب الذي نلته يومذاك.. كان يضجرني بنباحه ليلاً ونهاراً ويبعث في قلبي الألم.. عندما كان يزورني شخص ما كان عليّ أن أحجبه عنه حتى وصوله الى غرفتي.. ما أسوأ حالي..

حتى هذه الليلة، حينما كان ينبح أنفاسي تضيق.. وأكاد أختنق، حاول أن يحبّب نفسه، كان يرقص.. يقفز ويلعب ويركض في الحديقة.. وهذا ما أضجرني أكثر، أردت أن أقسو عليه وأنتقم منه ومن تلك السلالة اللعينة.. ماذا

افعل..؟ لقد أحسست به.. اجتاحته الرغبة الجنسية وقد جنّ جنونه.. في هذه الآونة اقتربت كلبة أكثر هوساً منه.. تبعتها كلاب أخرى.. لكنني لم أكن غبياً.. كيف أدع الكلاب أن تحقق رغباتها؟! زرعت في قلب الكلب الهم والغم.. وهذا ما أسعدني.. كثيراً ما كنت أقرأ نداء الجوع والعطش في عينيه.. ولكني لم أكن أبالي أو أهتم.

وقع صديقي في حب فتاة فأهمل الكلب.. لم يكن يهمله.. لكن الحب الجديد قد أدار رأسه وهذا ما أتاح لي فرصة نادرة كي ألعب لعبتي الحقيرة المقدسة مع غريمي.. وعند عودته المتأخرة كان يأويه في غرفتنا.. ليالي الخريف باردة، كنت أجرجره للعراء متمنياً أن يستبرد أو يموت.. ولكن هيهات..

يومان بطولهما وصديقي لم يعد.. الى اين..؟ لماذا..؟ لا أدري..!

بقينا معاً.. غريمان تحت سقف واحد.. غريب جداً.. أنا.. أنا الذي أعادي كل كلاب العالم أمضي يومين كاملين مع كلب لعين.. كدت أجنّ من الغضب.. ما هذا الكرب العظيم.. كان عليّ أن أخدمه بنفسي.. ولكني لم أفعل.. ما أن أفتح الباب حتى ينزلق بين أقدامي، ما ان أغادر الغرفة حتى يتبعني.. اقفل باب الغرفة بوجهه.. احس به.. في كل حركة من حركاته انسحاق ورجاء وتوسل.. كان الجوع والعطش باديين في نباحه.. وماذا عساي أن أفعل..؟ كنت أحسبني مجنوناً إن أطعمته أو سقيته.. وعند عودتي أغلق الباب بالمزلاج، أدعه في الخارج وأنا في الداخل، أسمع الأغاني وارقص، وفي الجانب الثاني وعبر زجاج النافذة كان ينظر لي بعينين

حزينتين وخافتتين كمن يسألني:
"كيف يطاوعك قلبك أن ترقص وأنا أعاني الجوع والعطش هنا..؟".
حينها كنت أفكر كيف لا يعم الخراب هذا العالم حينما يجوع الانسان..؟! ولكن كل هذا لم يليّن قلبي.. أأخطأ خطأ كهذا وأشبع كلباً وأحبه..؟ أنا كنت حزيناً لجوع الانسان.. ولتحزن الكلاب على بعضها..
هي الليلة الخامسة.. والكلب منهك.. لا أظن بانه قد ذاق شيئاً.. فباحة الدار لا تحوي سوى الأعشاب والحشائش والحجارة وشفرات الحلاقة وزجاجات البيرة والأحذية المتهرئة والعصافير فوق الأشجار.. خلافاً لعادتي عدت متأخراً، وكما قلت فأنا أموت غيظاً حين أصادف كلاباً سائبة وهي تنبح في هدأة الليل.. ولكن مشاغلة هذا الكلب قد أربكت نسق عاداتي.. حين فتحت الباب وسمع الصرير اجمع الكلب شتات نفسه من بعيد.. عبثاً يحاول ان يركض.. كان يحاول أن يقفز ولكنه لم يفلح فسقط أرضاً، زحف حتى لامس خطمه حذائي.. راح يقبّلها بكل ذل وهوان، لم ينفعه ذلك فلعقني.. بدءاً من الحذاء حتى ربلة ساقي، رفع راسه ثلاث مرات ودار حولي.. لم ابال.. كنت جامداً فاقداً لكل أحاسيسي.. وهو يهز ذيله، ولم يعد يستطيع النباح، نباحه يشبه سعال العجائز.. يئن ويتحرق، عيونه جفت وإلاّ لأمطرتْ دموعاً غزيرة.. لم أهتم به ثانية وتضاعفت لامبالاتي وشعرت بلذة الانتصار..
هذا هو الانتقام..!
خفت أن يعضني كجده الأكبر.. ولكن لا.. انه قد فقد

القدرة على فتح فمه.. تمدد على ظهره وتقلب.. ظهرت بطنه.. تقززت منه، انقلب ثم وقف على طرفيه الخلفيين، الرخوين.. وقف بالكاد.. كان على وشك أن يسقط على حذائي.. انسحبت.. فلم يتمالك وسقط على الأرض، تمرغ أنفه في التراب، وبان خيط أحمر رفيع على الأرض.. خيط من الدم.. أوصدت الباب الخارجي، خطوت نحو الغرفة.. كان يزحف ورائي ويقبل كعب قدمي، لعق حذائي مرة تلو المرة، لم ألتفت الى الوراء كرجل خسر مرأته، فتحت باب غرفتي وهو يئن من الجوع والألم، لم يدعني، هممت بأن أغلق الباب على نفسي، ولكني فجأة وجدته في وسط الغرفة، أردت أن أركله.. لم أقدر.. كان ملتصقاً بالأرض ككتلة من الصمغ، كان يرجوني ويتوسلني، أخافني لبرهة.. انسان وحيد وليل وكلب يتضور جوعاً في غرفة معزولة كهذه.. يحدث لي ما لم يحدث لأي شيطان أو جنية، ارتج قلبي وكان يقفز خارج صدري، أنهكني، عرقت.. ومسحة عرق الرعب هذه جعلتني ساخناً، انحنيت، أخذت وضع البروك أمسكت برقبته، رفعت رأسه.. آه.. يا لغرابة ما رأيت..! في هذه اللحظة لو جمع كل البشر قواهم لما استطاعوا أن يخفوا في عينيه هذا الألم والعذاب.. عينان حزينتان ذكيتان حيّتان.. عينان انسانيتان.. استغاثات وصرخات، شاهدت في عينيه صرخة رهيبة.. صرخة مليئة بالبؤس والشقاء والأنين، كل ذلك سحرني وأذهلني، كانت عيونه تخاطبني، وللحظة رأيته ينكمش ويتكور وبدت لي أن كل أوصاله ترتجف، واحدودب أكثر.. وفي أعماق عينيه المتيبستين رأيت سمكتين تموتان من الجوع والعطش..

مـا هـذا الـذي سـحرني.. الجـوع.. العطـش.. الرجـاء.. انســانيتي.. أم انهــا العلاقــة الســرية التــي تــربط كــل الكائنـات.. بـدءاً بـالتراب والميـاه والنجـوم وانتهـاءاً بـآخر ذرة في هذا العالم المليء بالسحر والغرابـة. أنـا أفهم لغة العيـون، كانـت عينيـه تصـرخ.. صـراخاً أقـوى مـن أن أتجاهل سماعها.. أنيناً متحرقاً سحقني، صيحة.. صرخة تثير الهيجـان فـي كل بحـر سـاكن، أحسست فـي داخلـي برائحـة شـواط لآثـار لهيـب.. إن إذلالـه هذا قد أطفأ نـار غضبي وحقدي، كان يرنو إليّ دون أن يغمض له جفن.. لحد هذه اللحظة كنت ذلك العدو اللدود لـه.. ولكن آه.. كم هو الانسان غريب ومحمّل بالأسرار.. حينما تأملت فـي عينيه أكثر، اندهشت وتسمّرت في مكـاني.. ثم ارتخيت وتحللت أوصالي.. ماذا أرى؟! عينان خريفيتان.. مليئتـان بـــالحزن والمـــرض، جائعتـــان، ضـــامئتان، جافتـــان، متعبتـان.. والأغرب مـا فـي الانسـان.. خيالـه..! أحسست بانهما عينـا حبيبتـي الصـفراوان والجمليتـان فـي نظـري.. وليس عيني كلب لعين. تخيلت عينيـ(ها) أمـام نـاظري.. تلك العينين اللتين أعيش وأموت وأجنّ وأتشـاجر وآكل وأشـرب مـن أجلهمـا.. وأحلـم بهمـا.. تلـك العينـين اللتـين جعلتـا الخريـف مـن أكثـر الفصـول جمـالاً.. ومحببـاً الـى قلبي.. جعلتاني أتمنى أن يكون تـابوتي من خشـب شـجرة قد يبّسـها الخريـف.. والصـخور التـي توضـع فـي قبـري تكون من التـي توجد منهـا فـي الوديـان التـي تملأهـا ميـاه المطر في الخريف، ووصـيتي أن يزرعوا تلك الأشـجار التـي تـنفض أوراقهـا الذهبيـة وتغطـي قبـري.. ايهـا الكلـب اللعـين مـن أيـن لـك هاتـان العينـان الجميلتـان وخرفيتـا

اللـون..؟ مـن أيـن اسـتعرتهما؟ أحسسـت بانهمـا عينيهـا.. عينيها تبكيان وترجواننـي جائعتين، لم أعد أميز.. الحـزن نفسه واللون نفسه.. البؤس نفسه والصرخة نفسها، تركت يـداي رقبتـه، نهضـت واقفـاً، انغـرزت كسـهم اسـتقر فـي موضعه.. ماذا عسـاي أن أفعل؟ الآن ساشبعه.. فلابد أن محلات ودكـاكين الجزارة والمطـاعم قد تركت مـا يكفـي لكلب جائع، انتابني خجل وندمت علـى حقدي وغضـبي، لم أتمالك نفسـي، كلاهمـا قد أصبحا واحداً وتألمت لهمـا مـن أعمـاق قلبـي، كنـت أفكر فـي جـوع عينـي كليهمـا، يـا لكبـر وعظمـة هـذا الوجـود.. انـه ملـيء بالصـراعات.. آلاف.. بـل ملايـين الصـراعات الصـغيرة والكبيـرة.. فـي حـين كنـت أنـا أفكـر فـي مشـكلة الحـب لـيس إلاّ.. أعظـم وأقدس صراع.. فكم مرة رأيت أسرار الجوع والتضـرع في عينيها الخريفيتين.. والكلب مـا يـزال يحتك بـي، يهز ذيله ويشم رائحتي ويتأملني، كـان يتنفس بصـعوبة.. وأنـا أتأمله بمنتهى الحب والعشق.. كنت أغتسل فـي الموجـات الصفراء لعيونه الجائعة، ان جنـوني ورغبتـي فـي إحدى أحلامهـا اللذيـذة كانـت تفوق جـوع هذا الكلـب درجـات.. الآن سأشبعه.. ستحيا السمكتان الموشكتان علـى المـوت في حفرتي عينيه وتتحركان ثانية، راحة تنتابني وتنسيني تعبـي.. سـعيداً.. مبتهجـاً توجهـت الـى غرفتـي بهـدوء.. أخفضـت رأسـي وسُـحبت فـي خيـال لذيـذ.. آه.. مـن هـذا السحر.. آه من هذه العلاقة..!

لم أغلق باب غرفتـي كمـا كنـت أفعل كل ليلـة، تركتـه مفتوحـاً علـى مصـراعيه.. الآن.. الآن سـأذهب وأولـج نفسـي فـي الأزقـة والشـوارع الخاليـة والمظلمـة، أعـود

واشبعه، ثم أغيّر ملابسي، اضع في جهاز التسجيل شريطاً.. وبكل هدوء وعذوبة أستمع الى موسيقى "مونامور" وأتمدد على فراشي، ويأتي الكلب ويتمدد بجانبي، يملأه الحنان، حنان كسره شوكة الجوع، يضع رأسه بين طرفيه الأماميين الممددين ويرنو إليّ هادئاً ساكناً في حزن بعيد عن الألم، حينذاك يشعر بالرغبة الى النوم كمسافر متعب.. عيناه الصفراوان المتلألئتان تومضان، تنطفئان، تومضان.. تنطفئان.. وأنا أتأملهما ملء قلبي وهو يجهل بخريف أي عيون يذكرني..! كنت أحب أن يفهمني كي اسرد له.. لو منحت الكلاب والقطط وبقية الحيوانات هذا الإدراك لما شعر الإنسان بالعزلة والشقاء، كنت أرغب أن يعرف بأنني منذ أن أحببتها أحتفل بقدوم كل خريف.. هيهات أن يدرك بأنه لولا عينيها.. عيني حبيبتي.. لكان عليه أن يلفظ آخر أنفاسه ويموت.. أجل.. لم يكن يعرف.. منذ الليلة لا أحبه وحده.. وانما سأحب كل كلاب هذا العالم.. لأنه ذكرني بالعشق المقدس لعينيها.. عينيها (هي).. آه من عينيها، عينيها الخريفيتين.. المليئتين بالحزن والحب والنداء والنقاء..

* القصة مستلة من "الوحشة"، المجموعة القصصية الأولى للقاص الصادرة عام (1983).

طائر الزرزور

ترجمة: فائز يونس

شارفت الشمس على المغيب.. كنتَ تخاف أن يلف ظلام الليل طيور الزرازير.. ولكن كلاّ.. ما زلتَ مؤملاً.. لم يهن عزمك.. لقد احتالت عليك اليوم.. حطت تارة وحلقت تارة.. لكن من يقول إنك لن تربح الرهان؟ أحكمتْ يداك المتشققتان القبض أكثر على الحبل، وعيناك الذابلتان هائمتان وراء سرب الزرازير منتظرتان.. لقد رميت إليها بنصف صفيحة من القمح بينما لم يبقَ في إهراءاتك أنت رائحة للطحين منذ فترة طويلة.. صيد الزرازير ليس بالعمل اليسير.. لكنك عندما ترغب في شيء فيجب أن تغض الطرف عن شيء آخر..

ضغطتَ بأصابعك النحيلة القاسية على الحبل أكثر.. تقلصت قسمات وجهك.. بدا وكأنك – بدل الشبكة – ربطت دنياك نفسها بالطرف الآخر من الحبل.. ثبَّتَّ قبضتك في الأرض الغريبة المهيبة رغم أنها كانت أليفةً

لك مثل عيون (آمنة).. زرازير كانت قد جاءت مرتحلةً من سماء أخرى.. كم تعودت الشتاء.. في مثل هذه الأيام لا يفارق الجليد والصقيع وجه الأرض، ولا تُبارح الغيوم السوداء المتلبدة صفحة السماء.. الريح الباردة القاسية تُغمض لك عينيك.. لكن قلبك مُتنبه.. طافح بالبسمة وعامر بالأمل..!

في الصباحات الباكرة.. قبل ان تبزغ الشمس وتُذيب الصقيع، تنهض أنت من النوم.. وبعد الصلاة تأكل لقمتين من الخبز مع الحمص المسلوق وتتجرع قدحاً من الشاي على عجل.. تُكمم وجهك بعصابة رأسك اتقاءً للبرد.. تحمل شبكتك وأزميلك ومسحاتك وكيساً من القمح.. تودع آمنة.. تفتح باب البيت لك ولحمارك.. وبقفزة نشطة تنتصب فوقه وتُيمم وجهك شطر السهل المتجلد تاركاً المدينة.. كنتَ تُمارس مع هذا الصقيع والتراب المتجمد لعبة شاقة بأصابعك العشر.. الطبيعة حية بك.. إنها بدونك جسد بلا دماء.. كنتَ مختبئاً داخل معطف مائل الى الصفرة لا يقيك البرد كلياً.. أما عيناك فلا تُفارقان منظر سرب الزرازير.. كنت ترهف السمع باذنيك الثقيلتين الى رفرفة أجنحتها.. عندما تحط عن قرب تبعث فيك المتعة.. وفجأة تأخذ شراييناك بالتقلص والانبساط وجلاً.. ينتاب رأسك ألم يستنزف قواك.. تشعر كأنك كرة من الثلج آخذة بالذوبان.. تحس ببرودة تلسع أحشاءك.. برودة أن تعود الى المدينة بشكبة فارغة! ستغير المكان.. اليوم قرب البساتين.. وغداً ستنصب شبكتك في حقول أخرى..

كنت قد اعتدت صيد الزرازير قبل ذلك اليوم الذي

تزوج فيه ابنك (**عهبه**) من تلك الأرملة.. أنت التي ابتليته بتلك الأرملة التي تكبره سناً ثم عدت وندمت فيما بعد.. كان الناس يحسبون انها ضرة آمنة! كنت تريد أن يصبح (**عهبه**) واحداً من أولئك الملالي ويدير أحد الجوامع.. لكنه لم يصبح كذلك.. لم ينضج، وبقي غراً.. ورغم ذلك بقيت على حبك له.. ومازلت تحبه.. انه فلذة الكبد وثمرة الحب الذي جمعك وآمنة.. إلاّ أنه هجرك من أجل أرملة وسبب لك كرباً لا ينفرج.. أحكمت يديك على الحبل أكثر.. أخفيت نفسك أكثر.. كانت الزرازير تحلق في الجهات الأربع.. تدور أسراباً أسراباً متداخلة ببعضها.. تعجبت كيف أنها لا تصطدم ببعضها.. إنزلقتْ يدك في جيبك ووقعتْ بداخله على رسالة (**عهبه**)*:

"أبي العزيز: أقبل يديك.. أنا صغيرك فاصفح عني.. انني نادم ولا أعرف لماذا تركتك.. امرأتي النزقة هذه لا تهدأ.. أقبّل يدي أمي.. وسيبقى حذاؤها ما حييتُ على....."

آه.. انتبه.. أي سربٍ هذا؟ كلا.. لقد طار.. انخفض الى الأرض ثم حلّق مبتعداً..

بقيت لفترة طويلة تتنكر له.. فليذهب هذا اللقيط.. صار مضغة في فمك.. تتحدث عنه في كل جلسة لدى الشيوخ والمسنين.. تلعنه دائماً.. تفكر فيه ليلاً كذلك حتى يغلبك النوم.. أنت سبب هذا الكرب.. أنتَ؟ كلا.. الفاقة والعوز دفعاك الى سلوك العرف الدارج في التزويج

---

* (**عهبه**) تصغير لاسم عبدالله.

المتبـادل بـين عـائلتين لابنيهمـا وابنتيهمـا معـاَ[1].. ابنتـك (**خەجـە**)* أيضـاً لـم تطـل علـى خـربتكم تلـك منـذ عـدة شـهور.. انهـا متزوجـة حديثاً.. وهـي راضـية عن حياتهـا الآن حيث تنعم بالبهجة واللذة.. لا تعتب.. أنت أيضاً كنت شـاباً فـي وقـت مـا.. انكـم متمـاثلون فـي المعيشـة.. أنـت تمتهن صيد الزرازير، وحموك وحماتك يبيعان الحلوى.. لقد رحل **عەبە**.. **وخەجە** أيضاً.. آمنـة وحدها هـي مـلاذك فـي وحـدتك.. هـي سـلواك وعـزاؤك.. آمنـة التـي مـازال وجهها يحتفظ ببقية من جمالها الغابر.. ذلك الجمـال الـذي كـان يثيـر الفتن وقتمـا كانـت شـابة، ويُشـيع الاضـطراب والولولـة فـي بيـوت وعوائـل كثيـرة.. حتـى زوجـات الأغوات كانت الريبـة والظنـون تعصـف بقلـوبهن.. فتيـة كثيـرون مـن قـريتكم كـانوا يحومـون فـي القريـة لـيلاً مذهولين مبهوتين.. وكانـت هـي تتحـرق إليك.. ضـاعت وهامت على وجهها وهي تلحق بطيفك.. غرقت في بحر عشـقك.. أنـت لـم تكـن وسـيماً ولا غنيـاً.. كنـت عـاملاً مأجوراً شبه مستعبد في الحقول.. لكن كنْ ممتنـاً لصـوتك العذب.. حينما كنـت تصـدح مغنيـاً (لاوك) أو (حيـران)[2]، كنت تجعل القرية كلها ترقص وتهزج.. تّذْكر أنهـا عنـدما سـمعت صـوتك فـي أحد احتفـالات قريتكم الـذي أُقيم فـي

---

1 العرف الدراج هو أن يتزوج أخ واخته من اخت واخ آخرين، وهو العرف التي تطلق عليه باللهجة العامية تسمية (**گصه بگصه**).

* **خەجە**: (تصغير لاسم خديجة)

[2] (لاوك) و (حيران) هما ضربان من الغناء الشعبي الكردي.

الربيع، حلّقتْ روحها حاملة شعلة العشق لأول مرة.. كان قلبها يرقص وكأنه طير مذبوح..

ألقيتَ بثقلك على الحبل.. اقترب سرب من الزرازير مسرعاً.. لكنه لم يحط على محيط الشبكة.. الليلة ليلة جمعة.. ومن المحزن أن تعود الى المدينة خالي الوفاض.. عند المساء سترجع آمنة أيضاً من عند بيوت الأثرياء.. أحسستَ ببرودة تسري في عظامك.. كانت الحسرة تلتهب في عينيك.. كنتَ تنكفئ على ألمك الكبير، وأطرافك الأربعة تتصبّب عرقاً بارداً.. أصبحتَ كتلة من الألم.. آمنة ماتزال حسناء، مثلما كانت في الأيام التي أغرى فيها جمالها الأغوات.. آه من سطوة الجوع.. لقد جعلتها تطرق الآن أبواب قصور أولئك الأغوات.. تبيعهم البيض والحليب.. أي خشية كبيرة من أن تتوق في الآخر الى ظلال قصر ما.. قبل أربعة أيام أَسَرَّتْ لك آمنة:

"درويش بايز.. أتعرف أن بابير آغا قد تعرّف عليّ من جديد بعد كل هذه السنين؟ وقد وعدته أن أوافيهم منذ الآن فصاعداً بالبيض والحليب كل صباح..!".

"تركوا القرية، ليعيثوا فساداً في المدينة!".

كنتَ تكره أن يجد الشك طريقاً الى قلبك.. عندما تختلي بنفسك لشهر في السنة، فان آمنة تمتعض.. أنت لا تفهم سبب امتعاضها؟ جثم الشك – كسرب من الزرازير – بظله الثقيل الأسود عليك وعلى الشبكة والأرض.. آمنة تطل مئات المرات يومياً على هذا البيت وذاك.. تدخل عليهم أيضاً في غرفهم.. ماتزال يافعة وحارة الدماء.. والرجال العابثون الطامعون كثيرون.. تجدهم

في كل موضع ومكان.. وهي فارعة العود.. ونضارة وجنتيها لم تذبل بعد.. وبياض رقبتها وجيدها يصرخ ويصيح.. وهي قليلة الاستحمام.. من اين لها الوقت؟ يجب أن نحيا.. والحياة جري تحت شمس تموز المحرقة.. يجب أن تطرق أبواب القصور ذات المصراعين والثلاثة.. صيد الزرازير وبيع البيض.. انتما الاثنان مشدودان الى الطيور معاً.. صدفة جميلة جداً!.

في الأسبوع الماضي عادت ذات مساء متأخرة.. كانت شفتاها مصطبغتين بدمٍ قانٍ.. وعيناها مُسَبَلتين.. كانت بقية من نشوة خفية تسبح في أعماق عينيها الناعستين الثملتين.. وبعد ذلك، كيف لا يأكل الشك رأسك؟ إنه لأكثر فزعاً من النوم ليلاً بين القبور هذا الشك والصمت الغارق فيهما..! ذات ليلة جمعة لم تأتِ – كما تفعل في كل ليالي الجمعة الماضيات – لتلتصق بك.. أيقظتها من نومها:

"آمنة.. عزيزتي آمنة!".

انتفضت متسائلة:

"ما بك؟".

"آمنة.....؟!".

"بالله عليك، لا قدرة لدي على ذلك..!".

ها هو سرب آخر.. لقد أتى.. اقترب من الشبكة.. تحركتَ من مكانكَ واستجمعت جسدكَ.. أخفيت نفسك أكثر.. الزرازير حمقاء بقدر ما هي ماكرة.. انتبه للحبل.. ها هو سرب آخر وراء الأول.. تجللت الأرض بالسواد وصارت بلون الفحم.. نكَأَ الحبل جرحاً قديماً في كفك.. الريح القوية التي هدّت قوى الزرازير كانت بالنسبة لك

نسيماً عليلاً.. تغيرتْ مشاهد الأشياء ومظاهرها.. انها خيال وحلم حي.. لكن كيف تغيرت هكذا بهذه السرعة؟ أحسستَ بالفرح يغمرك لصيد كل هذه الزرازير.. كل هذه الثروة.. الثروة التي تأسف لكونها بعيدة عن أن تطالها اليد.. ثروة حرة طليقة مُحلّقة.. وصيدها يعني الركون الى الراحة لشهر أو شهرين من الشتاء.. ألفان من الزرازير.. الفا درهم.. مائة دينار! إنها كيمياء..!.

خطر **عهبه** على بالك.. ستبعث له ستة أو سبعة دنانير.. أبهذه السرعة نسيته؟ حقد الأب لا يوغر في الصدر أبداً.. **خهجه** هي الأخرى صبية غرة وسوف تتصافى معها.. يقولون إن (**عهبه**) في نيته تسمية وليده الجديد.. لقد أصبحتَ جَداً، رغم انك لستَ عجوزاً بعد.. فها أنتَ ذا تجابه صقيع الشتاء القارص وبرده.. غرستَ يديك في التراب المتجلد.. انسابتْ من عينيك الدموع وحجبتْ عنك الرؤية.. يا لقلبك الرقيق! مسحتَ عينيك الذابلتين بسرعة.. استيقظ في سريرة نفسك سر رغبة حارة حادة.. جميلٌ أيضاً أن تُلقي الزرازير الحمقاء بنفسها في الشبكة.. دوريش بايز، كأن يداً خفية ترميها الى شبكتك.. هذه أول صدفة لك منذ أن امتهنت صيد الزرازير.. الآن مات الشك أيضاً.. مصمصتَ شفتيك منشرحاً.. وبدلاً من سرب الزرازير، تراءت لك عينا آمنة المثقلتان بالحزن تشكوان إليكَ.. كانت هي بعينها.. كيف يمكن لك أن تنساها؟ تَذْكر وقتما كانت جياد وكلاب الأغوات تحوم حولها.. وقتذاك كان فتيان كثيرون في القرية لا يكفون عن تكرار الأحاديث في الليالي عن

جمالها.. فوشوا لها قلوبهم أكثر مما فعلتَ أنتَ.. كان الناس يتراكضون خلف ظلها.. لكنها تعلقت بك دون سواك.. مرّغتْ ذقون أخوتها الأربعة في التراب.. أرغمتهم على الإذعان.. وعندما قالوا لها: "لا يمكن ولن يحدث!"، أشعلتها ثورة.. لم تُصغَ لأحد وهربتْ معك.. وماتزال حتى اليوم لا يطاوعها النوم ليلاً قبل ان تسمع صوتك العذب.. وفي بعض الليالي ينتابكما الخوف كطفلين يخافان من قطة.. فتنزلقان في أحضان بعضكما.. وبين أحضانها فقط تتغلب على الخوف.. الخوف وأشباح أخوتها الأربعة.. وفي هذه الليالي يتصاعد ضباب شكوكك مع دخان المدفأة، ويتلاشى عالياً.. يتبدد.. هذه المرة أخذت تلوم نفسك وعيناك المتعبتان هائمتان وراء الزرازير، لكنهما مفعمتان أملاً وإرادة.. هذه الطيور تستشعر الخوف قبل أن تخرج من بيوضها.. تحوم حول الموت.. إنها مسألة حياة وبقاء.. كذلك يجب أن تحيا.. يجب أن تحمل روحك بين أسنانك.. كيفما تكون فستنتهي الى هذه الشبكة.. حتى ولو حلقت لعشرين مرة فستقع فيها مرة.. كانت عيون آمنة تضحك في أفق خيالك.. كم مساءً ربيعياً عاودتك ذكراه؟ كم من ليالي الخلوة.. كم من العشاءات الدسمة.. قلبك مغتبط لليالي التي ستكون فيها بعد الآن بين أحضانها.. أية روعة وأي سحر؟ ضجّت عروقك بالدماء الحارة وأنت تنتظر..

أوشكت الشمس أن تغيب.. استجمعتَ قواك أكثر.. تقلصتْ عضلات ساعديك أكثر.. خشيت ان تطير الزرازير قبل ان تشد الحبل، أو أن تجرك وراءها لكثرتها.. صَرَرْتَ على أسنانك وسحبت الحبل بكل قواك

فسقطتَ أرضاً على ظهرك.. كنتَ بحاجة لقوة أكبر.. إنطلقتَ مسرعاً نحو الشبكة.. تعثرت قدمك بصخرة وسقطت متدحرجاً على الأرض.. نهضت على قدميك معتدلاً.. عاودت الركض وألمٌ حاد يعتريك والدم ينزف من إبهام قدمك اليمنى.. توقفت عند الشبكة وجلت بعينيك.. كان دم قليل قد سال على التراب.. لم يكن لونه لون دم ولا لون تراب.. لحظتها لم تشعر كثيراً بالألم.. لكن خَدَراً سرى في جسدك.. وأثناء ذلك طار سرب من الزرازير.. نجحتَ أخيراً.. لبثتَ في مكانك مدة ثم انحنيتَ على الشبكة تضم أطرافها الى بعضها.. كانت تُخرج مناقيرها من فتحات الشبكة متضرعة متصايحة.. فكرتَ – وأنتَ مقرفص – بالرجوع وبآمنة وبكفاح الزرازير للتحليق الحر.. أخذ ألم اصبعك يشتد عليك وأنت تتفحص الطيور.. مسكينة.. حزنتَ لمحاولاتها.. لكن الأمر انتهى.. أنت تدرك ان الحرية زادٌ وماء.. وحياة أيضاً.. وحياة هذه الزرازير انتهت.. لكن ماذا بوسعك أنت؟ هكذا كان الحال دائماً.. هذا يحيا على حساب ذاك..! وضعتَ شبكتك على ظهر حمارك وتبعته وأنت تعرج.. ومض ألم ظفرك في عروق رأسك.. راح يلتهب في دمك.. شقّت زقزقة الزرازير صمت هذا السهل البارد المقفر وسكونه.. تغوط حمارك فابتعدت عنه.. كنت تفكر بأشهر الشتاء.. هل ستستطيع قضاءها باستراحة ويسر.. انشرحت.. سترجع الآن.. وستكون آمنة أيضاً قد رجعتْ.. ستوقد المدفأة وتهتم بالنار.. الليلة ليلة الجمعة.. ستذبح عدة زرازير، ولعل يديك وقدميك وملابسك تتلوث بالدم، فتتذرع به لكي تغلي ماءً.. وعندما

تـدلف الـى الحمـام الطينـي سـتلتمس منهـا أن تـدلك لـك ظهرك.. خلو البيت والوحدة والدفء ورائحة الزرازير المحمـرة تحـرك فـي عروقـك الرغبـة ولا تعـود قـادرا السيطرة على نفسك.. ومن ثم.....!! ياالله.....!!.

كم تحب ليالي الجمعة.. في هذه الليالي تضطرم في عينيك نيران الرغبة وتزرع فيك الرعشة والاختلاج.. رغبـة اللحـم والـدم.. رائحـة القرنفـل تخـتلط بالأشـياء المقدسة ليلة الجمعة.. انك تغتاظ من نفسك.. رغبتك هذه صـارت أكثـر جموحـاً والتهابـاً. كـلاّ.. لا سـبيل لعـلاج شهوتك ما لم تُخمد النار التي تتأجج في أعماقك.. الأشياء تبدو لناظريك غائمة مُعتمة.. بهجة ولذة ليلة الجمعة، والشبكة الممتلئة بالزرازير استحثتا خطاك.. حتى إذا ما اقتربـت مـن البيـت، اسـرعت الخطـا أكثـر.. وعنـدما وصلتَ، فتحتْ آمنة الباب والحضن لك.. نسيتَ تماماً وجع ظفرك المخلوع.. غابت الشمس.. ولفّتكم – انتما وخربتكما – ظلمة المساء الخفيفة..

شباط 1977

مستلة من مجموعة "الوحشة- 1983"

الأخوات

عُدتِ مع الحشد.. فتحتِ باب الغرفة.. وعندما أغلقتيه وراءك خفّت أصوات الجلبة والضوضاء التي كانت تعم الفناء وتبعث فيكِ الانزعاج.. جلستِ على السرير متكدرة منزعجة دون أن تُغيري ثيابكِ – ثياب حفلة العرس – أو تنزعي حذاءك.. جلتِ بعينيك في الغرفة.. كم بدت عارية خالية! حدقتِ الى صورتك.. كان ضجيج الحفلة منذ عدة ساعات مايزال يرن في رأسك.. حولتِ نظرك عن الصورة وأحنيتِ رأسكِ على صدركِ.. إخترقتْ نظراتك الفراغ الممتد بين نهديك.. كانا متهدلين ذابلين.. قبل سنتين أو ثلاث لم يكونا كذلك.. كانا منتصبين بارزين ممتلئين.. لكن ذلك ولّى ولن يعود.. ما الذي يمكنك فعله؟

قبل سنتين، كانت هذه الغرفة عينها تحوي ثلاثة أسرّة.. ثلاث صور كبيرة مؤطرة بثلاثة إطارات فضية اللون ولك منها صورة معلقة على أحد الحيطان.. ثلاث حقائب كبيرة ملأى بالثياب، وثلاث حقائب يد.. من كل شيء كان يجب أن يكون هناك ثلاثة، وكلها من طراز

واحد وموضة واحدة.. الأحذية، الفساتين، المعاطف، الوشاحات، أطقم الماكياج، مشدات الصدر.. كانت متباينة في اللون فقط.. كانت الأخت الكبيرة تحب اللونين الأسود والرمادي، والوسطى تفضل القهوائي والحنطي، أما الصغرى فكانت تستهويها كل الألوان: الأحمر والأزرق والأصفر..

الآن لم تعد الغرفة مكتظة بالأشياء كما كانت.. انها تبدو أكبر وأرحب من ذي قبل.. لا تحوي إلاّ سريراً واحداً، عُلّقت على الجدار المقابل له صورة الأخت الكبيرة.. لم يكن وجهها لينطق بأي جمال أو مسحة منه، بل كان يشبه وجه إنسان على وشك الصعود الى مشنقة.. كلما تأملته أكثر ازداد انقباض صدرك له.. لا تطل منه قسمة واحدة تبعث بهجة في النفس.. لكنك لا تمقته، بل تُشفق عليه.. كان هدوء ثقيل منبعث من يأس عميق يغطي قسماته.. وعندما تقترب منه أكثر فانك ترين العينين الغائمتين المهمومتين لصاحبته وأسنانها المتفرقة وراء ابتسامتها التي تشبه التقطيبة.. وعلى كل من الجدارين الأيمن والأيسر بقي المسماران الآخران في مكانهما كشاهدين للصورتين الأخريين اللتين رُفعتا عنهما.. إحداهما قبل عامين، والأخرى – صورة الأخت الصغيرة – رُفعتْ بعد ظهر هذا اليوم.. لم يبقَ كذلك السريران الآخران.. أغلب أشياء الغرفة كانت تحكي قصة وحدة الأخت الكبيرة التي تقدم بها العمر.. غرفة وامرأة عانس وحيدة.. جحيم تحترق وتتلظى فيه لوحدها! أي بهاء قد بقي فيها؟ أين الضحكات والقهقهات والنطنطات الطفولية المجنونة؟ أين أهواء الطنطنات

سنوات الصبا وآمالها وأحلامها؟ أين الطُرف والنوادر التي كانت توقعهن على ظهورهن من فرط الضحك؟ لم يبقَ منها شيء.. انتهت تماماً.. أمست كخرائب متهدمة وسط شتاء قاس، ولا أحد يعيد تشييدها من جديد.. ليس ثمة مناص بعد.. كأن قطاراً منطلقاً في سفر أبدي قد تركها وحيدة.. لذلك فهي عابسة مقطبة الجبين، يسكنها برد الأرصفة القارص.. إنها وحيدة في صحراء الغربة اللانهائية وهي تُوارى التراب حية..!

منذ الآن فصاعداً ستتقلب في فراشها وحيدة.. والجدران ستنطبق على بعضها ليلاً.. ستنطبق حتى تحطم أضلاعها ويتفجر الدم من منخريها.. عزوبية وليل مرعب.. كيف سينجلي ليل الوحدة؟ لن تفارقها الكوابيس الضاجة بالعفاريت والجن.. كل ليلة سوف تموت وتحيا مئة مرة.. بعد انطفاء النور ليلاً في هذه الغرفة – التي تمت بين جدرانها خطوبة أختها الصغيرة – ستسفح الدموع بحرقة وسكون.. وعندما يُخيم ليل آخر ستبكي أيضاً.. وليل آخر، وهي تبكي.. لم يعد بعد الآن أحد تخجل منه.. ستطلق شهقاتها في ظلمة الغرفة كخفافيش.. انها تهوى الظلمة كثيراً.. الظلمة رحمة، تخفي تحت ستارها الجمال والقبح كما يمحو الماء المتدفق صورة مرسومة على الرمال..!

فيما مضى، كانت ثلاثتهن يسهرن حتى وقت متأخر من الليل.. يتحدثن لبعضهن عن الحب والعشق والأحلام والأماني حتى يقعن مستلقيات.. وأحياناً يقمن بالتلصص على أهل البيت.. ليالي الجمعة كان يطيب لهن التلصص على الوالد والوالدة.. يُلصقن أنفسهن وآذانهن بكل ثقب

وشق، مُرهفات السمع لكل همسة ونأمة وحركة، ثم يرجعن بحذر وتوجس الى غرفتهن وقد أعياهن التعب.. وحالما يغلقن الباب يأخذن بتلابيب بعضهن.. يتعاركن بالوسادات.. يمرغن ويدغدغن بعضهن حتى يعتريهن الإنهاك.. ثم يرحن يحلمن بخشية ولذة لامتناهيتين باللحظة التي يغرق فيها الآن والدهن ووالدتهن.. كان التعب يعتريهن.. فيستسلمن للنوم ويُبحرن في أحلام مزدانة بألوان قوس قزح.. وفي الصباح الباكر، كانت تطغى أصوات تدفق المياه وقرع الطوس والقدور.. وتُسكر رؤوسهن رائحة الصابون والحمام، ويغرق الفناء في رغوات الصابون والمياه الحليبية الكثيفة.

بعد اليوم ستكون وحيدة.. لا أحد يستمع إليها.. لا أحد يحدثها.. ولو رفعت صوتها وحدّثت نفسها لأمكن أن يتردد صداه في الغرفة الخالية مثلما في كهف..!

رفعت رأسها وحدقت الى الصورة.. استحالت عيناها بركتي دمع ودم.. تطلعت الى حيطان وأركانها الغرفة العارية.. ألقت رأسها المثقل بالهم والدوار الى الخلف رافعة ذقنها العريض المائل.. تلفتت محملقة الى الصورة، وراحت تحاول استجلاء سر ما.. سر يكمن في أعماقها، في وجودها، في قلبها، في عقلها، في وجهها العابس، أم يكمن خارج تلك الذات الجريحة؟ لم تكن تدري.. كانت تود لو تعرف: لماذا المرأة صنفان فقط، إما جميلة واما دميمة؟ من يستطيع هتك هذا السر؟ لماذا التباهي والزهو؟ من الذي جبل مع الله طينة هذا الجسد؟ لا أحد يفهم.. لماذا لا يفهم؟ متى يفهم؟ هل الفقر هو الذي يجعلك قبيحاً، أم القبح هو الذي يجعلك فقيراً؟؟ أسئلة بلا

أجوبة..!

تمددتْ بطول قامتها على السرير.. لم تكن جلبة الناس لتخفت.. انها فوضى ما بعد الحفلة.. وهم لا ينصرفون ولا يتركون بيتها – المقبرة.. لم تبقَ سوى رفاتها المهملة، فلماذا هم باقون؟ لولا العيب لفرقتهم جميعاً بصيحة واحدة.. انهم سعداء هانئون.. من يعبأ بغيره؟ كل امرئ يتوجع من جُرْحٍ به.. لو كانوا جميعهم صُماً وبُكماً لما استطاع أحد ما أن يتكلم ولما وجب على أحد أن يستمع.. ثم ان الثرثرة هي جوهر التفاهة.. راحت تسبح – مع دوران المروحة الخفيف – في خواطرها وتأملاتها:

قبل سنتين فقط، كنتِ أنتِ سبب تعارف (برزين) بزوجها.. لشهر أو شهرين كنتِ أنتِ هواه ومُناه.. ملكة على عرش أحلامه.. الرجال خائنون مخادعون.. بعدها تعرّف على برزين.. رأى قمراً في الليل، فعبده.. ولما أشرقت الشمس في الغد، سحر كثيراً من القمر.. رتّبا كل شيء سوية من خلف ظهركِ.. هكذا سريعاً وقع في حبها ونسيكِ أنتِ.. خطبها وتزوجها وأنجب منها طفلاً.. وبقيتِ أنتِ وحيدة.. يومذاك لم يتركوك لشأنك.. أجبروك على التصفيق والتهليل..

واليوم.. حققت (بفرين) التي تصغرك بخمس سنوات أمنيتها.. ولم يكونوا ليقنعوا منك بالتصفيق، فكنتِ تُطلقين الزغاريد وراء بعضها كأسراب عصافير وترقصين كأنثى الدب، وأنتِ تُسائلين نفسك: لماذا لا يوجد في هذه الدنيا ناموس للدميمات والعاجزات والعوانس؟ من هو مؤلف هذه المأساة – الملهاة؟! ليس من أحد يجيب..

هـي الأخـرى، بأيـة سـرعة حققت حلمهـا؟ فـي العـام الماضـي فقط تصـادف أن ذهبتِ وبفـرين الـى حفلـة.. فـي بدايـة الحفلـة إلتفـتِّ ناحيـة اليسـار فوقـع نظـرك علـى أسـتاذك.. عرفتيـهِ.. عرفَـكِ.. تبادلتمـا التحيـة والسـؤال.. أفهمتيـه أنـكِ الآن موظفـة فـي إحـدى المؤسسـات.. أفهمـكِ انه مازال في نفسها المدرسة.. ولم يتزوج بعد.. وعندها فقط قَدّمْتيه وبفرين الى بعضهما:

- الأستاذ **نەبەز**.

مدّ لها يده..

- أختي بفرين.. طالبة إعدادية.. في الصف السادس..

راحا يتصافحان ويعصران يد بعضهما.. وسرعان ما ابتدأت حفلته الخاصة.. انشغل تماماً عن الجلبة والزحمة التي كانت تسود القاعة.. كان يختلس النظر الى بفرين بمكر.. وأحياناً كان يتوجه بالحديث إليها، فكانت هي بدورها تشاطره هوسه وهوجه بغير حياء.. وأثناء الاستراحة، غيّر – صدفة أو عمداً – محل جلوسه فأصبح الى جانب بفرين.. إعتراكِ الخوف والشك.. لم يسبق لكِ أبداً ان شاهدتِ الأستاذ على هذه الصورة.. انه يبدو لناظريك وضيعاً جداً.. لو كان ممكناً لحطمتِ كراسي القاعة على رأسه.. لم يكن ممكناً، كان معيباً.. التزمتِ السكون، والغيظ مستبد بكِ.. قلتِ لنفسكِ: "ستنتهي الحفلة.. وفي البيت سأعلمها الأصول والسلوك".. لمرة أو مرتين اشترى لكما حلويات ومأكولات ومرطبات.. كان يُخرج النقود بيدٍ وأصابع مرتعشة.. كنتِ قلقة مهمومة.. وهو لا يفتأ يروح ويغدو متوددا إليكِ بينما يُلقي شباكه خفية في موضع آخر.. يا

للمسكينة.. كم كنتِ مُثيرة للشفقة؟ لو كنتِ تدرين أنكِ ستكونين جسراً، لهدمتِ نفسكِ.. لكن كل شيء ولّى وانقضى.. هكذا هم الرجال دوماً.. كلهم كذابون.. متى بحثوا عن الفطنة والذكاء.. كلهم فارغون.. ليكن كذلك.. يبدو أن الحياة عراك مميت بين الإنسان الفظ القاسي والإنسان الليّن الرقيق.. وأنتِ، كيف ستكسبين رهانكِ؟ كنتِ تريدين ان ترسمي – في غرفتكِ هذه – مخططاً لتهديم هذا العالم! تذكرتِ أهما أصبحا لبعضهما منذ ذلك اليوم.. كان انقلاباً.. كانا يرقصان معاً ويتلقيان سيل القبل.. كادت أنفاسهما تتقطع وهما يستقبلان القبل.. كانت القاعة تزهو وتبرق مزدانة بالألوان الزاهية.. والناس سعداء مسرورون.. وسيارات كثيرة مركونة في المكان.. والأستاذ يرتدي بدلة بيضاء.. وبفرين – التي أثقلها الخرز والمرجان والحلي والجواهر – ترقص كفزاعة ونظرتها الباسمة لا تتحول عنكِ.. طلبوا منكِ أن ترقصي.. رحتِ ترقصين كمن يجر أطرافه جراً.. كنتِ تبدين تعيسة شقية، والدنيا تتراءى لك معتمة أكثر من ذي قبل، ومشاهد الأشياء مختلطة مع بعضها.. وبعد ربع ساعة من ذلك، توجه العريسان مع التصفيق والزغاريد الى ليلة حمراء.. كل شيء كان يضحك بينما أنتِ تبكين بصمتٍ بلا دموع..

عدتِ الى البيت كما لو أنكِ تعودين من مأتم أمكِ.. مازال زعيق منبه السيارة التي حشرا جسديهما فيها يطن في إذنيكِ ويعتصر قلبك ألماً في هذا المساء الذي يُكلكل ظلامُه بثقل وهدوء.. وعندما أخرجا يديهما معاً من نافذة السيارة ملوّحَيْن لك بالوداع (وكأنهما يودعان ميتاً

مجهولاً في هذه الدنيا – المقبرة)، تمثّلَ لكِ المشهد وكأنه مسرحية تراجيدية وليس حفلة عرس..!

أصبحتِ منذ اليوم صاحبة غرفة وحيدة.. وسادة وحيدة.. نفَس وحيد.. قلب وحيد.. أنّى للقلب الوحيد ان يكون قلباً بحق؟ صاحبة ذكريات سوداوية عن عزوبيتكِ.. صورة وحيدة وأربعة حيطان عارية.. رمقتْ عيناك الصورة، وأحسستِ بغربة أبدية.. وإذا بحقدٍ مشبع بتلك الغربة يُلهب كيانكِ كله..!

هدأت الضوضاء في الفناء.. كانوا ينصرفون رويداً رويداً.. لم يبقَ غير الأهل والأقرباء.. وفجأةً، فتحتْ أختكِ برزين الباب.. كانت تحمل على صدرها طفلاً رضيعاً مفتوح العينين، أخذ بالصياح وكأنه ارتعب من منظر وجهك.. ضمّته أمه الى صدرها أكثر.. وبعد أن خطتْ خطوة ونصف صارت الى جانبكِ.. ولفترة وجيزة رَنَوتُما الى بعضكما.. لم يرف لأية منكما جفن.. فهمتما بعضكما.. وبنفور وبغير ود صرختْ فيكِ:

- لِمَ البكاء، ألا تخجلين؟ ها؟

أواه أيتها الأخت الكبيرة.. كم شعرتِ بالخجل والانكسار والموت.. بلل العرق والدمع وجنتيكِ وذقنكِ وطرف وجهكِ المتعب.. كنتِ تذرفين الدمع بصمت على جرحك الخفي وتنزفين حتى من حيث لا جراح.. لم تكوني قادرة على أكثر من البكاء.. كانت نظراتك تجوس في الغرفة كحيوان جبلي داخل قفص.. لقد افتضح أمركِ.. فيما مضى كنتِ تُخفين همك الثقيل.. لكن العرس الأخير في بيتكم أعلن عن مأتمك.. لم تكوني قطرة ماء لتمتصكِ الأرض.. اضطربتْ حواسكِ وجعلَ الخَدَر

يتسلل الى جسدكِ.. كانت أطرافك ترتعش وأجفانك ترتخي.. صَرَرْتِ على أسنانك.. فغرتِ فمك.. اهتاجت دماء الحقد والكراهية في عروقك.. ضاق تنفسك.. صار كل شيء يبدو لناظريك أكثر عتمة.. غرق جسدك في دوامات مجنونة.. وضَجَجْتِ بصرخة ملأت أرجاء الغرفة:

- الى الخارج!.

لكن برزين بقيتْ تحدق فيكِ.. لم تنبس بكلمة.. وما كان منك إلاّ أن قطّعتِ القلادة وطوق القرنفل عن عنقك.. لطمتِ وجهكِ بيديكِ.. شرع الطفل يبكي ويصرخ.. انتابتْ قشعريرة باردة يديك ووجهك وسَرَتْ في كل كيانكِ.. أردتِ أن تجدي ذريعة أو تفتعلي خصومة تُخفين وراءها لواعجك.. وكمخبولة، نهضتِ فجأة على ساقيك المرتجفتين المرتخيتين بصعوبة بالغة، واعتليتِ كرسياً صغيراً وأختك تحدق فيك ذاهلة لا تعرف ما الذي تنوين فعله، كما لم تجرؤ على السؤال.. وبمشقة وعناء بلغتِ موضع الصورة.. رفعتِ يديك الاثنتين وجذبتِ الصورة بكل قواك.. فقدتِ توازنكِ.. انزلق الكرسي تحت قدميك، وسقطت على الأرض مرتطمة بالصورة التي تحطم زجاجها وخلّف جرحاً في ساعدك.. وفي غمضة عين تدفق الأهل والأقارب الى داخل الغرفة وطوقوك بحلقة وقد عَلَتْ دمدماتهم.. لم يفهموا شيئاً.. ضمدت برزين الجرح.. حملتك أربع أيدٍ.. هذا الجرح النازف دماً يرونه جميعهم.. لكن من يعلم بالجرح الآخر؟!.

أرقدوك على سريرك كمريضة عاجزة.. تمددتِ متراخية منهوكة القوى.. حدقتِ في الحضور كامرأة بلا

حياء.. نزفتِ دماً غزيراً، وتذكرت (النزف) الآخر.. ثمة فرق شاسع بين الاثنين.. بين الجرحين..! لم تتعرفي الى أحد.. كانت الوجوه غائمة معتمة مهتزة وكأنك ترينها تحت سطح الماء.. لم تتعرفي على أحدها.. أحسستِ بجسدك يخف.. استشعرتِ لذة وحشية من نزيف الدم.. أخذ الناس يغادرونك كما يغادرون جثة هامدة، تاركين الغرفة خالية.. كانت برزين آخر مَن غادرت الغرفة وأغلقتْ بابها عليكِ.. دارت عيناك الغائمتان في الغرفة العارية واستقرت نظرتكِ على الجدار المقابل حيث موضع الصورة المحطمة.. وبدلاً منها كان هناك إطار من الغبار يبدو بارزاً صارخاً على الجدار الأبيض.. أغمضتِ عينيكِ.. بقيتْ قطرة دمع معلقة بين جفونك لا ترضى الانسفاح على خدك.. تدريجياً راح وعيك يُزايلك.. يُزايلك أكثر.. ثم سقطتِ – كحجر ثقيل جداً – في وهدة نوم عميق..

حزيران 1979

من مجموعة "الوحشة"

الخوف

ترجمة: فائز يونس

حالما هيّأت أمه فُرُش النوم مساءً، اضطجع أخوته وأخواته في أمكنتهم هامدين، ثم تمددت أمه بعد ذلك وسرعان ما غلبها النوم.. أغلق (كاوه) النافذة بإحكام كما أقفل الباب بوجل وسدّ كل الثقوب والشقوق في الغرفة.. تلك الغرفة الطينية العتيقة المصطبغة بألوان الهموم والمخاوف والجوع.. الغرفة التي شهدت – منذ عهد الطفولة وحتى منتصف هذه الليلة – إنطفاء آلاف من شموع الأمل والرجاء، ورددت أصداء أنينه ونحيبه وبكائه وشهقاته.. نقّبَ بعينيه في اركانها الأربعة وفكر في المصاعب والبلايا التي تواجه العائلة.. وها هو الآن في منتصف الليل ينوء بهمومه لوحده.. لا أحد يشاركه الغربة والشقاء ويصرخ معه بأغنية الجوع.. ليس غير هذه الريح المجنونة الضاربة على غير هدى وهي تزمجر وتنذر بالهلع.. الليل في منتصفه.. وكل همسة أو نأمة في الخارج، اعتيادية كانت أم غير اعتيادية، تزرع

فيه التوجس وترمي الرعدة في أوصاله.. كما ان الناس انصرفوا في هذه الأيام الى أعمال لصوصية أكثر من ذي قبل.. ولا أحد يغيث غيره أو يُنجده.. والشيوخ راحوا يسترجعون ذكريات أيام الحرب والقحط والمجاعة والنكبات والويلات.. ويبدو أن الطبيعة أيضاً تنوء الليلة بهموم كثيرة.. كانت الأصوات الغريبة المنبعثة من خارج حدود البيت تبعث في نفسه الخيفة والظنون.. والرياح العاتية تُراقص الستارة السميكة المتسخة وتهزها وتبعث الصرير في النافذة التي لم يبق فيها سوى لوحين سليمين فقط.. سدّ فتحات النافذة بكارتون مسحوق الغسيل وقَطَعَ أنفاس الشقوق التي تحت الباب بالجواريب القديمة.. تعجب كاوه من قوة العاصفة.. كيف تُلقي الجزع في قلبه حتى وهو داخل هذا الصندوق المغلق.. كان هديرها خارج حيطان الغرفة يعزف لحناً طافحاً بالكآبة.. يزيد هموم ذلك الليل ثقلاً وينشرها في أرجاء الغرفة.. يُنبِئه عن البرد والثلج والريح والعاصفة في الخارج.. شعر كاوه بالمطر يدغدغ حواسه ويبعث فيه الرعشة وهو يهطل بغزارة على السطح.. كان يحس وكأنه عارٍ من الثياب وان كل هذا المطر انما ينهمر عليه هو.. لقد ضاعف المطر من مخاوفه هذه الليلة.. كانت أمه تقول له دوماً:

"المطر عيد الفلاحين.. عندما تكبر أنت أيضاً ستموت وتحيا مع كل قطرة مطر.. لكنك مازلت طفلاً يا ولدي، لا تفهم لغة المطر".

في كل مرة يهطل فيها المطر كان هو يتكدر وينقبض صدره.. أيام العيد كانت تعني عنده تلك الأيام التي يُتاح

له اللعب فيها.. وهذه الليلة كان يكره – أكثر من أي وقت مضى – أن يهطل المطر..

منذ المساء انكب على أحد كتبه دون أن يستطيع قراءة عشر صفحات منه.. وغداً هو اليوم الأول من امتحانات نصف السنة.. ومن المحتمل ألاّ ينجح فيه وأن تتوالى الأيام الأخرى أيضاً على الشاكلة نفسها.. الرسوب الأول يمهد لمرات آخرى.. كاوه في الصف الثاني المتوسط.. لم يكمل ربيعه الخامس عشر بعد.. خائف وضعيف دوماً ويخشى الرسوب كثيراً.. كان والده قد هدده وتوعده، إما سيُلقي به في بئر الماء وإما سيُدمي قدميه بالعصي.. وهو يعرف تماماً أن والده جاد فيما يقول وانه يبحث عن ذريعة ينفذ بها تهديده.. إن يده غليظة.. في كل مرة وقع تحت طائلتها لم ينج منها بجسده سالماً.. انه شرطي قاسي القلب.. لكثرة ما ألهبَ ظهره وأطرافه بالسوط الأسود.. المطر والامتحان زادا من مخاوفه.. عند المساء كان السكون يلف الدنيا وكأن سحراً عظيماً لفّ كل الأشياء بالصمت.. وهو يجهد نفسه لجمع شتات فكره ونفسه دون أن يفلح.. والده – للمرة الواحدة بعد الألف – غائب عن البيت في هذه الليلة.. ما ان يحل المساء حتى يضع معطفه العسكري على كتفيه ويتوجه الى مقهى "ابراهيم الشحاذ" المزدحم بالمقامرين والحثالة والمتسكعين.. هناك تقوم جنة والده المجنون بلعب القمار حتى لَيَحسب المرء أنهم انما قطعوا حبل سرته في نادي قمار.. لم يكن يستبدل نرد الطاولة أو ورقة الجوكر أو حجر الدومينو بواحد من أطفاله.. وكلما كان يخسر كان الضرب والركل يطال صغيرهم

وكبيرهم، وهو ما جزع له كاوه.. وفي هذه الليالي لا أحد يغادر بيته غير والده وبعض المقامرين الآخرين.. وهذه الليلة – كسائر الليالي الأخرى – يمكث كاوه وحيداً.. حارساً هلِعاً لبيت مزدحم بالأطفال وعامر بجوع سنين مديدة..!

مكث كاوه ساكناً يصيخ السمع للريح المجنونة التي لا تهدأ ثائرتها.. ثمة أنين ينبعث من أسلاك الأعمدة ويسفح حزناً عميقاً.. يروح يئز.. ووو.. زززز.. زووززززز.. وززززز.. لا ينتهي.. وهو يزيد كاوه هماً.. أية موسيقا مروعة مهيبة كانت خميرة خوف هذا الليل المبتل الغادر.. ليس بوسع أي كمان أو أية آلة موسيقية أخرى أن تعبّر عن حزن هذه الليلة.. كان دوي الريح العاتية وهدير المطر وهزيم الرعد ووميض البرق ونشيج المزاريب وتراقص الستارة وارتعاش لهب المصباح الأصفر أمام نظر كاوه تتداخل وتمتزج ببعضها بغرابة وجمال، وتصب مجتمعة في نهر عظيم وكأنها لحن واحد.. لحن لن يُتاح لكاوه الصبي أن يفهمه تماماً قبل أن يمضي وقت طويل..!

من الغريب أن تحميه أربعة جدران فقط من أهوال الطبيعة.. ذات يوم قال الأستاذ الأصلع:

"سيأتي يوم يُخضع الإنسان فيه المطر والطوفان ويضع الطبيعة تحت سيطرته..!".

ولولا الخجل والخوف لقال له:

"وماذا عن الخوف والجوع؟".

المخاوف في الخارج شغلت ذهنه عما بداخل الغرفة.. جال بنظره فيها للعثور على مشهد يبدد خوفه الأسود

هذا.. جدران عارية.. فُرُش بالية ممزقة مُتربة.. بعض الأقداح الزجاجية والأواني الفخارية.. عدة صُرر صفراء وحمراء محشوة بالخرق والأسمال البالية، محشورة كلها في كُوات الجدران وداخل صندوق خشبي قديم بالكاد يقف على قوائمه وقد تكومّت فوقه بعض الوسادات والأغطبة الرثة المهترئة.. وعلى صفحة أحد الجدران كان يطل وجه والده من صورة مؤطرة وهو بملابس الشرطة مُحدّقاً فيه.. جذبت قبعة ابيه انتباهه.. أعضاء فرقة الكشافة أيضاً يعتمرون القبعات.. وهو أيضاً يحب اعتمار القبعة.. لكنهم لم يختاروه مرة واحدة ليكون عضواً في الغرفة.. كان نصف وجه أبيه عبارة عن شارب اسود كثيف.. يعتز ويفخر به كما بحديقة وبستان.. وكان عندما يتطلع الى صورته يتذكر يوم تزوج.. وقتذاك وقعت في هواه امرأة من (وادي بالك) أرادت أن تهرب وإياه معاً.. أخبرها قائلاً:

"عندي زوجة..".

لكن المرأة أجابته:

"وهل ابتلعت زوجة ما ضرتها؟!".

وبجانبها عُلّقت صورة الأمام علي.. ملتحياً، يفيض وجهه بالنور.. قصير القامة، بديناً، تعصب رأسه عمامة خضراء ويمتشق سيفاً ذا حدين وقد ربض أمامه أسد يُحدق في الناظر إليه بعينين آدميتين.. لم يكن والده منشرحاً لهذه الصورة.. أمه الورعة المتدينة الكثيرة البكاء هي التي علقتها.. كانت عوارض السقف ودعاماته الخشبية ثابتة راسخة، وذكّره بعضها بذلك اليوم الذي سرقها فيه والده من مستودع المخفر وأرسلها الى البيت

بواسطته.. كانت مياه الأمطار الطينية المترشحة من سطح المنزل قد طبعت على الحائط عدة رسوم تراءت له شبيهة بخرائط البلدان التي قرأ عنها في درس الجغرافيا.. أخذ السقف يقطر ماء المطر، أحياناً ببطء وأحياناً بسرعة وتلاحق.. كانت هذه النغمة مختلفة عن دوي الريح وانهمار المطر وهزيم الرعد..

لم يكن يوجد في الغرفة ما يلفت انتباهه.. منذ سنين بعيدة وهي على حالها.. مأوى للخوف ولصنوف الأحزان والأشجان.. حوّل نظره الى أخوته وأخواته.. كانوا منكمشين على بعضهم من البرد.. لم يكن يُميّز أيدي وأرجل أيّ منهم.. كانوا يشكلون كومة من اللحم القليل والعظام الكثيرة.. كانت أذرعهم وسواعدهم وسيقانهم وأقدامهم ورؤوسهم وأعناقهم قد اتخذت أشكال علامات الاستفهام (؟) والتعجب (!) والفارزة (،) والنقطة (.).. وقد تمسكت يد أمه التعيسة المحزونة النائمة بالحبل المشدود الى المهد وثديها شبه المتيبس مندلق الى الخارج من فتحة قميصها في متناول ذلك الشُلْو الهزيل في المهد..! كانت أختاه العازبتان نائمتين بقنوط.. انهما تبدوان قانطتين حتى أثناء نومهما.. كانت جبهة كبراهما قد عضّنها الهم والتعب، وكواحل أقدامهما المتشققة خارج الغطاء ذكّرته بأخت صديقه فرهاد.. في ذلك اليوم كانت تلهو في حديقة منزلهم وهي ترتدي ثوباً أحمر شفافاً.. كان كاحل قدمها ألمس كبيضة.. كان يود أن يأخذه بيده.. وكان يستشعر البهجة حينما تتحدث إليه أخت فرهاد.. الآن يكون فرهاد في غرفته الصغيرة البهية راقداً في سريره الوثير الناعم، ولعله يُبحر الآن

في حلم سعيد..

بالكاد طرق سمعه صوت وقع قدم ما.. تلاشى أمام ناظريه مشهد أشياء الغرفة.. جال بخياله قريباً وبعيداً.. اهتاج واضطرب بين جوانحه بحر من الخوف.. كان ينقل خطواته ببطءٍ وتمهل.. يهبط الدرجات.. كانت خطواته أكثر من عدد الدرجات.. وكل خطوة كانت تُلقي في قلبه جزعاً آخر.. إتسعت عيناه ذهولاً.. لم يتبين أي شيء.. ولم يجرؤ على إزاحة ستارة النافذة.. ارتعدت فرائصه رعباً.. ألهب الخوف ما تحت أذنيه.. تقطعت أنفاسه.. غام نظره.. حتى لو أزاح الستارة، فماذا سيشاهد غير السواد والظلام؟ اللهم إلاّ ومضات قصيرة من البرق تُضيء الدنيا لعدة لحظات، وإلاّ فلن يرى شيئاً.. انقطع صوت وقع القدم لمدة وخيّم سكون ممل على أرجاء البيت.. لماذا هدأ هكذا قبل وقت قصير صرير الريح وانهمار المطر؟ انه لم يهدأ.. لكن صمتاً حال بين أذنيه وبين كل صوت دنيوي.. كان يُنصت لوقع تلك القدم اللعينة.. يُحتمل أن يكون قد هبط السلم ووصل الفناء.. يبدو أنه تسلل عبر السطوح.. ترى كم سطحاً اجتاز؟ علم أن والده يقامر في المقهى.. اللص يعلم أشياء كثيرة.. لكن ليس شرطاً.. لو كان لصاً لعرف أنهم لا يمتلكون أكثر من الجوع.. وعندما حانت منه نظرة الى أختيه العازبتين إستبد به خوف وبيل.. امتلأ بلعومه بالغصة.. للسرقة أشكال كثيرة.. أيمكن أن يكون هذا سارقاً؟ لِمَ لا؟ الناس هنا جياع لأشياء كثيرة وليس للخبر وحده..! انقطعت حركة الشخص.. انه لا يتقدم خطوة واحدة.. لا ينتابه سعال.. ان ليلاً بارداً ماطراً كهذا لَهُوَ ليل اللصوص

والسُرّاق وقُطّاع الطرق.. يُحتمل أن يكون قد احتمى من المطر بشجرة التوت الكبيرة.. لولا البرد وخوف الامتحان وغياب والده عن البيت لكان الآن يغط في النوم.. وفوق ذلك لَما عصف هذا الخوف بروحه.. نظر الى ساعديه الهزيلين.. لابد أن ساعدي ذلك الرجل الذي يُسمع صوت حذائه أغلظ بكثير، وإلاّ لما بلغ الفناء بهذه الجرأة.. وقد تمنطق في حزامه بخنجر أو مسدس.. الموت بالمسدس أفضل.. انه فوري.. ربما اعتقد أن والده مقامراً ممتلئ الجيوب.. لا يعلم انه رجع ليلة البارحة متأخراً جداً.. بعد منتصف الليل.. أدار المفتاح الذي يحتفظ به دائماً.. وبركلة واحدة فتح الباب على أقصاه.. استيقظ الجميع على صياحه وزعيقه.. كان الخوف والانتظار والأحلام المزعجة قد استبدت بهم.. نهضت الأم من تحت غطائها والنوم مازال بعينها.. مدّ الوالد يديه الاثنتين الى الأم عابساً صامتاً لكي ينتزع الأقراط من أذنيها.. أخذت تبكي بمذلة.. بكى كاوه هو الآخر.. كانت تلك الأقراط هي آخر شيء تبقى لهم، وقد أخذها.. كان يود أن يزيح الستارة ويبوح بذلك الى اللص.. عندما انتزع القرط الثاني من أذنها اليسرى بكتْ أكثر ونشجتْ شاكية:

"حرام هذا الذي تفعله بنا!".

إحمرّ وجه والده أكثر وهوى بكفه على خدها.. استعصى عليه انتزاع القرط الذي تشبث بالأذن، فدفعه تعجله للقمار وتهيجه الى أن يمزق اذنها.. سال خيط رفيع من الدم على صدغها.. لو يبوح له بذلك.. بأية وحشية انهال عليها ضرباً؟ ووضع القرط في جيبه..

وعندما انخرط الأطفال جميعهم في البكاء وتحلقوا كفراخ الدجاج حول امهم نالت كاوه أيضاً صفعة وبصقة.. بعد ذلك أغلق الباب وعاد أدراجه الى المقهى.. لو باح للّص بذلك، تُرى ألن تأخذه بهم شفقة؟!

أحس بأنه لا يستطيع عمل شيء.. احتبس صوته.. تخدرت أذناه.. لو أراد أن يصرخ فلن يخرج صوته.. أطبق الخوف والحزن على بلعومه.. راح يفتش عن شيء أو سبيل يحتمي به.. كان يفكر في عيني الرجل اللتين تقدحان شرراً.. ساعديه القويين المفتولين.. السلاح الذي يتمنطقه.. الغاية التي جاء من أجلها.. لو كان والده هنا لما اجتاحه هذا الخوف.. فساعد والده أيضاً غليظ.. ولكانا هاجماه معاً.. كل شيء يمكن أن يحدث في ليل عاصف ورهيب كهذا.. استبدت به رغبة الاستكشاف.. أراد ان يُزيح الستارة قليلاً ليستجلي غموض ما وراء النافذة.. ليشاهد ذاك العفريت القابع في الخارج.. لم يجرؤ.. أوشك أن يتقيأ مرارته.. كاد الدم يجف في عروقه.. راحت أقدامه تتحرك من جديد.. أنبعثت خفقات حذائه من طين الفناء.. تقدم أكثر.. وضع كاوه كتابه جانباً بتؤدة وانزلق تحت غطائه دون أن ينبس بشفة.. أمسك أنفاسه وهو يُصيخ السمع لذاك الصوت.. من ذا الذي يقول ان هذه الظنون ليست إلاّ من صنع خياله هو؟ ان الخوف والرعب لَقادر على اختلاق ألف شبح وشبح.. تقدم أكثر.. راح يخطو صوب النافذة.. أخفى رأسه تحت الغطاء.. مهما فعل ومهما يكون، فلن يفتح الباب.. وإذا ما كسره فان أحداً لابد أن يهرع لنجدتهم إثر صراخهم.. ان هذا الزقاق لم يَخلُ قط من الرجال.. تدثر بالغطاء أكثر..

لفّه ظلام أحلك.. أحس في دخيلة نفسه أن تلك الفترة الممتدة منذ ما لامس صوت وقع القدم سمعه وحتى هذه اللحظة التي يقف فيها الشخص أمام النافذة كانت دهراً أسود مأساوياً لا ينتهي.. كيف لم يمسه جنون؟ أخذت أسنانه تصطك.. ولأول مرة أدرك أن (الزمن) ليس إلاّ ما تولّده احساساته هو.. ضاق بصوت تنفسه.. لو استطاع لكتم صوت دقات قلبه الذي كان أعلى وأصخب صوت في الغرفة، بينما كان وقع أقدام الشخص أرعب صوت يقتحم أذنيه من الخارج.. كانت أطرافه الأربعة ترتعد.. وفي الطرف الآخر من النافذة كان الشخص يقف تارة ويتحرك تارة.. ما الذي يريده؟ لماذا لا يتكلم؟ لا يحطم الباب؟ لا يصرخ؟ لا يشتم؟ لماذا يتحكر بصمت هكذا؟ إنه يدبر أمراً ما معتقداً أن الجميع نيام وان أحداً لا يمكن – في ليلة ماطرة عاصفة كهذه – أن يبقى ساهراً.. الحراس والعسعس بدورهم قد مكثوا قابعين في الزوايا والأركان.. أخذت أمه بالشخير.. حرك عنها الغطاء فانقطع شخيرها.. غدتْ كل أعضاء جسده آذاناً.. وبعد عدة لحظات من الخوف والشك والانتظار سعل الشخص وقال:

- هل أهل الدار مستيقظون؟

لم يتعرف كاوه على الصوت.. لفّته دوامة من الخوف أفقدته القدرة على رؤية حتى ما أمامه.. غمره بحر من الشك صمّ أذنيه وتركه غير قادر على سماع أي صوت.. وعاد الرجل يتساءل:

- أأحياء أنتم؟!

في هذه المرة حمل الصوت الى أذنه نبرة معروفة..

لم يكن ينطوي على شر أو غضب.. خفف عنه بعض الخوف.. تحركت في شراييه دماء الشجاعة فقام وأزاح طرف الستارة قليلاً.. بدا كل شيء أسود يجلله الظلام.. لم يتبين وجه الرجل وهيئته.. كان مطر غزيز ينهمر حائلاً بين الاثنين.. تقدم الرجل أكثر.. صار تحت الايوان.. ألصق جبينه بزجاج النافذة.. وارتفع صوته مجدداً:

- اشعلوا المصباح، وتعالوا لإعانتي..!

كان صوته يعبر هذه المرة عن ارتباك وارهاق..

- عائشة توشك على الموت بينما أنتم نيام؟!

هدّأه اسم "عائشة" وأعاده الى رشده.. زايل الرعب قلبه ومشاعره وتبدد من ذهنه بعض التشوش.. إلاّ انه لم يزل متردداً.. سأل:

- العم عَوْلا؟

- ماذا دهاك؟ افتح..

- ما الذي حدث؟

- عائشة تعانى آلام المخاض، ولا يوجد بقربها أحد..

أثناء ذلك استيقظت أمه.. ولكي يتيقن تماماً أزاح الستارة كلياً.. كان وجه العم عَوْلا مازال ملتصقاً بالزجاج.. وللحظة خاطفة أضاء وميض البرق العالم ورأى كاوه وجه العم عولا.. كان أنفه قد تفلطح على زجاج النافذة.. كان مشهداً غريباً لناظريه أشبه ما يكون بمشهد من فلم سينمائي.. وهو مولع بالسينما كثيراً وبأفلام طرزان وهرقل وماشستي.. كان أحياناً يذهب مع صديقه (**مچه**) الى السينما دون علم أحد.. أما فرهاد فكان يذهب إليها مع أبيه وأمه، حيث يحجزون لأنفسهم

مقصورة.. لم يكونوا يذهبون كثيراً.. لكن **مچه** يذهب أكثر منه.. وهو لا يخشى أباه.. كما انه يدخن السكائر كذلك.. مراراً كثيرة شاهده يشتم أباه ويقذفه بالحجارة.. وكان كذلك ينتزع النقود منه عنوة.. ضحك كاوه.. لم يعرف السبب.. أهي فرحة هذه الخاتمة غير المنتظرة أم هو أنف العم عولا؟ أيّما كان السبب فقد نسي خوفه من العاصفة وامتحان الغد.. تُرى ماذا كان سيفعل لو كان الرجل لصاً؟ لابد أن الهلع كان إذّاك سيعصف بكيانه.. سيميته.. غداً سيقص كل ذلك على فرهاد **ومچه**.. سيُخيفهما.. سألته أمه في غمرة شروده:

- أهو والدك؟

- كلا يا أمي.. إنه العم عَولا.. الخالة عائشة توشك أن تلد..!

رمت الغطاء عنها ونهضت منهوكة القوى وهي نصف نائمة.. توجهت نحو باب الغرفة.. فتحته وخطت خطوات حثيثة نحو السلم الخشبي الذي كان كاوه قد أسقطه على الأرض مساءً بدون سبب.. وبسرعة أصلحت وضع السلم على الجدار المنخفض الذي كان يفصل بينهما.. تلفتت الى الاثنين بعجلة.. ثم هبطت السلم مسرعة وانطلقت عبر الفناء الى حيث تمكث عائشة وحيدة تعاني المخاض.. نظر العم عولا الى كاوه بشيء من الغضب الخفيف مُتمتماً:

- في الأماسي القادمة لا تُسقط السلم.. لقد أنهكتني.. كادت رقبتي أن تُكسر..

أراد كاوه أن يُجيبه بشيء.. لكنه لم يفعل.. تولاه

الخجل.. فطن لماذا كانت خطوات العم عولا الضعيف البصر أشبه ما تكون بخطوات لص.. كانت الموسيقى الجليلة للطبيعة تثيره.. وقف كاوه والعم عولا معاً تحت الايوان واجمين يلفهما البرد والظلام.. ينتظران صرخة مولود تختلط بانهمار المطر ودوي الريح ووميض البرق وفرحة ما بعد تبدد الخوف.. تركهما الانتظار ساكنين حائرين هامدين..

رفع العم عولا نظره الى السماء.. ثم انحنى بوجهه وشاربه المبتلين على قامة كاوه القصيرة.. ومرّ بيد باردة مرتعشة، لكن رحيمة وودودة وأبوية، على رأسه، وقال:

- لا تخف مرة أخرى..

- لكن..

- ليس ثمة "لكن" أو غيرها.. أقول لك لا تخف..

بعد فترة صمت قصيرة، مدّ يده الى جيبه وأخرج علبتي السكائر والكبريت.. أشعل سيكارة وسأل كاوه:

- إذا كان ولداً فأي اسم تُحب أن يُطلق عليه؟

تطلع كاوه الى السماء اللانهائية بأقصى ما تبلغه عيناه.. كانت تبدو حتى ذلك الوقت مظلمة حالكة، والمطر يهطل بغزارة موصلاً السماء بالأرض.. أجاب كاوه:

- إذا كان ولداً، فليكن اسمه (باران) (*)..!

مكث الاثنان يُصيخان السمع لصرخة ما.. ينتظران ولادة (باران)..!!

أوائل 1976

* باران: تعني بالكردية (مطر).
مجموعة "الوحشية"

ما وراء الباب الحديدي

(إن كل تاريخ الإنسانية قد بدأ بالجوع والحب..)

بوذا

ترجمة: فائز يونس

في بعض الأماسي، تشعر بغبطة لا حدود لها، كغبطة أرض قاحلة تحت المطر.. كأول رفرفة لعصفور.. وكمثل فراشة، تُنعش رفرفتك نسمة عليلة، فتنطلق مُسرعاً.. تخشى أن تنسلخ نهائياً – مثل غشاء رقيق – عن قشرة الأرض، أو تُضحي طائراً يحلّق بعيداً في السماء، وتغدو رمزاً أبدياً لهذه الغبطة المفاجئة المنبعثة بدون أوانها.. تروح تُشكّل خميرة حزن ما.. أو تُشكّلك هي.. فتتذكر المآسي الكبيرة.. وبعض ذكريات الطفولة المريرة.. وجه أبيك الصارم الغاضب.. بعض تلك الفواجع التي حفرت قلبك.. تلك الحروب والمجاعات والفيضانات التي طالعتها في صفحات التاريخ.. ليست بينك وبين الفرح والغبطة أواصر وثيقة.. ان غبطة لا تدوم طويلاً كهذه تُخيفك.. وفي مثل هذا الوقت تستطيع

أن تكون ملاكاً أو شيطاناً.. هكذا أنت.. تجتاحك قوى خفية خارقة..!

هذا المساء، كان بحر من النقمة يصطخب في أعماقك رغم الهدوء البادي على وجهك.. لذلك كنت تغطس في أعماقك.. تحفز سمكات غبطتك الصغيرة على الغوص في أعماق البحر لئلا تجرفها الأمواج المتلاطمة الى رمال الشاطئ.. كنت تكره في مثل هذا الوقت أن يختلط حابل الأشياء بنابلها..

ها هو قرص الشمس يودع البشر والشوارع والبيوت.. والظلام الخفيف المشرّب بالحمرة يلف كل شيء.. بالنسبة لك، كانت الوجوه الجميلة والدميمة التي تطفح بالابتسامات أو تغرق في الهم انما تعبّر عن عظمتها وسموها.. وكانت الدنيا تتراءى لك كفتاة غافية في ضوء القمر يمكن تقبيلها بسهولة..!

هذا المساء غمرتك تلك الغبطة المباغتة المفاجئة التي لا تعرف بالضبط سبباً لها.. أتكون ناجمة عن توجهك هذا المساء للقاء امرأة؟ امرأة كنتَ فيما مضى تهواها.. وكانت هي – على ما حَسِبْتَ – تهواك أيضاً.. لكنها كانت تعتبرك أحياناً صبياً غرّاً.. بينما كنتَ تعتبر نفسك رجلاً، لا يخامرك شك في ذلك.. كنتَ آنذاك قد أطلقتَ لتوك شاربين جميلين، وكان صوتك قد صار أجش رجولياً، وحنجرتك ككرة صغيرة، ودماؤك تفور حارة في عروقك.. وفي الليالي كانت أحلامك تضج بالفتيات الغجريات.. كنتَ تحفظ قصص حب كثيرة وتظن أنك تستطيع بواسطتها أن تأسر قلب فتاة ساذجة ما.. لكن المرأة التي ستذهب للقائها هذا المساء، استطاعت أن

تقذف بك تحت ثقل جبلٍ شاهق من الحزن.. هزأت بأحاسيسك ومشاعرك وأحلامك وأمانيك.. بماضيك ومستقبلك.. بوجودك نفسه.. وتوالت الأيام.. وهذا المساء يلوح لك أن كل ما سيحدث سيكون لابد لصالحك..!

الوقت مساء.. وها أنت تبلغ باب قصر تلك الحبيبة القديمة.. استحال دماغك ميداناً لحروب طروادة.. زعمتَ لنفسك أن هذا هو عنوانها.. وحتى بدون أن تتيقن من العنوان كنتَ تشم رائحتها هنا.. ان ذكريات ورغبات وآمالاً كثيرة لَيُمكن نسيانها.. لكن هذه.. كلا، لا تُنسى.. ومع كل الرهبة التي تعتريك عندما تقف أمام باب حديدي كبير ذي ثلاثة مصاريع، فان تلك الغبطة لم تفارقك.. لكن لا.. فانتم شبان الأحياء الفقيرة يتلبسكم الخوف حينما تقفون أمام الأبواب الكبيرة.. إن الغرف الكبيرة الرحيبة المتفوحة عطراً والزاهية ألواناً، والستائر المطرزة بالورود، والحدائق والجنائن الخضراء الغنّاء، والكراسي والأرائك الوثيرة، والمزهريات والتحف، وحمام البانيو، والشرف الظليلة، واشياء أخرى كثيرة، كلها تنطق بالترفع والأبهة والاتكيت.. ولا يعود يبقى في منازلهم ركن أو نافذة أو زاوية تُعاني العُري أو الفراغ.. حتى قططهم وكلابهم لها هوياتها وبطاقاتها الشخصية.. وأنتَ – مثلك مثل أي شاب من حيّكم العتيق المعتم – تربيتَ وترعرعتَ في بيت مُسَوَّر بالتعاسة والبؤس والشقاء، مثقل بعذابات سنين الطفولة الطويلة وبصور قاتمة لعدة فتيات تخلّين عنك قبل بلوغ مرتفع وعر.. ذلك ليس مهماً.. وضعتَ سبابتك على زر الجرس.. لكنك لم تضغط عليه.. كنت أقوى من سحر تلك الغبطة وأسمى..

وقفت ساكناً وغرقتَ في التأمل:

"لقائي هذا – سواء أكان كئيباً غير متوقع أم مأساوياً عنيفاً – فانه سيكون حتماً غير عادي.. سيكون مفاجئاً وصاعقاً لها.. عَبْرَ كل تلك السنين تغيّرتْ في أشياء كثيرة.. ربما لن أكون مُتنبهاً لنفسي.. هي ستكون متنبهة أكثر.. فيما مضى كنتُ أقول لها:

- أنتِ مرآتي..

فكانت تضحك مُقهقهةً.. ومع كل قهقهة كان يسقط رأسها وشعرها الى الخلف فيتكشّف ما تحت جيدها.. تفتنني وتربكني أكثر حينما تعلّق قائلة:

- إحذر، لئلا يُصيبني الصدأ يوماً ما..!

لا أكاد أبلغ غرفتها حتى تبدأ بالتساؤلات وكرز الأحاديث الناعمة.. تلك الأحاديث التي كانت تميتني في سنوات الصبا.. لكن الحال اختلف الآن عما كان عليه وقتذاك.. خلال هذه السنين عركتني رياح عواصف وزوابع أكثر جنوناً.. هطلت عليّ أمطار شتاءات عديدة بغزارة.. هي الأخرى لم تبقَ كما كانت.. صارت أكثر فطنة وأقدر على قراءتي.. أنا امتلكتُ أسلحة وأعتدة جديدة كثيرة.. خضتُ معارك أعنف.. انني الآن شخص آخر في نظر العوانس والنساء والأرامل وفتيات هذا الزمن الحمقاوات.. لم أعد الفتى نفسه الذي كُنته في السابق.. على الأقل انني ارتقيتُ درجة واحدة في سلّم الحياة.. والارتقاء هو الشيء المهم في نظر النساء.. انهن لا ينظرن الى من كان دونهن منزلة أو مرتبة.. تباً لهن من حمقاوات جاهلات..! لابد إذن أن يكون عراكنا اليوم دموياً.. رغم انني لا أفكر في الانتقام.. غير اني لا

أستطيع.. هي تَحسبُ نفسها امرأة فطنة، وتحاول – مثل أمها – أن تقذف به كآدم الى جحيم هذه الأرض.. مازلتُ أتذكر كيف تزوجتْ من ذلك البليد.. بِمَ كان يتفوق عليّ؟ بالأراضي والأطيان، بالحقول والبساتين، بالراتب، بالشارع، بالبيت، بصف الدكاكين والسينما، بالسيارة؟ لا اعرف بالضبط.. لكنه كان ميسوراً جداً.. وأنا؟ لا شيء.. الآن يجب أن أهجر عالم العقل والتضحية والتسامح.. عندما هجرتْني هي، حكمتْ عليّ بالتحطيم.. لم تعرف كم من الليالي حلمتُ بها، وكم بكيتُ من أجلها تحت لحافي الرث دون علم أحد.. ذلك اننا شرقيون.. رجال النحيب والتحسر والسهر خلف الجدران السميكة.. رجال التحطم والانهيار والاحتراق.. هذه المرة سأفكر بمنطق الدم واللحم والحقد والانتقام.. انها قصة طويلة لا يسعني سردها بالتفصيل.. لكن من ذا الذي يرجع آيباً في طريق شاق أنهكه أول سفر فيه؟ ان ذكرى هذه الأشياء لَتُضنيني وتمسخ صور مئات النساء في قلبي وتُحيلهن في مرآة روحي الى مخلوقات بشعة.. لقد جاءت عبر نفقٍ مظلم لتُدمر روحي.. يجب ألاّ أنسى.. أَنّى لي أن أنسى آخر مرة رأيتها؟ كانت جالسة قبالتي وجهاً لوجه، يفصلني عنها متر واحد فقط.. كُنا نجلس على كرسيين متقابلين تحت سماء مساءٍ متأخر في بيتها الوضيع.. كنتُ أرقبُها جيداً وهي تعبث بالخاتم الذهبي الذي يطوق اصبعها.. الاصبع الذي طالما تشهيتُ أن اقضمه كقطعة سكر.. كان شعاع الضوء يصب لعنته على ذاك الخاتم فينعكس بريقاً حاداً يخترق عينيّ..

أغمضتُهما.. أطبقتُ أجفاني على ذلك البريق والألم والكمد.. همد جسدي في مكانه كقطة جائعة قانطة، ولم تَرتَضِ أجفاني الفكاك من بعضها وكأني بها قد أطبقتْ على صورتها الجميلة.. كانت هي تنظر إليّ باسمة الثغر.. تتفرّس فيّ بدلال وتفنج دون أن تهيب.. يا له من جور.. أغلب الأماسي تذكرني بذلك المساء البعيد.. أي شيء أمَرّ وأتعس من ذلك؟ مِنْ أن ينعوا إليك موت حبك وانهيار معبد عشقك.. أعذب عشق.. هي التي هدّمته عامدة متعمدة.. سأسألها.. سأستفسر منها عن سبب ذلك الانقلاب الفجائي.. عن دافع تلك الثورة الحمراء.. أية امرأة تستطيع أن تُضمر كل ذاك الحقد المشوب بالهزء؟ سأبدو أمامها بهيئة اللامبالي.. سأحدثها عن الفتيات اللواتي وقعن في غرامي من بعدها.. سأجعلها تفهم انني لستُ الفتى الذي كُنتُه قبلاً.. سأحدثها عن نفسي كما أتحدث عن عاصمة كبيرة رائعة.. عن مصيف خلاّب آسر يقوم في سفح جبل.. أو بحر واسع الأبعاد سحيق الأعماق.. أو شيء لا حدود له ولا نهايات.. بألف لون والف صوت.. سأجنّد من أجل ذلك كل قواي.. الظاهر منها والخفي.. ينبغي أن أكون قوياً متسلطاً إزاءها، سواء بشكل ملائكي أو شيطاني، كما كانت هي قوية متسلطة ازائي طوال السنين العديدة الماضية.. سأضحك وأهزأ بكل أشيائها التي امتلكتها والتي ستمتلكها.. سأستعين في مجابهتي لها بكل الفلسفة والعلم البشريين.. يجب أن تشعر بالخجل والندم.. في أول ربع ساعة سأجعل الحيرة والذهول يصيبانها بالدوار.. سأجعلها تبكي وتنوح.. سأدفعها الى أن تنهار كما ينهار جبل شاهق متصدع".

تطلعتَ ناحية الغروب.. أحسستَ أن بينك وبين الشمس ألفة عميقة قديمة رغم أنها تبعد عنك آلاف آلاف الأميال.. بقدر عمق وقِدَم الألفة بينك وبين هذه الأرض.. كانت بعض قطع السحب الوردية والبرتقالية قد تجمدت حولها فاتخذت منظراً غريباً بدا لعينيك وكأنه مشهد تؤلفه عدة طيور ومخلوقات جبلية وأليفة.. كانت كل الأشياء الحية والجامدة تنطق بالسحر وتُضاعف من قواك المُبَيَّتة على الانتقام.. وكانت الدنيا إطاراً ذهبياً لغبطتك الخضراء.. تلفَّتَّ يمنة ويسرة.. كان الحي غارقاً في بحر من الهدوء.. تذكرتَ حيّكم القذر الوضيع الضاج بالفوضى والأطفال العراة الناحلين في أزقته الموحلة.. تصورتَ – وأنتَ في حيّ كهذا – أن الأثرياء لا أطفال لهم.. أو أنهم يولدون كباراً..! الشارع والرصيف أمام المنازل خاليان.. الصمتُ والسكون المحيطان بك جعلاك أنتَ الآخر ساكناً بلا حراك.. إذن، فقد تبيّن لك الآن فقط أنك عشتَ ما لا عَدَّ له من السنين في مقبرة.. مقبرة كان الموتى فيها متيقظون دوماً ولا يكفون عن التخاصم.. لابد أن تفعل شيئاً من أجلهم.. لكنك كنتَ تحمل على كاهلك منذ سنوات جثماناً ثقيلاً لعشقٍ لم تُواريه التراب.. رثيتَ لحالك ولحال الشبان الفقراء.. وفي هذه اللحظة تمنيتَ لو يظهر شخص ما، أي شخص، لتسأله:

- لماذا لا نحيا؟ من المسؤول؟ الله.. الشيطان.. الوحوش.. قطاع الطرق.. الشرطة.. الأثرياء.. الكلاب السائبة؟ من هو المسؤول؟

لكن لم يظهر أحد.. لم تجد أحداً تضحك في حضرته أو تبكي.. تُعاركه أو تلعنه.. لا تتغابى.. أنتَ تعرف جيداً

من هو المسؤول..!

تعجّلتَ الضغط على زر الجرس خشية أن تنطفئ نار فرحتك.. ماذا ستفعل لو خمد البركان المتفجر من داخلك؟ ماذا ستفعل لو داهمك مجدداً الحزن الأبدي القاتل؟ وإذا ما فارقتك قدرتك على الانتقام؟ كلا.. يجب أن تكون (هاملت) منتصراً.. تذكرتَ انتقامات أبطال المسرحيات والروايات.. وأنتَ وهذه المرأة الجائرة ستؤديان معاً هذا المساء إحدى المسرحيات.. لذلك فقد اغتسلتَ جيداً وضمّخت نفسك بقليل من العطر وفرَقْتَ شعرك من وسطه.. ولكي تكون جذاباً أكثر، فقد تركتَ خصلة منه تنسدل على جبينك قرب الحاجب الأيسر.. انك تتمتع ببعض الأناقة والجاذبية.. كثيراً ما سمعتَ الفتيات يَقُلْنَ عنك أنك وسيم.. لكنك مازلت ترتدي ثيابك القديمة.. وهذا أفضل.. لكي تعتقد هي أنك لم تُعِر هذا اللقاء أهمية كبيرة.. العظمة والتفوق يكمنان في اللامبالاة.. والعيش بلا مبالاة يقتل المرأة كمداً.. هذه أيضاً إحدى فلسفاتك الفارغة.. وأنت تحترم كل فلسفاتك.. كنتَ كلما أسكر الحب رفاقك تقول لهم:

"كونوا أنتم باردين، سيكنّ حارات.. كونوا جافين، وسيكنّ هنّ دمثات.. وإذا ما هجرنكن فاضحكوا، وستنطفئ ابتسامات انتصارهن.. سيَذُبن.. إياكم والبكاء.. لو سكبتم بحراً من الدموع، فسيُجرن هُنّ فيه على قوارب رغباتهن الجديدة.. سيركبنه ويصلْن عبْره الى حيث عشاقهن الجدد".

ولا تكاد تكمل هذه المحاضرة القصيرة حتى يفقعك كل منهم بعفطة ملء فمه..! أنتَ تفهمهن جيداً وتعرف

معدنهن وعنصرهن.. ولكن حذار.. إن رعشة إنسانية ورجولية نبيلة توشك أن تستولي عليك.. وها هو محرار قواك الشيطانية يكاد يؤشر انخفاضاً.. لماذا لا تفكر وتعمل لمرة واحدة كما يفكر ويعمل جميع الناس؟ لماذا لا ينبعث لمرة واحدة فقط قانون حمورابي: العين بالعين والسن بالسن؟

مازالت سبابتك على زر الجرس.. وقبل أن تضغط عليه تمنيت بكل أحاسيسك وجوارحك أن تجوب الغرف، وتلهفتَ لمعرفة ما يدور داخل هذه القلعة:

"هل هي لوحدها؟ أم زوجها أيضاً في البيت؟ لا ينبغي أن يكون هناك.. إنه من أكبر أصحاب المشاريع الضخمة.. تلك المشاريع التي تستلزم مَسْك دفاتر كثيرة مزدحمة بالأرقام والأعداد الكبيرة.. أرقام.. أرقام فوق أرقام.. وأعداد بجانب أعداد.. وجمع وتقسيم وتحصيل.. أرقام.. أرقام.. أرقام.. كم كنتُ كسولاً وضعيفاً في الأرقام والحساب وقتما كنتُ تلميذاً في الابتدائية.. عشرات المرات كنتُ أتبول في بنطالي – خوفاً وهلعاً من الأستاذ – وأبلل ساقي وقدمي وحتى حذائي المطاطي، والصبيان النزقون يضحكون مني، بينما أروح – وأنا لا حول لي ولا قوة – أبكي من الخجل بعيني وقلبي.. فكيف يمكنني أن أصبح تاجراً كبيراً أو مقاولاً؟ رجال الأعمال وأرباب المشاريع أولئك يرغبون الأرقام الكبيرة، وأنا لم تربطني – منذ طفولتي – بالأرقام والأعداد أية صداقة.. وأمي التعيسة ماتزال حتى اليوم تقول عن الأربعين: "مرتين عشرين!".. يبدو أنني قد ورثت عن أمي وأبي الضعف إزاء الأرقام والكسل في

الحساب كما ورثتُ عنهما ضعف الجسد وهزاله.. لكن لا.. هذه الأمور لا تجعلني أنهار.. انها الآن لوحدها.. فزوجها يلهث الساعة وراء مشاريعه.. إذا كانت لوحدها فان عراكنا سيطيب أكثر.. أيمكن انها لم تُنجب طفلاً ما خلال هذه السنين الأربع؟".

رفعتَ رأسكَ.. ذهلتَ لطول وعرض وسُحْق القصر.. كيف لا تحوله الجهات المسؤولة الى مستشفى؟ أو الى ملجأ لأيتام المدينة الكثيرين؟ الى مطعم أو مصحة عقلية؟ أهذا القصر المنيف لشخصين فقط؟ عندما تعود متأخراً في بعض الليالي كنتَ تشاهد على البُعد مثل هذه القصور التي لا تُضاء فيها سوى غرفة أو غرفتين.. لكنكم أنتم أبناء العائلات الفقيرة تعودتم على السكن في بيوت لا تتكون من أكثر من غرفة واحدة.. واعتدتم أصوات الجلبة والضجيج والتنفس والبصاق والسب والشتم والتعرق ودخان السكائر الكثيف وهدهدة الأم الحزينة لرضيعها وجلبة الموقد النفطي وضوضاء الأغاني المنبثقة من المذياع.. لذلك فان لكم الحق أن تخافوا وتتهيبوا عندما تقفون أمام قصور كهذه.. ترى كيف سيكون لقاء يتم بعد أربع سنوات من العذاب والأحزان والجراح؟ لكن ما هو ألذ من ذلك، وما يبعث النشوة في عروقك هو انها هي التي رغبتْ في هذا اللقاء.. هي التي سعت إليه.. كنتَ طوال السنة المنصرمة تُدرك انها تود رؤيتك.. كل أولئك العارفين بخفايا قصتك ومأساة حبك أبلغوك بذلك وأحاطوك علماً بانها متلهفة.. ما الذي تبغيه؟ رفعتْ البرقع عن وجهها أخيراً.. وها هو اليوم الذي كنتَ تحلم بحلوله قد حلّ.. يجوز انها تحتضر..

المرأة لا تطلبك إلاّ حينما تكون على فراش الموت.. أخبروك أن اسمك صار كقطعة سكر تقضمها أينما حلّت.. تسأل عنك وتتسقّط أخبارك، كعاشقة مولهة بمُغنٍ حزين تلهث وراء آخر نبأ، آخر أغنية، آخر حكاية.. انتابك هيجان وجيشان أكثر من اللازم قليلاً.. تبدو مرتبكاً، وعدة قطرات من العرق تلتمع على أنفك.. امسحها.. استجمع نفسك.. وفكر بهدوءٍ وتروّ.. لئلا يعود المغزول فيصبح صوفاً.. بعد أن تضغط باصبعك على الجرس، ستُقبِل هي بعد عدة لحظات من الانتظار.. يا للروعة حين تأتي وهي تسأل بصوتها الرخيم: "من هناك؟".. لن تُجيبها كي يكون اللقاء مفاجئاً.. وعندما تعرف أنك أنتَ، ستفتح لك بغنج ودلال، وجسدها الغض البض يتماوج، بينما ينبض ردفاها الممتلئان وصدرها باهتزازات خفيفة.. هكذا كانت فيما مضى.. تجيء متبخترة كطاووس وهي ترتدي ثوباً شفافاً أحمر أو أصفر أو أخضر.. لا تدري.. لكنها وقتذاك كانت تفضل اللون الأخضر.. إنه ربيعي ومنعش هذا المساء، والأخضر لون آسر.. ربما تفوح منها أيضاً رائحة الصابون والحمام.. تلك الرائحة التي تحبها أنتَ.. كم هو رائع اللقاء بين شاب غجري وملكة قصر فخم مثل هذا.. إنه لأشبه ما يكون بحلم أو أسطورة.. ورغماً عنك راحت آلاف الأسئلة الصغيرة تراودك:

"لماذا لم تَنْسني وهي التي ترفل بكل هذا النعيم وتعيش في هذه الجنة التي تحلم بها كل فتاة؟ لماذا لا تنسى شخصاً مُعدماً غجرياً مثلي؟ كيف تنسى؟ أنا الذي..... لكن لا.. لأبقَ متكتماً على هذا السر.. إنني أنا

الآخر مجنون عظيم.. مَنْ مثلي يستطيع اليوم – في أي ركن من الدنيا – أن يحيا على ذكرى عشق مات وانقضى؟ كم ألفٍ من الليالي انقضى دون أن تتذكرني في جحيم قبلاتها؟ آهٍ منكِ يا امرأة؟ ما أن تستلقي مع رجل ما حتى تنسي كل شيء آخر.. كيف استطعتِ أن تعبري على جثماني؟ أنْ تضعي ذراعك تحت رأس رجل آخر؟ حينما كنتُ أنا أموت ببطء، كنت أنتِ تمسحين عرق رقصاتك.. كل ذلك مضى وانتهى.. لكن الليلة ينبغي أن أكون ممثلاً فذاً.. بطلاً متعطشاً للانتقام.. لو جعلتِ جلدكِ الأبيض خيمة شَعْر، فسأطلق عليه عواصفي.. لو صرتِ أرضاً قاحلة مجدبة، فلن أمطر.. لو غَدتْ عيونكِ أجراس كنيسة تدق لآلاف السنين، فلن أُيمم وجهي شطرها حتى ولو كنتُ عيسى نفسه..! لن أركع أمام تمثال قامتك أبداً.. بل أشمئز من جسدك الذي تعبدينه وتدهنينه وتصقلينه من كل زغب وتتطلعين إليه بلذة واعجاب في المرايا الدائرية.. كلا، لن تُثيريننني.. سأحرق في جسدي أدق عرق للفحولة.. لن أتجول أبداً في دروب وطرقات وزوايا وثقوب جسدك.. سأجعلك تحترقين كشمعة متروكة في آخرة الليل فوق قبر أحد الأولياء.. ربما تعتقدين انك قادرة على أسري بشعرة واحدة من شعر رأسكِ.. كلا، مطلقاً.. فلأسرع إذن.. فلأضغط على الجرس، وليُزلزل رنينه غرف القصر.. لو تعرفْ انني أنا الطارق فستطير فرحاً.. لو تعرف، فسيردد قلبها أصداء الرنين"..

بهدوء، ضغطتَ على زر الجرس مرة ومرتين وثلاث مرات وأربع.. كنتَ تنتظر بشوق ولهفة.. تنتظر

تلـك اللحظـة الطافحـة بالبهجـة والخشـية.. سـتُرفع الآن سـتارة المسـرح وتبـدأ المسـرحية.. انتظـرتَ فتـرة طويلـة دون أن يصدر صوت ما.. شممتَ رائحـة مقبرة.. إلتفتَّ وراءك حيـث أحسسـتَ بحركـة مـا.. كـان رجـلاً بـديناً يتدحرج على بلاط الشـارع.. حدّق فيك شَزراً ثم مضـى مبتعداً.. ضغطتَ باصبعك على زر الجرس لفترة أطول هذه المرة دون أن ترفعه فراح يرن بدون انقطـاع.. وبعد عدة ثوانٍ من الانتظـار، التقطتْ أذنـاك صـوت خشخشـة نعـال.. كـان هنـاك شـخص مـا يجـر نعاليـه خلفـه بمشـقة.. وكان يبدو أن بينكما آلاف الأميال.. بلغ الشخص ما وراء البـاب دون أن يـرف لـك جفـن.. انفـتح شـق فـي البـاب الحديدي الكبير ولمحتَ خلالـه وجهاً مـا.. لم يكن الوجـه الذي تعرفـه منـذ سنين بعيدة.. كـان وجهاً دميماً متجعداً متغضناً.. وجه امرأة عجوز ذكّرك بالساحرات العجـائز فـي مسـرحيات شكسـبير.. كـان مخيفـاً ومنفـراً.. هربـت الـدماء مـن وجهـك.. حـدّقتْ فيـك بصـمت وامتعـاض مـن خـلال عينهـا المنطفئتـين.. وبـدافع الخـوف عجّلـتَ بإلقـاء سؤالك:

- أهذا بيت السيدة (نسرين) أيتها الجدة؟

ثم أردفتَ من خلال ضحكة خرقاء:

- انني لا أعرف اسم زوجها..

كنتً تعرف.. لكنكَ تعمدتَ التجاهل أمامهـا.. أجابتكَ والغضب بادٍ عليها:

- كلا..

- كيف؟ أنا أعتقد أن هذا هو بيتها..

- قلتُ لك: ليس هو..

- لكنهم قالوا..... .

قطعتْ العجوز جملتك وقالت لك بلهجة غاضبة أكثر من سابقتها:

- ها.. هوو.. أحزورة هي؟ ألا تعلم يا هذا أن نسرين خاتون تُبدل قصراً بقصر كما تُبدّل ملابسها الداخلية؟!

صفقت الباب بعنف في وجهك.. صُعقتَ لصوت اصطفاق الباب.. كانت ما تزال تدمدم وترغي من وراء الباب.. اندهشتَ لعبارتها الأخيرة.. لعبارة كهذه تخرج مباشرة صريحة قاطعة من فم أدرد كذلك.. عُدتَ أدراجك خائباً كسيراً، تخطو بتثاقل، وكأنك تحمل فوق كتفيك جثماناً ما.. كانت السماء تخلع لونها البرتقالي وتتلبَّس السواد.. كل شيء تغير كما تتغير الطبيعة بعد عاصفة هوجاء.. قطعتَ الشارع الساكن، وصرتَ على الشارع الرئيسي.. وآخر ما كنتَ تفكر فيه هو:

"يجب أن يحل يوم تُصبح فيه جميع الخرائب قصوراً.. وإلاّ فان كل القصور ستُمسي خرائباً!!".

أواخر 1979

من مجموعة "الوحشة"

الأرملة

ترجمة: فائز يونس

في هذا الصباح الصيفي الباكر الفيّاض بالحلم واللذة حيث تتلاشى الظلمة، خرجتْ من تحت لحافها القطني الخفيف وانتصبتْ واقفة تُعدّل من طيات ثوبها.. مدّتْ يدها وشدّت حزام سروالها المرتخي.. كان جسدها متيبساً عطشاً كصحراء لم تنعم بالمطر على مدى خمسين عاماً فات وانقضى سوى لعام واحد.. الأيام والسنين تمر وتمضي وهي على حالها.. صحراء عطشى.. ليس هناك من صحراء شاسعة مترامية الأطراف تُخفس عطشها.. إنها إذّاك تتشقق.. تتفجر.. تُضلّل العابرين المتعبين وتهلكهم.. وإذا غضبتْ، فان رياحها العاتية تهبّ شرقاً وغرباً.. تملأ المدن والقرى والبلاد القريبة والبعيدة رملاً وغباراً وعجاجاً.. لكن هذه الأرملة صحراء قاحلة وهامدة.. ثلاثون سنة ممطرة مرت وهي تدفن عطشها في داخلها.. عطشها لأمطار مئات السنين.. لأنّ أهل قريتها ووجهاءها منعوها، والحياء والحشمة صداها..

آنـذاك كانـت أحشـاؤها تنـام علـى جنـين.. اجتمـع أعمـام الجنـين وأخوالـه وزوجـاتهم وأخـواتهم وأبنـاء أخـوالهم وخـالاتهم وأعمـامهم: "لا يمكـن أن تتـزوج ثانيـة، إنـه لَعـار!!".. مـن كـان يحسـب أنـه سـيموت مبكـراً هكـذا؟ أحبتـه.. تزوجت منـه.. ولـم تكد تـدور سنة واحدة حتـى وافتـه المنيـة.. أرملـة ووحـدة وطفـل رضـيع.. تتـوالى نهاراتهـا ولياليهـا.. حانـتْ منهـا التفاتـة الـى الناحيـة اليسرى.. نظرت الى عرزال القصب.. من كـان يصدق أن هذا الصغير الذي سهرتْ عليه ليل نهار، في القرية والمدينـة، وحملتـه علـى صدرها وظهرهـا، يقضـي الآن الشهر الأول لزواجه وينام الى جانب امرأة حسناء؟؟

دارت بوجهها صوب المشرق.. كـان الضباب وظلمـة الليـل والجبـال والهضـاب البعيـدة تغطيـه وتحجبـه.. كـان المنـزل يقـوم علـى تلـة، وتسـتطيع أن تتطلـع مـن علـى سـطحه الـى عشـرات الباحـات والأفنيـة القريبـة ومئـات السـطوح البعيـدة.. كانـت قامتهـا الفارعـة تُسـاعدها علـى تبين الأشياء أكثر.. وهذا الصباح رغبتْ أن تتطلع للمرة الأولـى الـى السـطوح والباحـات.. أصـلحتْ مـن هنـدام ثوبهـا، ومدّت يدها تُحكم شدّ حزام سروالها أكثر.. إنـه موعد صلاة الفجر، وقد كـان يجب عليهـا – مثلمـا كانـت الحال في آلاف الأيام الأخرى الماضية – أن تهبط الدرج وتكون في الأسفل لتتوضـأ من مـاء البرميل.. لكن الحلم المخجل الذي راودها الليلـة الماضية في فراشها حرمها مـن الصـلاة..! فـي الصباحات تكـون الباحـة والحجـرات سـاكنة بـاردة موحشـة.. وفـي كـل صـباح تفتـرش سـجادة صلاتها مقابل صورتين.. صورتي أب وابن، كلاهما في

سن الشباب، تتشابه ملامح وقسمات وجهيهما.. كانت صورة الأب مصفرة اللون، تبدو عليها علائم الموت.. متشققة في عدة مواضع.. لم تُغير زجاجها خوف أن تنسحق مثلما انسحقت عظام صاحبها الميت!! أغلب الصباحات كانت تنظر – وهي على سجادة الصلاة – الى الصورة المصفرة باكية مُتمتمة بلوعة: "لقد تركتني باكراً!".. وكانت بعض الصباحات تُنزلها من على الحائط.. تحدق إليها.. تُقبلها.. ثم تنخرط في البكاء حتى يشفى غليلها.. بعدها تمسح عينيها وتُعيد تعليق الصورة على الحائط..

في هذا الصباح الباكر كانت – وهي بين الضباب والظلام الخفيف وثوبها النيلي الداكن – تبدو للناظر إليها من بعيد وكأنها لوحة سوداء.. أكثر الأرامل مجللات بالسواد.. وهي أيضاً كذلك.. جللها السواد ثلاثين عاماً.. حتى في حفل عرس ابنها الوحيد.. لم يطلب إليها أحد أو شخص أو جار أو قريب أو شيخ أو عجوز أو صبي أو صبية أن تغيّر ثيابها السود.. حتى ولدها الذي هرست من أجله لحم جسدها الغض وطافت القرية والمدينة واشتغلت في هذا البيت وذاك وغسلت الملابس وعملت خبازة.. كان له خمسة أعوام عندما حملته على كتفها وتركت القرية هرباً من ظلم أعمامه وأخواله.. توارت في المدينة المكتظة بالعقلاء والمجانين.. كانت تواجه أولئك الرجال الذين تجري في عروقهم دماء الجواميس.. تلوذ بهذا الجحر وذاك الركن.. وهم يتتبعون آثارها.. كان مقتلها يلوح لناظريها جلياً.. لكن تلك الأيام المرعبة قد ولّت.. إن ابنها الراقد في عرزال القصب هذا لَقادر على طرد

كل رعب وخشية..

أدارت رقبتها في كل الاتجاهات.. شاهدت مرة أخرى سطوحاً كثيرة.. قصوراً.. بيوتاً متواضعة.. بيوتاً طينية.. وأخرى متوسطة الحال.. وصفوفاً كثيرة من الملابس المعلقة على الحبال.. كثيراً من أعمدة التلفزيون.. أسرة.. ستائر وغلالات لا تُحصى، حمر وبيض وصفر.. مازال الوقت باكراً والناس في رقاد لذيذ.. والغلالات مسدلة أطرافها الأربعة.. والنوم، زوجين، زوجين، لا يستدعي النهوض باكراً.. كانت أجساد الأطفال الناعمة الغضة ملتصقة ببعضها.. هناك بعض السطوح خالية، وبعضها الآخر مزدحم.. بعضها بدون سور والبعض الآخر مُسَوَّر.. بعضها عالية الأسوار وبعضها واطئة.. عرازيل القصب في هذا الحي أكثر من الغلالات.. كل شيء في الصيف يكون شبه عارٍ.. يتوق الى الطراوة ضائقاً مُتبرّماً بالجفاف في داخله.. الإنسان.. والطائر.. والشجرة.. وهي مغتمة لهذه الشجرة العجوز الممتدة جذورها في أعماق تربة جافة محترقة ظامئة الى قطرة ماء.. والشجرة العجوز العطشى لا تُنبِت براعماً.. كل شيء يتغير.. ظهرت أعمدة التلفزيون الكهربائية بدل أعمدة المذياع القديمة الخشبية.. الطعام.. النوم.. الملابس.. الوجوه.. تسريح الشعر.. السطوح.. الشوارع.. النساء.. الرجال.. الأسماء.. كل هذه الأشياء تغيرت وستتغير وتتلون دائماً.. لكنها هي انتهت وفات أوانها.. وكطفل يسحب خيط طيارته الورقية الضائعة، عادت نظرتها الهائمة في الجبال البعيدة تنسحب على الجبال القريبة والسطوح البعيدة فالقريبة ثم الأقرب حتى

استقرت على سطح منزلها.. السطح الذي نامت فوقه وتحته لوحدها سنين كثيرة.. لم يسترع انتباهها شيء ما فيه.. سطح عارٍ خالٍ إلاّ من عرزال القصب ذاك.. وعندما حانت منها نظرة أخرى الى العرزال، انتابتها رعشة وخزت أعماقها.. لم يكن المشهد طبيعياً.. سَرتْ في جسدها رجفة باردة ولفها الخدر من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. أحسّت بوخز جرحٍ خفي مستتر.. ارتخت ركبتاها وأخذتا بالارتجاف.. طغى عليها احساس خليط من الرهبة والخجل.. شعرت بالعرق ينضح من مسامات ظهرها.. أغمضت عينيها.. فتحتهما ثانية.. اختلست النظر الى المشهد.. كان أحد جوانب العرزال منفرجاً تغطي واجهته غلاله.. وتحت طرف الغلالة لمحتْ قدمين صغيرتين ملساءتين وقدمين كبيرتين خشنتين قد أصبحتا خارج الغلالة.. ساقان مشعرتان وساقان ملساءتان متداخلة مع بعضها وكأنها أفعى وثعبان التفا على بعضهما ملتصقين.. كانا مستلقيين باسترخاء، وسروال الزوجة مشمر حتى ركبتيها.. أرادت ايقاظهما.. لكن لا يجوز.. ليس من الانصاف إيقاظ عريسين في الشهر الأول لزواجهما.. أرادت أن تستعيد المشهد وكأنه حلم لذيل يراود شخصاً ضريراً.. الساقان المساوتان أجمل من الساقين المشعرتين وأكثر امتلاءاً.. يبدو انهما تستمدان الدماء والقوة من هاتين الأخيرتين.. قالت لنفسها:

"في السنة الأولى كنا نحن أيضاً كذلك.. تلك السنة فقط لا غير..!".

المشهد جعلها أكثر وجوماً.. حوّلت نظرها مرة أخرى

من ذلك المشهد الى المشرق.. ثم حوّلت نظرها الى السطوح والستائر والغلالات والعرازيل وأعمدة التلفزيون والأزقة والباحات.. سَرَحَتْ بفكرها في السنوات المبكرة الماضية.. صار عمرها خمسين سنة.. ماذا فعلتْ؟ ماذا تفعل؟ لقد أشعلتْ حياتها كشمعة من أجل ولدها.. الخشية والرهبة من هذه المرأة التي اختطفتْ منها ولدها جعلت الدنيا تُظلم في عينيها في هذا الوقت من الفجر.. إذن، ما الذي تنتظره بعد الآن؟ مؤخراً جاء رجال مسنون يطلبون يدها.. أيمكن بعد هذا العمر الطويل أن تخلع ملابسها السود؟ لا يمكن. تذكرت ما فعله ابنها في إحدى الأماسي.. كان قد علم أن العم **عهبه** بائع التبغ قد طلب يدها.. ليلتها هاج وماج ولم يستقر به مكان.. جرّد الرجل من كل سمعة أو اعتبار.. كان الجيران يُنصتون الى زعيقه وعويله:

"لا يأخذه خجل أو حياء.. يريد في شيخوخته أن ينقع غلَّته..!!".. ليلتها لبث الناس على السطوح واجمين مندهشين.. الذين كانوا واقفين جلسوا.. والذين كانوا جالسين نهضوا على أقدامهم.. كانت تستمع إليهم يقولون:

"مسكين والله.. إنه ظلم.. ظلم كبير هذا الذي يلحق بالرجل".

ليلتها لم تنقطع عن البكاء وندب سوء حظها.. خطر على بالها مأتم ما.. ان زوج (زيرين) قد وافته المنية هو الآخر.. الأرامل كثرن.. انها تبكي اليوم بكل جوارح قلبها.. ولِمَ لا؟ ليس سوى قطرات الدمع هذه تغسل بها همومها..

سمعت بغتةً صوت طرقات على الباب: "من تُراه

يكـون؟".. خطـت بتـؤدة.. بلغـت حافـة السـطح ومالـت برأسها الى الأسفل.. لم ترَ سوى عصابة رأسه:

- تفضل يا بني.. من؟

- هل صحا (جوامير) من نومه أيتها الجدة؟

حفرت كلمـة "جدة" عميقاً فـي قلبهـا.. وعنـدما لمحـت وجه الشخص عرفته.. انه زميل جوامير في العمل.. من الممكـن جـداً الآن أن توقظـه.. نـادت مـن وراء العـرزال القصبي بصوت مثقل بالهم والكَدَر والعَبَرات:

- جوامير.. ولدي جوامير..

جفل جوامير على صوتها ونهض من مكانـه.. تمطـى قلـيلاً وفـرك عينيـه.. كـان قـد نـام ليلتـه بملابـس العمـل الملوثـة بـالجص والطـين والتـراب.. لا يحتـاج إذن الـى تبـديل ثيابـه.. خطـا خـارج عـرزال القصـب والسـتارة.. نظرت إليه أمه وهو يتنفس منشرحة.. انفصلت السيقان عن بعضها.. حررتْ بعضها.. إنه أبغض حرية..! إنحلت عقدة سر مـا فـي سريرة الأرملـة.. انطلق جوامير يهبط الـدرج اثنتين اثنتين.. دار فـي الفنـاء مفتشـاً عـن حذائـه.. وجده.. احتذاه.. وجاءها صوته من الأسفل:

- والشاي يا أماه؟

لم تُجِب.. طأطأت برأسها خجلاً.. هذه أول مرة لا تُعد لـه الشـاي.. مـاذا كـان ذلـك الخيـال؟ متـى كانـت كـذلك؟ تلاشـى الضـباب والظـلام.. فـتح ولـدها البـاب، وأغلقـه.. كانـت مـا تـزال واقفـة واجمـة فـي مكانهـا.. العـروس لـم تـنهض بعـد.. الصـمت والوحـدة حمـلا إليهـا همـاً ثقـيلاً.. والعذاب يُثير في أرجـاء روحهـا زوابـع رمليـة.. أحسـت بألمٍ يخز أعماقها ويصعد حتى يصل بلعومها.. كانت تئن

تحت بلايا وأرزاء الأيام الحاضرة والسنين الماضية.. بصمتٍ تئن.. لم تنهض العروس بعد من نومها لكي تطرد عنها بعض هذا الصمت.. انتشرت أشعة الشمس.. وشيئاً فشيئاً راحت تطرد الظلام عن الشارع والسطح والفناء والأزقة..

كانون الثاني 1980

من مجموعة "الوحشة"

العقدة

ترجمة: فائز يونس

بهدوء، لكن بخوف، كنتَ تنتظر.. إلتقطتْ أذنك صوتاً:

- تأخر الوقت، لماذا لا تنام؟

لماذا تنام؟ الليلة يولد طفل ذو عينين حيتين مفتوحتين.. ويا لنظرته! ملأتَ صدرك بالدخان مدفوعاً بالخوف من هذا الانتظار وتلك الولادة الصامتة.. كنتَ تُشعل سيكارة إثر أخرى.. تصايحت القابلة (مَنيج) مرة أو مرتين طالبة منك أن تنام.. أية مكيدة تدبّر؟ مَنيج وزوجتك تتكتمان على أسرار كثيرة.. لكنك لن تنام حتى لو ناشدتك كل ملائكة الخير والشر في السماء وليس القابلة مَنيج وحدها.. لن تنام.. كم تحب أن تسمع صرخته الأولى.. صرخة يرتعش لها البيت مثل ورقة.. تكومتَ على نفسك أكثر.. لملمت أطراف مئزرك تحتك.. تلمستَ بيديك ما حولك مفتشاً عن عكازك.. وجدتَه وركزته في الأرض وانحنيتَ على طرفه الأعلى.. كنتَ تحس أنهم

سيصادرون منك الليلة كل ما عندك.. ويمكن كذلك أن يخطفوا ذاك الجنين من رحم أمه.. كل شيء هذه الليلة: مرآة الحائط، القابلة منيج، زوجتك، القطة السوداء، كل منهم يمكن أن يُمسي "سُعْلُوَة" ويختطف الوليد ويأخذه بعيداً.. بعيداً جداً.. الى جزيرة حافلة بالأسرار.. كما وُضع موسى عند ولادته في صندوق وأُلقي في الماء.. سيتلبّسك الخوف من أن يبتلعه حوت ما.. كما ان حظك لن يُيَسِّر له أحد الفراعنة يتبناه ويُعيله..

الوقت متأخر.. وأنت تنتظر.. كنتَ تخشى أن يسلبك النوم بهجة انتظارك هذا.. وفي الخارج تجمع غيوم سوداء داكنة في صفحة السماء تُنبئ عن نفسها ببروقها ورعودها دون أن تُمطر.. كان دويها يهز أنحاء الدنيا مُخلّفاً بين جوانحك رهبةً أكبر.. لكنها ليست أكبر من هَمّ وتعاسة هذه الولادة الصامتة غير المنتظرة هذه الليلة.. كلا، لا سمح الله.. ستقضي نحبك بذلك.. ستخمد أنفاسك كسمكة يخرجونها من الماء..

الصمت يسود الغرفة.. ليس ثمة صوت سوى استنشاق دخان السيكارة وهشهشة نعال الخالة منيج وصرخات زوجتك الفجائية التي تجعلك تُفيق.. ومع كل صرخة كانت تُرسل إليك بسيل من الشتائم، بينما أنتَ تستشعر السرور لهذا الصراخ الذي يدغدغ جوانحك ويبعث في عروقك رعشة بهيجة..!

وضعتَ رأسك فوق ركبتيك المضمومتين الى بعضهما.. أخذتَ تفكر في (العمى).. هناك عميان كثيرون خلّفوا مبصرين.. أيمكن أن يناكدك حظك؟ أية كارثة؟ أية مصيبة لو وُلد أعمى مثلك؟ كلا.. ما هذا

التفكير الكريه؟ انه ليس ناموس الله ولا ناموس الطبيعة.. لماذا تتكرر هذه المصيبة؟ رفعتَ يديك مبتهلاً، ورددت الغرفة أصداء هتافك:

- إلهي.. إلهي..؟!

أجابتك زوجتك من خلال صُراخها وأنينها بشتيمة..

ألقيتَ بعكازك جانباً.. تمنيتَ أن يكون ولداً.. لم تترك ذِكْراً حكيماً ولا ولياً صالحاً إلاّ واستعنتَ به.. الليلة يمكن أن تحمل نساء كثيرات.. وتلد أيضاً نساء كثيرات.. وتُجهض أيضاً كثيرات.. ويمكن كذلك أن يَمُتنَ الكثيرات أثناء الولادة.. لا، ليس هذا وقت الموت..! لكن ليس مهماً.. لِتَمتْ هي.. لكن الطفل؟ لا.. انه وليد غير عادي.. وليد بعينين.. سيكبر سريعاً.. وسيشاهد بتينك العينين الشجر والحجر والأرض والسماء والظلام والضياء بدلاً عنكَ.. الكبار والصغار.. الرجال الأشقياء.. الكلاب السائبة.. النساء المتهتكات.. الأزقة الضيقة.. سيشاهد كل تلك الأشياء وآلافاً آلافاً غيرها.. سيستطيع أن يكون رقيباً على زوجتك الوضيعة هذه.. منذ الآن تفكر كيف سيهتك أسرار هذه الزوجة المارقة.. سيمسك بيدك ويطوف بك الشوارع كل يوم.. سيكون عكاز يدك اليمنى وسيحدثك عن صبيان المدينة النزقين.. مرة أخرى صحتَ متلوعاً:

- إلهي، ليكن ولداً..

ردتْ عليك زوجتك من خلال آلام الطَلْق:

- ليكن أعمى مثلكَ..

أهذه امرأة أم شيطان؟ أية امرأة هذه تضيق بفلذة كبدها وتكره ميلاده؟ الناس محقون إذن.. لذلك هم يدعونك: ملا دَيّوث!!.. أيصدر هذا الكلام من قلبها أم من

وطـأة آلام الطلـق عليهـا؟ سـتُطلقُ عليـه اسـماً جمـيلاً.. ستسـأل اشخاصـاً كثيـرين: ولـد لنـا مولـود.. أي الأسـماء جميل؟ سيَجيبك هؤلاء: كثيرة هي الأسماء الجميلة.. ذات يـوم سـمعتَ اسـماً جمـيلاً.. نسـيتَه.. لقـد أصـاب العمـى ذاكرتك مثلما أصاب عينيك.. صرتَ تنسى سريعاً.. لكنك لن تنسى أبداً ان صقيع هذا الشتاء أشعل الغيرة والرجولة في عروقك.. لن تنسى أبداً..

إنقضى من الليل نصفه.. ليس من شيء جلي.. كما انك لا تجرؤ على السؤال.. لن يجيبك أحد.. منيج هامدة.. وأنتَ تنتظر بسكون.. تنتظر كتلة من اللحم شبه حية لا تلبث أن تصبح إنساناً ينظر ويرى.. تنتظر حتى يبدأ بالغأغأة والفأفأة والدبيب.. بعدها يتعلم المشي.. ثم التكلم.. يميز الأسود من الأبيض.. يلجم فيضان شكوكك ويجلب لك السكينة والطمأنينة التامتين.. آه من هذه الغربة وهذا الانتظار والشك والسكون.. هذا أيضاً يحتاج الى سنين من المكابدة والمشقة.. اللهم إلاّ إذا شدها ذلك الرضيع الى البيت.. لكنها غرة وبعيدة عن أن تكون أماً.. لقد صرت جزيرة محترقة.. لا تتوقف عن قذف جمرها ونيرانها.. الضياء يغسل الأرض وطبقات السماء السبع، ما عداكَ أنتَ.. لقد عشعش الظلام في عينيك الى الأبد.. قبل عدة سنوات كانت الدنيا دنيا أخرى.. وأنتَ بقيتَ كما أنتَ: وحيداً.. ثم تملكك الخوف.. في خريف العمر تملكك الخوف.. وأنتَ لا تستطيع التخلي عن هذه المرأة.. لكن ما أدراك انها لن تُضمر لك السوء ولن تُذيقك مُرّ العذاب والشقاء في مستقبل الأيام؟ ورغم أن مستنقع همومك تكدر أكثر، لكنك امرؤ بلا عينين.. ما الذي تقدر عليه؟

كل شخص قادر على الاساءة إلاّ الأعمى.. فهو عاجز ضعيف.. رضيع متقدم في السن.. فلتنضح دماؤك الملتهبة عرقاً في صيف الشك اللاهب.. على الأقل ستجري هذه الساقية المترقرقة في صحراء جسدك اللافحة.. هناك من هم عميان العيون.. وكثيرون عميان القلوب.. وقد كنتَ أنتَ حتى البارحة أعمى العينين والقلب معاً.. أما الآن فان دماءاً حارة تجري في شرايين قلبك المتهدم.. حَتّامَ تبقى منتظراً؟ حَتّام تبقى بدون أمل ولا غاية تتقاذفك شوارع المدينة؟ منذ طفولتك وحتى اليوم وأنت تطوف بالجوامع المكتظة بالجياع والمخبولين.. تطوف بالمقابر.. بالمآتم.. بالأرصفة.. بالأسواق التي تزدحم بالفاضل والدنيء والمعتوه.. لم تترك
مكاناً أو موضعاً إلاّ وأزعجتَ فيه الناس بصوتك الناشز.. يقول الناس ان للعميان الآخرين من ملالي المدينة أصواتاً عذبة شجية، ما عداك أنتَ.. تنق كضفدع.. يلاحقك صبيان المدينة المتسيبون.. يخطفون منك نعالك وعمامتك وعكازك.. ينتزعون نظارتيك اللتين تخفيان وراءها قيح وصديد عينيك.. وأحياناً يمطرونك بالحجارة.. هل أنتَ ملا وضيع أعمى، أم مجنون؟ لا تعرف.. يجب أن يجد
هؤلاء الناس شيئاً أو شخصاً ما يهزأون به ويصبون عليه سخريتهم.. كل ذلك ليس مهماً.. على الأقل انك تعود في الأمسيات بعد جلبة وضجيج نهارك وما لحقك من سخط وسباب الى دفء الفراش.. الى كتلة اللحم والدم والصدر المعطر ووجبة دسمة يتصاعد منها

البخار.. آنئذٍ تصبح كل ثغرة وشق وركن في الغرفة عالماً مليئاً بالأسرار والطلاسم.. تفتش بأنامل أصابعك عن معاني الأشياء.. تتلمس كل ما تقع عليه يداك.. تبحث وتُنقّب.. لا يستقر شيء بين أصابعك.. يأخذك الجموح.. منذ أمد طويل كانت تفوتك صلوات الفجر.. في البداية صرتَ تؤديها في الضحى.. بعد ذلك أقلعتَ عن هذه العادة.. قلتَ لنفسكَ: "لي الحق".. كنت جامح الشهوات..!

ذات يوم كنتَ ماراً بشارع مقفر كقلبك، لُحتَ لأولئك الصبيان النزقين.. سمعتَ أزيز حجارة قادمة.. و.. تناثرت عويناتك قطعاً وشظايا:

"- لتكن عويناتك على عينيك عندما تضاجعني.. إن قيحها وصديدها يجعلانني أتقيأ..!

- لا يمكنني ذلك..

- لا يمكنك؟ لتُكسَر رقبتكَ!

- ماذا دهاكِ؟

- إنّكَ تُزَنخِر كجاموس.. لا تجثم عليّ هكذا..

- يا عيوني، لماذا تُذيقينني المرّ هكذا..

- لتكن فداءاً لي أيها الأعمى القذر.. أأكون أنا عيونك العمياء هذه؟ هيا أسرع..

- لكن..

- ضعها على عينيك.. قلتً ضعها على عينيك..

- كيف؟ هل استطاع أحد فعل ذلك والعوينات على عينيه؟!

- انتظر إذن.. لأُطفئ المصباح..".

لم تكن تحب رؤية وجهكَ.. كان يُقرفها.. تقول لك:

"عيناك تشبهان حفرتين تتكدس فيهما القطط الميتة"..
وكان كلامها هذا يبعث الوهن في عروقك..
يطفئ نار رغبتك دون أن تنتهي.. فتقذف بك هي جانباً كغطاءٍ مهترئ.. وما الذي يمكنك فعله؟ تستدير بوجهك، وتنخرط في البكاء.. تبقى تبكي حتى يغلبك نوم عميق..

أجفلتك صرخة.. الغرفة ليست دافئة كما ينبغي.. منذ المساء أكدتْ منيج: بقي القليل من النفط.. لا يكفي لهذا الليل الطويل.. ينتابك الغم لأن الطفل سيولد بين البرد وهاتين المرأتين القاسيتين.. لكنك وزوجتك لا تشعران بالبرد.. أنت تنتظر ولادة عظيمة مباركة، وهو ما أشاع الدفء فيك.. وزوجتك تبللتْ بالعرق من كثرة التلوي والتَلبُّط ومغالبة آلام المخاض والعض على الشفاه.. أما منيج فلا شأن لك بها.. لكن ماذا عن المولود؟ انحنيتَ برأسك جانباً وتطلعتَ قليلاً الى الأعلى.. كان حاجباك مثل خيطين رفيعين كأنهما لامستي كائن ضخم تُحركهما بفزغ.. وزاوية فمك مُتهدلة تُفصح عن قصة قهر وخوف وانتظار.. وأخذتَ تفكر:

"بعد ميلاده سآخذه بالحسنى أو عنوة الى عند أمي العجوز.. سأقول لها: زوجتي امرأة نزقة وضيعة.. اهتمي به أنتِ.. انني متردد حيالها.. أنتِ تسمعينني.. الناس يتقولون علي في السوق والدروب والأزقة.. كبارهم وصغارهم.. يقولون: ها ملا ديوث؟ ها ملا قواد؟! بماذا جنيتُ على نفسي؟ ليتني كنتُ مُبصراً.. كنتُ سأعرف حينذاك من اية طينة خُلقتْ هذه المرأة.. كل ذلك من صنيع القابلة منيج.. عندما كانت ما تزال شابة يافعة كانت سوقها

رائجة.. منذ أمدٍ طويل وأنا مُرتاب بها.. لهذا صرتُ مسخرة المدينة.. لا أجرؤ على الجلوس في مكان ما وتلاوة أربع آيات.. إذْ يحاصرونني بالحجارة والسخرية.. من يدري بهموم الآخرين؟ هؤلاء الناس أرذل مما كنتُ أتصور.. وأنا رجل عاجز.. ما الذي أستطيع فعله؟ الى أي جحيم هويتُ؟ لم يتصادف لرجل أن كان وحيداً وأعمى.. انها ساذجة وقد خدعتها منيج اللعينة.. أجل، إذا لم تقبل بذلك، فسأحمل الطفل وأهجرها.. لتكن حرة سائبة.. هذا أفضل.. وأنا أيضاً سأبحث عن امرأة عمياء.. سأكون مرتاحاً معها.. ستقبل بي وسنعيش نحن الاثنين غربتنا معاً.. وستعتني أمي بالطفل وتربيه.. أجل ستربيه.. انه ذريتها.. عند ذاك سأجد له اسماً جميلاً.. في البداية سيكون نظره غائماً.. وبعدها ستُميز عيناه شيئاً فشيئاً الظلمة من الضياء.. ربما تكون له عينان جميلتان.. ليس ناموساً أن يُخلّف الأعمى مولوداً أعمى أيضاً!!".

صرخة أخرى أجفلتكَ.. ها هي.. امرأة لعينة.. ولكن اواه.. الحياة عندك ليست غير تشابك جموع العميان والمبصرين.. عندما كنتَ وحيداً لم تكن تساؤلاتك تزيد على عدد أصابعك.. والآن، بعدما أسَرَتْكَ نفسٌ أخرى، عنق آخر، نبض آخر، هم آخر، صارت تساؤلاتك لا تحصى.. والجواب: لا شيء..! من أجل أحضان امرأة كان هذا الجحيم.. انك على حق.. حتى لو كانت عيناك ضريرتين، فان دمك حاراً يتفجر في عروقك.. والشرايين الممتلئة بالدماء تنتفخ.. وما تطلبه الدماء لا يستطيع العقل تجاهله.. الدماء أكثر جيشاناً من العقل.. وهي أكثر منه خضوعاً وانقياداً..!!.. حتى لو كانت

عيناك حفرتين مظلمتين، فان لك سمعاً، والعمى يجعل السمع مرهفاً.. إذا تلاشى اللون، فالدنيا صوت.. ان قلبك يرقص لنَأْمة قدم امرأة.. لرنين سِوار.. لحفيف ثوب.. لتأوه رقيق.. لكنك لم تظفر بذلك بيُسر.. حينما نضجتْ أختك (نازي) وأينَعَتْ كعنقود عنب قطفها الوالد لذلك الثور العجوز وقصم ظهرك بشروطه.. آهٍ لو لم تكن تلك هي الفرصة الأولى التي بقيتَ تتمناها وتنتظرها بلهفة طيلة عدة سنوات..؟

لسنين مضتْ، كنتَ كديك مجدور.. الآن صارت حنجرتك مرنة، وصرتَ تُنادي ببعض العذوبة.. منذ الصباح وتحت المساء تتلو القرآن تحت الجدران وتدور في الشوارع باسطاً يدك.. لكي تمتلىء قبضة ومعدة زوجتك أكثر، وتلبس أجمل وأبهى.. لكي تردد غرفتكم صدى التأوهات المنتشية.. لكي تبتهج هي.. تبذلك وتجزل لها العطاء لعلها تستأنس إليك وتلتصق بك ويغدو صدرها مرتعاً لك.. لكنها – ابنة الابليس – كانت تتمنع عنك ما استطاعت الى التمنع سبيلاً.. تُناديها، ولا جواب.. ليلاً تمسي كأنها جثة هامدة.. تهزها دون أن تتحرك هي.. وفي بعض الليالي تضطرم فيك نار الشهوة.. تنفذ رائحة صدرها وجيدها الى جمجمتك.. أنتَ تتعرف على المرأة بواسطة رائحتها فقط.. تُناديها ملتمساً منها أن تسكب بعض الماء البارد على الجمر الذي يتقد ويتوهج في كبدك مُحرقاً أحشاءك.. أية كافرة جائرة..! تفلتُ منك معتلية صندوق الملابس المتصدع.. تُذيبك كأنك قطعة كاتو.. زنخرتك وزمجرتك تبعث الاهتزاز في الغرفة.. تروح تدور فيها على غير هدى.. تسقط

متعثـراً وتـنهض.. يـدفعك مزاجـك المحتـدم الـى هيـاج مجنون.. تُعارك الجدران التي تتقاذفك.. ينطلق السباب من فمك كرصاص مجنون.. تصب لعناتك على الشجر والحجر والماء والنار والأرض وحواء والظلام.. تنزوي هي في ركن ما.. تنظر إليك بفزع.. يتراءى لها وحشاً مُرعبـاً.. تصـطدم أنـتَ بالصـحون والقـدور والأوانـي والمدفأة وتسقط مترنحاً شبه مغمى عليك.. يا لهذا الظلم الفظيع.. تتضرغ.. تبكي كما يبكي طفل من أجل دمية، ونصفك الأسفل عار.. ومن بين كل عشر مرات كانت تستسلم لك مرة أو لاً تفعل..!

أجفلك دوي الرعد.. ملتَ برأسك ورميتَ طاقيتك.. لفح رأسك تيار بارد.. شعرك أيضاً أخذ يتساقط.. أصغيتَ الى أنين زوجتك.. أية ولادة صامتة؟ إنها لسوء حظك لا تُفرج.. أجفلك صوت منيج الناشز أكثر وأصاب قلبك بخيفة بالغة:

- ملا.. ألا تنام؟

لم تُجبها.. كلا، لن تنام.. ما الذي تُبَيّتُه منيج؟ تريد أن تحرمك من هذا الانتظار.. يجب أن تبقى منتظراً.. إنهما ليستا أهلاً للثقة، لا منيج ولا زوجتك.. وأنتَ حذر متيقظ لكل ما تفعلانه.. لكن إذا أخذك النوم، فان أشياء كثيرة يمكن أن تحدث تحت جنح الظلام دون أن يعلم بها أحد..!

أقاويل الناس أيضاً ليست هراء.. لا شيء يُقال جزافاً.. لم تعد مطمئناً كما كنتَ في سالف الأيام.. نسمات الريح أيضاً توشوش لك بالشك.. وهو ينبت في الفناء كزهرة بريـة.. ينفذ الى الغرفة من ثغرات وشقوق الجدران.. لم تعد كالسابق ترجع مساء.. غيّرتَ وقت

تـرددك علـى البيـت.. أحيانـاً عنـد الضـحى وأحيانـاً عـن الظهر أو بعده.. تخطو بخشية وريبة.. وبدون أية طقطقة أو جلبـة، تفـتح البـاب الصـفيح.. كيـف؟ أنـت تعـرف..! وبمهـارة وحـذر لـص تنسل الـى داخـل البيـت.. لعشـرات المـرات لـم يَصْـدُف أن كانـت مـرة واحـدة موجـودة فـي البيت.. كـلام النـاس لـيس كـذباً إذن.. حتـى حفيف الـورق المتساقط موضع شك.. حتى رفرفة جنـاحي طـائر.. حتـى خشخشة فـأر وهـو يقضـم خبـزة يابسـة.. أي همّ ثقيل هو الحرمان من البصر؟ لا وزر عليك.. انك لا تتعرف علـى الأشياء إلاّ بالصوت والرائحة.. كنتَ تتمنى أن تلقاها كل مـرة فـي البيـت.. تُنـاديهـا، فتجيبـك.. تشـعر بهـا.. تُضـمخ رائحتهـا رأسَـكَ.. وعنـدما يخـيم الليـل تنزلـق أنـتَ بـين ذراعيهـا وعلـى صـدرها وصـفحة رقبتهـا.. تطوقهـا بذارعيك.. تُخرمش وجهها الناعم بلحيتك الكثة وشـاربيك الخشـنين.. تبتعـد عنـك.. فتغـرز أنـت يـدك فـي صـدرها وجيـدها ووجههـا وشـعرها وتحـت إذينهـا.. لا تسـتقر أصابعك المرتجفة في مكان، ولا ينتهـي تنـزه يديك حتـى منتصـف الليـل تبقيـان منـزلقتين ومتلمسـتين.. تتحسسـان الأقراط والحلـي والقلادة ودبـوس الشـعر.. العمـى جعـل يديك تتمرنـان على الترحال والتعب.. كلما تحتك بك أكثر تشم منها رائحـة غريبـة أكثر.. جـائع أنت وصـحن فـارغ تمامـاً هـي، ولا تجـرؤ علـى البـوح بشـيء.. هذا خطير.. لكن هذا أفضل.. لم يبقَ الشيء الكثير.. سينتهي كل ذلك.. يقولون انها جميلة، وهو مـا يزيـد الطـين بلّـة.. فـي بعض الليالي – وتحت جنح الظلام الأبدي الحالك – تمسّد بيدك قسـمات وجههـا وأنفهـا المسـتقيم وذقنهـا النـاعم وشـفاهها

الدقيقة النقية.. انهم محقون.. جميلة.. تشعر بها كلياً.. أولئك الناس الأرذال يجعلونك تتوجس منها خيفة وخشية أكبر.. لفترة معينة، كانت كل ليلة تتخلص من طغيان شهوتك، واضعة ما بينها وبينك جبلاً من الجليد.. تدفع صدرك بيدها.. لابد أنها شَبِعة.. شبعة لماذا؟ وأنتَ؟ أنتَ لمن تكد وتكدح؟ في البداية – لشهرين أو ثلاثة – كانت هي تفترش صدرك المشعر.. آنذاك كانت تقضم شاربك بأسنانها.. والآن تتحجج برائحة فمك وقيح عينيك.. منيج هي التي ضللتها.. من الذي بعث إليكم بهذا الشيطان؟ لقد خسرتَ زوجتك نهائياً..

الولادة تتم بسكون.. ودوماً تصير أكثر سكوناً.. أكثر رهبة.. أكثر خموداً.. فظلمة مثل بصرك.. باردة، ودوماً أكثر برودة.. الغم والفزع والانتظار ينغل في قلبك.. كأنه انقلاب.. كنتَ مُتعباً مرهقاً.. حام النوم حول عينيك.. قاومته لفترة وجيزة.. ثم غالبك ولفّك غفلة وبصمت.. ولم يكن نومك سوى اضطراب وأحلام ضبابية..

* * *

الوقت صباحاً. باكراً كان أم متأخراً؟ لا تدري.. إنها الآن أكثر سكوناً وهموداً مما كانت عليه البارحة.. لعله السكون الذي يعقب الولادة والأنين والوجع.. متى غلبك النوم؟ كيف؟ كنتَ تريد أن تعرف ماذا حدث ليلاً تحت جنح الظلام؟ ماذا فعلت القابلة منيج؟ كيف استقبلتا طفلك؟ إذا كانت صدرتْ عن طفلك صرخة، فكيف لم تتوهج مُقلتا عينيك؟ أم تراه بكى؟ لكن بصره.. حبوره.. دنياه المضيئة.. لا.. ليس عدلاً أن يولد باكياً.. إذا ولد كل أطفال الدنيا هذه الليلة باكين، فان طفلك يجب أن يولد

ضـاحكاً.. لـو يـتكلم وهـو فـي المهـد كعيسـى، فسـتكون معجزة..! لعنتَ الفترة التي نمتَ خلالها.. كانت نيتك أن تبقى منتظراً حتى ولو لطيلة العمر.. تشتري بحياتك صرخة طفلك.. صرخة الحياة والبقاء.. تلك الصرخ الواهنة الآن، والتي ستُرهب الساخرين والأشقياء مستقبلاً.. أعذب صوت ولحن وأغنية.. كيف فاتتك؟ مُذْ ذاك كنتَ ستصبح أباً.. الأب يعني أشياء كثيرة.. لكن الغرفة ساكنة وموحشة جداً.. سكون ما بعد الولادة.. يبدو انهم غطوك بغطاءٍ مهتريء بالٍ.. متى وُلد؟ لا تعرف.. كنتَ تريد أن تسأل.. ملأ قلبك وجوانحك خوفٌ ما.. ليس من صوت يصدر عنه أو تنفس أو تأوه.. ليُعلن بكاء الطفل عن أبوتك.. لكن ماذا هنالك؟ قبل أن تسأل، جاءك صوت منيج مرتعشاً مختلجاً بالوجل وهي تقول:

- ملا.....!!

سمعتَ الصوت فقط.. لم تعرف من أية جهة أتى.. كانت ساكنة بلا حراك.. شفتاها لازمتا الصمت.. كانت خائفة.. شيء ما قد حصل.. صوتها كان ينذر بالشؤم.. انتفضتْ عروق رأسك وأخذت تنبض بقوة.. أي انتظار ثقيل مهيب؟ أية نتيجة؟ بقيتَ صامتاً.. وبعد فترة سكون وانتظار ثقيلين، طرق صوتها سمعك:

- ملا.. كان الطفل مخلوقاً عجيباً.. لا تَسَلْ عنه.. وجهه كان وجه قرد..

لم تُجِبْ، كأن خدراً أصاب حواسك.. عادتْ تقول:

- كان مصاباً بالفالج أيضاً.. لم يستطع التنفس، فمات..

لم يكن قادراً على الصراخ إذن..! إندفعتَ الى الأمام كمن مَسّه جنون.. كانت منيج منزوية في أحد أركان

الغرفة.. ارتفع صوتك يلعلع في كل الأنحاء.. ارتطم رأسك بالجدار.. إرتَدَدْتَ.. سقطتَ.. نهضتَ.. كنتَ تدور في الغرفة.. هل أنتَ قرد، أم ان زوجتك حملتْ من قرد؟ أيهما؟ أهذه معجزة عيسى؟ أهذا سر صندوق موسى؟ أين قميص يوسف ليعقوب؟ إذن، انتهى كل شيء.. مات.. ستظل تعيش في الظلام ما حييت.. لن يأخذ بيدك بصير.. كيف مات؟ لماذا مات؟ من يقول أنكَ تقف على الأرض؟ هل ذاك الضباب الأزرق فوق رأسك سماء؟ كلا، أبداً.. كل صوت، كل رائحة، كل شيء مشكوك فيه.. أخذتَ تزعق كمعتوه.. إلتفتَّ برأسك وصرت وجهاً لوجه مع منيج.. تراك ولا تراها.. أرعبها منظرك وشكلك.. اندفعتْ تعدو.. اجتازتِ الباب.. لم يكن لزوجتك أثر.. أين ذهبت؟ أين اختفت؟ أنت متيقن أنهما قتلتاه.. وليس عندك الدليل لاثبات ذلك.. أعمى بلا دليل.. بحثتَ يمنة ويسرة في الغرفة الصغيرة.. في الأربعة أركانها.. ليس لها أثر أو رائحة.. انها مكيدة..! وإلاّ متى خافتاك؟ كلا.. انه تفكيرك وترددك وظنونك وشكوكك فقط.. لقد مات وكفى.. لا، لقد قتلتاه..! لكن مئات الأطفال يموتون يومياً.. يولدون.. يتمرضون.. فيموتون.. ومئات أخرى منهم يُجهضون.. أمهات كثيرات أيضاً يمتن أثناء الولادة.. لا.. لقد قتلتاه.. لم يكن ممكناً لأمه أن تربيه.. كيف تهنأ ما لم تكن حرة سائبة؟.. اتخذت يداك شكل كلابين وطفحتْ عليهما رغبة القتل.. لو أمسكتَ باية واحدة منهما فستضعها تحت قدميك وتأخذ بخناقها ولن تتركها حتى تلفظ آخر أنفاسها.. القيح والصديد غسل عينيك.. بللك العرق..

ارتخت ركبتاك.. ارتجفتا.. سقطتَ.. فارقتَ وعيك..

* * *

في اليوم نفسه.. وقبل الظهر.. انطلقتَ تعدو في الشوارع.. كنتَ ذاهلاً مشدوهاً.. أمطار الليل كانت قد حولتْ أرض الشوارع والأزقة الى طين زلق.. وأنتَ تركض كالمعتوه.. تصيح وتولول.. تزلق وتسقط أرضاً.. تنهض.. تنطلق راكضاً.. تزلق وتسقط.. تقارع الجدران والأرصفة والنساء والرجال وكل شيء.. تتبعك زمر من الصبيان.. كنتَ تسب وتشتم.. لم تستثنِ أحداً.. كنتَ تلعن السماء والأرض.. آدم وحواء.. الشيوخ والأولياء.. تنحني.. تلتقط ما تقع عليه يدك من حجارة.. ومع أزيز كل حجر تقذفه، كان زجاج معرض أو حانوت أو سيارة يتكسر شظايا.. غدوتَ كتلة من الدم.. ازدحم حولك الناس.. أخذ بعضهم يضربك بلا شفقة.. بالركل، باللطم، بالبصاق، بالشتم، بالحجر، بالعصي.. حاصروك، رجالاً وصبياناً.. أذاقوكَ الويل.. اروكَ الجحيم.. وأنتَ كنت على حالك.. عارياً عاجزاً أعزل.. مسخرة لأهل المدينة.. كانت الأصوات تتصايح من كل حدب:

- ها هو.. أمسكوه.. ملا ديوث.. ملا ديوث.. ملا مجنون.. ملا قواد.. ق.. و.. ا.. د..

كانت المدينة بأجمعها تردد كلمة (ديوث).. وكأنك أنتَ الديوث الوحيد في هذه الدنيا.. لم تكن تستقر في مكان.. لم يضحك أي زقاق أو شارع أو زاوية أو عطفة.. كنتَ تركض مُخلّفاً وراءك أشياءك: نظاراتك، عكازك، قرآنك، عمامتك، محفظة نقودك، حزامك

الأبيض، علبة سكائرك.. كل منها سقطتْ في يد صبي.. سقطتَ من كثرة ما اصطدمتَ بالناس والأشياء.. تقلص وجهك.. أخذ القيح ينساب منه جارياً، واللعاب يسيل من فمك.. عاودتَ السب واللعن.. راح حاجباك يختلجان.. غرزتَ قبضة يدك في التراب الموحل.. تراخيتَ.. تراخيتَ أكثر.. وكمثل حلم ثقيل فصلتك الغيبوبة عن هذه الدنيا الضاجة بالرذيلة.. غبتَ عن الوعي..

* * *

حينما استيقظتَ، لم تكن تعرف أين سقطتَ.. كان جسدك ثقيلاً والوجع يسكن عظامك ومفاصلك.. لم تتذكر شيئاً.. بحثت بيدك، فلم تتلمس غير التراب والطين.. كان ظهرك مستنداً الى حائط.. الحيطان البعيدة عن المدينة والخرائب المهجورة كثيرة.. يلوذ بها المجانين والجياع والمتشردون.. ظهرك مستند الى الحائط.. الى أين ستعود مساء؟ الى البيت؟ كلا.. البيت انهار وانتهى.. وفي آخر المساء ستذهب الى أحد المساجد، وسيرخي الليل سدوله، وتأرق دون نار، ستنكمش على نفسك، وتتذكر مخاض الليلة الفائتة كأنه كابوس، ورغم خيالك الميت، تتذكر بأنك لم تصل منذ الليلة البارحة، لا صلاة على الديوث، طوال النهار والمدينة تصرخ:

- أيها الديوث.. أيها الديوث..

فعليه لا صلاة واجب عليك، لقد قررت أن لا تصلي الى الأبد، فخفت من هذا القرار..

فأسرعت بالندم..

صيف 1978

من مجموعة "الوحشة"

ليلة ماطرة

ترجمة: فائز يونس

بلغ واجهة الفندق، وارتقى درجاته.. مازالت الأشياء كما هي.. الكرسي والطاولة والخزانة.. عامل غرفة استقبال الفندق فقط هو الذي تغير.. فأخرج له بطاقته الشخصية التي تناولها منه العامل ودقق فيها بارتياب.. أطلعه على رقم الغرفة.. غرفة تسكنها القذارة في فندق رخيص.. كانت تحوي سريرين فقط.. إنه لا يعتقد أن أحداً غيره يمكن أن يقصد هذا الفندق.. قبل عدة سنوات أيضاً كان ينزل فيه.. والآن يحل فيه باعتباره إحدى محطات ذكرياته المريرة.. ألقى نظره على الوسادة واللحاف والفراش الذي لطخته بقع كثيرة.. رفع نظره قليلاً فشاهد صورة امرأة شبه عارية معلقة على الجدار.. كانت المرأة (مارلين مونرو).. لقد شاهدها في عدة أفلام.. كانت مرتدية ثيابها الداخلية فقط.. هي الأخرى انتحرت.. لماذا انتحرت؟ كانت أجمل امرأة.. وكان جمالها يجعل آلاف الرجال يحومون حولها كالذباب.. لابد انها انتحرت بسبب ملل وسأم هذه الحياة.. هذه الصورة

شيء حسن.. الرجل هنا يعيش بصورة ومن أجل صورة..! هذا أفضل.. إذْ انه لا يتطلب طبلاً ومزماراً وذهباً وناساً وبيتاً..! ترى من سيشاركه الغرفة هذه الليلة؟ كائن من كان.. انهم جميعاً صنف واحد ولون واحد.. هؤلاء الناس يميزون بعضهم بواسطة الأنف ولون العين والاسم فقط.. فتح حقيبته وأخرج منها علبة السكائر والكبريت، ثم دفتر مذكراته.. تأبطه وأغلق الحقيبة التي لم تكن تحوي أكثر من طقم حلاقة ذقنه ومنشفة وبيجاما وعدة كتب.. لم يكن يخشى سرقتها.. خطا الى الخارج وهبط درجات السلم وأصبح على رصيف "شارع الرشيد"، أكثر الشوارع ازدحاماً في العاصمة.. العاصمة المزدحمة هي الأخرى تضج بالعقلاء والمجانين والنساء والرجال والأطفال والشوارع والقصور والخرائب والسيارات والتماثيل والحانات والجوامع والمسارح و.. أشياء أخرى..

مدّ يده الى ما تحت ابطه متحسساً دفتر مذكراته.. مذكراته الحلوة والمرة.. انه ينوي الكتابة هذه الليلة.. ينوي تسجيل ذكرياته القديمة الغابرة.. آلام أربع سنين منصرمة وهمومها ودموعها وبلاياها.. هذه الليلة سيُلقي ظلالاً أخرى ويضيف بقعاً أخرى الى سابقاتها.. سيضرب فرشاة أخرى ويضفي لوناً آخراً على هذه اللوحة التي لم ينتهِ تكوّنها منذ عشرات السنين.. قبل اربع سنوات كادت هذه المدينة أن تقتله.. وقتذاك كان مجرد طالب جامعي.. الآن حَمَّلَته الحياة أعباءً أثقل.. وقتذاك كانت عذاباته أخف كثيراً مما هي عليه الآن.. كم عمره؟ انه يجهل ذلك.. مازال الأمر موضع خلاف بين أمه وأبيه.. أمه تقول: "رُزقنا بهذا الأبن مع هجرة آخر عائلة يهودية عن المنطقة".. لكن أباه يقول: "كلا، بل

رُزقنا به مع هجرة أول عائلة يهودية عنها".. لكنه متأكد ان عمره لا يقل عن ثلاثين عاماً.. السن ليست شيئاً ذا بال.. إنه يشعر عقلاً وروحاً بأنه قد شاخ، تماماً كأنه جواد عربة يقودها حوذ قاسي القلب.. يبدو متعباً جداً.. وعدة تغضنات وتجاعيد تنتشر على جبينه وصفحتي وجهه.. لم يبق في مؤخرة رأسه سوى القليل من الشعر، أما من الأمام فان جلدة رأسه جرداء كلياً.. وهو بهذه الهيئة يبدو للناظر إليه مُسناً.. العاصمة تتطلب جيوباً ثقيلة، وجيوبه ليست كذلك.. هذا أيضاً ليس مهماً.. ان مافي جيبه يكفي ليومين أو ثلاثة.. انه موظف.. ليس مهماً أين.. لأن الماء والذباب ذباب والموظف أيضاً موظف.. لم يتزوج بعد رغم انه يرغب بالزواج.. إلاّ ان مسوؤلية عائلة كبيرة تقع في عاتقه.. كبيرة بحيث يترتب عليه أن يفكر ملياً حتى يستطيع تعداد أفرادها.. أبوه وأمه أيضاً يكدحان.. وعندما يقول لهما: "كفاكما عن إنجاب المزيد" يجيبانه: "الله يبعث مع كل مخلوق رزقه!".. إنه لا يؤمن بمثل هذا الكلام.. زنديق دون علم أهله.. يُحب شراء الكتب كثيراً، لكنه لا يقرؤها كلها.. كان يحلم بكتابة مُؤَلَّف ضخم.. يهوى الشعر ويحاول كتابته.. لكنه يفشل باستمرار.. إلاّ انه كان يسجل كل مذكراته اليومية.. ماذا فعل؟ الى أين ذهب؟ من شتمه؟ أين شرب؟ أي فلم شاهد؟ وأحياناً بعض أخبار الجرائد أيضاً! من رأى؟ من مات؟ من وَلَدَ؟ من عُقد قرانه؟ من تزوج؟ من تطلق؟ وأشياء أخرى كثيرة أكثر غرابة.. كان قد ملأ البيت بالكتب والأوراق.. في مساطب النوافذ وكوات الجدران وتحت السلم وفوق الرفوف وتحت المفروشات وداخل الدولاب والحقائب والصناديق.. أمه تقول له: "لو كانت الكتب تُؤكل، لكُنّا الآن أكثر الناس

بدانـة".. كـان يخطـو فـي الشـارع بـبطء وتـؤدة.. الطريـق مزدحم، والوقت قبيل المساء.. أعداد لا حصر لها من البشر مسفوحة على الشوارع.. كان يتفحص ويُعاين كل شيء.. منذ زمن طويل لم يأتِ الى هنا.. اشياء كثيرة تغيرت ما عدا شارع الرشيد: سيارات كثيرة وناس أكثر ولا شيء آخر.. كانت ملامح ومشاهد البشر تختلط بما حولها من الأشياء.. وهو بعد هذه الفترة الطويلة من الغياب، لم يأت الى هنا قاصداً ملهى أو مسرحاً.. لا ليقتل شخصاً ولا ليُقبّل أحداً..! كانت الفتيات الجميلات يعبرن الشوارع جماعات جماعات.. لا يمكن للرجل أن يعرف بأن في هذه الدنيا فتيات حسناوات على هذه الصورة ما لم يحل بمدينة كبيرة كهذه..

"ترى أين يمكن أن تكون الآن (هدى) ذات البشرة السمراء والعينين السوداوين؟ من يقول إنها ليست متزوجة الآن؟ ستكون صدفة غريبة جداً أن ألتقي بها.. سينبغي عند ذاك أن نتبادل التحية.. لكن من يقول إنها ستعرفني؟ خيال فارغ.. لقد تبدد ذلك الحلم وانقضى منذ أمد بعيد"..

اصطدم كتف رجل ضخم الجثة بكتفه.. ليس لديه مشروع ما.. لقد جاء ليملأ حقيبته بالكتب ثم يعود.. إنه يهوى شراء الكتب بقدر ما تهوى نساء هذه الأيام وضع الماكياج، بقدر ما يحب الرجال معاقرة الخمرة، بقد ما يستطيب الحمار أكلْ الشعير.. حافلات وسيارات أجرة لا تُعد تروح وتغدو معبأةً بالناس، وزعيقها يصيب الناس على رصيفي الشارع بالدوار.. كان يقطع الطريق منقبض الصدر ضجراً ماراً بين أعمدة الشارع الضخمة ومزاحماً الناس.. لكن غبطة خفيفة ارتسمت في عينيه..

غبطة الوحدة وخلو البال في تلك اللحظة فقط..! غبطة تلوح كأنها أكثف من نشوةٍ تُولّدها كأس طافحة بالخمر.. الدكاكين والمعارض مضاءة من الداخل.. والغبطة التي أحس بها منذ هنيهة زايلته على حين غرة.. اقتحمته الكآبة والهموم.. كلما جاء المساء أشعلوا المصابيح والأضواء، بينما السماء تزداد عتمة وظلمة.. لامَسَتْ سمعه أغنية حزينة آتية من بعيد.. كان الناس السعداء والتعساء يختلطون ببعضهم.. يُغادرون بعضهم.. يمضون أفراداً أو أزواجاً.. في مثل هذه اللحظات يشعر وكأن طوقاً حديدياً يعتصر قلبه.. وفي مثل هذه اللحظات ينخرط في بكاء غزير – ليس بعينيه – وانما بقلبه.. تأخذ ارتعاشات الفم بأحاسيسه المرهفة.. وتروح نواقيس الأحزان والعذابات تدق في أذنيه.. عندما تحتضنه الغربة والوحدة يتذكر (رنين الكآبة) للشاعر **گوران**:

ها.. لقد هاج قلبي مرة أخرى/ في خلوة مخفية/
هاجه رنين جرس كآبة ما/ برويةٍ.. بكل تثاقل.. بخفوت/
وروحي تطفو فوق تموجات/ ذلك الحزن الخفي
بكل هدوء.. قلبي يرتعش/ يتأوه في مكان ما.. مكان غير معلوم
كلما رن جرس ذلك الحزن/ يتفوه بشيء ما
وأنا لا أشبع من السماع بكلتا إذنيّ

وجوه الناس وملامحهم تبدو تحت ضوء المصابيح الصفراء مكفهرة مكتئبة.. عندما يفكر ملياً، لا يصدق انه استطاع أن يعيش أربع سنوات في هذه المدينة العديمة اللون والمتلونة بألف لون في آنٍ واحد.. هذه المدينة التي

قتلت السياب وحسين مردان والحُصيري.. كان يخطو بتمهل وشاعرية بالغة وكأنه يريد أن يسفح أحزانه على بلاط شارع الرشيد.. طاف بذاكرته "رشيد" حفّار الآبار: البطل المجهول في هذه الحياة التعسة.. بطل رواية شَغَلَتْه عشر سنين دون أن يستطيع كتابة عشر صفحات منها..! كان يقول لأشخاص كثيرين: "لقد كتبتُ رواية....."..كان يكذب أحياناً بدون شعور منه أو تعمد.. مضى في طريقه وفي نيته التوقف عند نهر دجلة.. كان مُغتماً يشعر بسحب الردى تُخيم، وبالشوارع وكأنها أفاعٍ سوداء تلتف حول عنقه.. حينما يحل الليل سيبترد أكثر.. الليل الشتائي – كامرأة فاجرة – لا يُؤتَمن جانبه أبداً.. تملّكه الغم والكلل.. كان يرى الدنيا أكثر إظلاماً من وراء عويناته الشفافة.. أبوه أيضاً ضعيف البصر.. الناس يرِثُون عن آبائهم الأموال والأملاك والذهب والوسامة والقوة، إلاّ انه هو ورث ضعف البصر الصلع.. كانت عويناته تستقر على أنف كبير ورثه عن أمه.. ليست هناك كلمة واحدة تُعبّر بالضبط عن الغم الذي يخالجه الآن.. لا شيء وكل شيء في وقت واحد..! اللهم إلاّ أشعار **گوران**، أشعار الدنيا، روائع القصص، الفلسفات الكبيرة، تستطيع أن تعرف ما هو وماذا يريد؟ لكن ليس الأمر كذلك.. إنه هو الذي يرى الأشياء على هذه الصورة.. الحزن غول يهاجمه.. لا ينتظر استقبالاً.. يأتي بدون ضجة أو صخب.. بكى في حضرته أم ضحك، سيأتي في الحالين.. ضيف صفيق الوجه بلا حياء.. لا يعرف ليلاً ولا نهاراً، لا صيفاً ولا شتاءً، لا مأتماً ولا حفلاً، لا أرضاً ولا سماءً.. يأتيه أينما كان ووقتما كان.. وعندما يأتي فهو طوفان لا يرحم.. حينما يجتاحه مثل ذلك

الحزن في مثل هذه الأمسيات، يعكف على كتابة ذكرياته تحت ضوء المصباح الخافت.. الحزن يوقظ الذكريات.. يهوى مُرّها وحلوها.. كلما أنَّ أنيناً على مهل أيقظ في الذاكرة أغبر الذكريات المدفونة:

هي لغة.. أغنية ما.. صوت شجن
شكوى أنين.. حسرة ما.. حشرجة وآه
حيث لا أدرك كنهها
ولكن روحي تبكي معها مدراراً

رغب أن يصل دجلة بسرعة، ويتطلع – من فوق الجسر أو من عند الضفة – الى مشهد الماء وهو يجري بهدوء.. ماء النهر يحمل الإنسان المغتم الكليل الى دنيا السكينة والهدوء.. لكن لا.. الليلة – مثل ملايين الليالى الأخرى – يغص شاطئ دجلة بالناس أزواجاً أزواجاً.. يتشابكون على ضفة دجلة الكئيب.. قبل سنوات كان يتباهى ويتفاخر بوحدته.. أما الآن فصار يخجل منها.. انتابه ذهول واندهاش: ما أكثر هؤلاء الناس؟ من أين يأتون؟ الى أين يذهبون؟ لماذا هم مستعجلون؟ كيف لا يموت بعضهم وهو واقف على أقدامه؟ ما كل هذه السيارات الغفيرة؟ ليس عنده بين كل هاتِهِ النساء الكثيرات – فتيات ونسوة وعوانس وأرامل وعجائز – حضن واحد يضمه.. لا يملك من كل أراضي الله الواسعة هذه متراً مربعاً واحداً.. ليس سوى راتبه الذي يتسلمه بيده ليذهب من فوره الى الفم.. التزم الحذر مخافة أن تُسرق منه نقوده القليلة.. يقولون إن النشالين كثيرون هنا.. لماذا اضطربتْ أحوال الدنيا هكذا وامتلأتْ باللصوص والأفّاقين والمحتالين والأوغاد وقطاع الطرق والمقامرين والغشاشين والقتلة والمومسات والنساء الماجنات؟! إذا استمرت الحال

على هذا المنوال، فما الذي يُرتَجى؟! تطلع صوب المطاعم المنتشرة على جانبي الشارع.. كان الازدحام فيها على أشده.. فكر فيما إذا حل القحط يوماً أو سنةً أو قرناً من الزمان ولم يبق ثمة ما يؤكل وكانت المجاعة.. لاشك وقتها أن الإنسان سيأكل الإنسان.. ولاشك أيضاً أن إنساناً ضعيفاً هزيلاً مثله سيكون أول من يؤكل!! خطر له أن يقصد مشرباً فخماً على شاطئ دجلة.. هل يحتاج الليلة ان يشرب؟ أجل.. لكي يلتهب خياله ويلهم الكتابة أكثر.. مشرب من تلك المشارب الخافتة الضياء والمثيرة للخيال.. من الممكن أن تمطر السماء أيضاً.. سيشاهد المطر والناس من وراء زجاج واجهة المشرب.. ووسط همسات وأنفاس المخمورين، بين جرعة من الخمر ونَفَس سيكارة، سيفتح دفتره ويبسطه فوق الطاولة النظيفة ويدوّن كل ما يخطر بباله.. حتى لو لم يُسعفه خياله بشيء، فسيسجل خيالات وهذيانات السكارى الثملين.. كيف يدخنون.. كيف يحتسون كؤوسهم.. انهم يدفئون أحشاءهم بأول جرعة.. ذلك السكون والضياء الخافت يحركان في النفس شجوناً أكثر صفاءً من ماء نبع زلال وأكثر شفافية من زجاج نقي.. من خلف الواجهة الزجاجية ستتجلي له الأشياء، دقيقها وكبيرها.. الحزن والوحدة والخمرة توقظ أقدم الذكريات.. ذكريات أربع سنين من الشقاء والمكابدة.. الثمالة تُذيب أيضاً جليد أحزان كثيرة.. من المحتمل أن يبقى جالساً حتى وقت متأخر.. الموسيقى المؤثرة واللوحات الجميلة والديكور الخلاب والكأس الشفاف وأنواع المشروبات والكرسي الوثير الفخم ودفء المدفأة الكهربائية وصوت أم كلثوم المفعم بالتأوهات والحسرات، كلها تحفز الخيال وتثيره.. تبعث ذكريات اليوم الأول نابضة

حية.. الليلة سيقتعد مكاناً قرب الواجهة الزجاجية، بعيداً عن أولئك الأشخاص الذين يتعقبونه كأنهم عُسُس.. سيراقب الناس وهم يروحون ويغدون من حيث لا يرونه أو يشعرون به وهو جالس في الجانب الآخر المعتم من الزجاج.. كل منهم يغذّ السير باتجاه غايته.. الغايات في هذا العالم كثيرة، والخطوات التي تقود إليها أكثر بكثير..! الخمرة تُشيع البساطة في نفوس الأشخاص الواسعي الخيال.. تجعل السيد والصعلوك يرقصان معاً.. سيشرب قليلاً وبتمهل.. كلما بدأ الشرب استيقظت في ذاكرته أول ركلة.. أول امرأة.. أول سيكارة.. أول عراك وسقوط وهدية وقصة حب.. يجب أن تكون جلسة رائعة.. الأكل والطعام ليس بشيء ذي أهمية.. كلما تأكل وتشبع أكثر، كلما تزداد خمولاً.. الخيال كل شيء.. ومن لا خيال له لا يساوي فلساً..!

اقترب من دجلة.. الناس أزواج أزواج.. هو فقط كان وحيداً بينهم وهم يروحون ويجيئون.. ذكوراً وأناثاً.. شيوخاً وعجائز، عرائس وعرساناً، عشاقاً وعاشقات.. وكل اثنين منهم قد التصقا ببعضهما وانزلقا تحت أذرع بعضهما خوف البرد أو خوف الآف المخاوف الصغيرة الأخرى.. أما هو فكان وحيداً.. وكل ما كان وحيداً من طير أو شجرة أو نجمة يسبب له الألم.. وحتى لو كانت كل الأشياء أزواجاً فان غول حزنه لم يكن ليهلك.. حزنه كطائر جبلي لا يمكن تدجينه أبداً..!

كل شيء في كفة.. المصائب والمآسي والموت والقتل والوباء والجوع.. ووحدته هو هذا المساء في كفة أخرة.. هو أيضاً لم يكن يُدرك مبعث حزنه هذا.. يستنجد بالبكاء، لكن دون جدوى..

ماذا دهاك أيتها الروح الهائمة
حيث لا ضفاف ولا قاع لك
الى متى أبقى جاهلاً بك

نهر دجلة باقٍ على حاله.. المطر زاد من مياهه قليلاً.. لكنه لم يمل شاطئه.. ولم يهجره.. البشر تغيروا.. وهم يتغيرون دوماً.. وجوههم إمَّحَتْ من ذاكرته.. هو لم يرهم.. وهم لا يثيرون اهتمامه.. يمكن أيضاً أن يكون قد رآهم قبلاً ولم يعد يتذكرهم الآن.. هم أيضاً لم يروه ولا يتذكرونه.. جميع الناس إذن يموتون في حساب بعضهم البعض.. أو انهم أموات فعلاً ومحسوبون على أنهم أحياء.. آهٍ يا لها من طاحونة هائلة.. كل شخص فيها منشغل بنفسه فقط.. لو أمطرت تلك الغيوم المتلبدة في السماء لاختفوا جميعاً كسرب من الطيور خشية المطر.. عندها سيخلو الشارع ويطيب التمشي.. فلتُمطر إذن.. كان يحس وكأن هؤلاء الناس قد جعلوا من رأسه رصيفاً يسيرون عليه.. هبّتْ ريح باردة، وبدأ المطر يتساقط ناعماً، ثم ما لبث أن هطل غزيراً.. وعندما وجد نفسه في أحد المشارب كان قد تبلل تماماً.. لم يكن مشرباً فخماً، لكن مدخله وواجهته كانا جذابين.. جلس كما كان ينوي.. وراح صوت انهمار المطر يداعب سمعه.. المطر يزيد الحزن ثقلاً.. أي شيء في هذه الدنيا أكثر كآبة من المطر ومن شارع مبلل ومن قلب وحيد؟ منذ زمن بعيد وهو يصاحب الوحدة.. يحسد قطرات المطر.. كل منها هي الأخرى وحيدة.. لكنها عندما تنهمر على الطرقات تنهمر مجتمعة.. تشق سواقٍ كثيرة.. تجرف معها كل ما كان وحيداً: أوراق الشجر الوحيدة، قصاصات الورق، العشب اليابس، أعقاب وعلب السكائر، أعواد

الكبريت، وآلاف الأشياء المهملة الأخرى.. تختلط ببعضها وتذهب.. تذهب وتذهب.. وربما تهدد المدينة بالطوفان أيضاً.. هذا هو سحر وقوة الاتحاد والاندماج.. المطر يُنقذ كل ما كان وحيداً من وحدته.. لكن المطر يعمق وحدته هو.. ويصبح البكاء غير مُجْدٍ.

أقبل النادل.. طلب قنينتي بيرة.. استدار الرجل عائداً.. عاود النظر الى الناس عبر زجاج الواجهة وهم يخفون ويحشرون أنفسهم هنا وهناك وقد غرقت رؤوسهم بين أكتافهم.. وكلما أمعن النظر فيهم، أحس بالملل والاشمئزاز أكثر، وشعر بوحدته أكثر.. لا يعرف لماذا يبدون له على هذا القدر من الحُمق والبلاهة.. ازداد شعوره بالوحدة.. وضع النادل قنينتي البيرة على الطاولة.. ملأ كأسه بعجلة وأفرغه في جوفه بأسرع من ذلك.. أخرج دفتره وراح يكتب:

"من أكون أنا؟ انني وحيد.. مثلي مثل قطرة المطر تلك التي تسقط على صفحة النهر.. لا تبلل شيئاً أو مكاناً.. انني أنسكب كماء فوق ماء.. والماء لا يبلل ماءاً.. أشعر انني كنتُ وحيداً طوال خمسة وعشرين عاماً. خمسة وعشرون عاماً = تسعة آلاف ومائة وخمسة وعشرون يوماً = مائة وتسع آلاف وخمسمائة ساعة.. ويمكن أن تكون أكثر.. لقد أمضيت هذا العدد الهائل من الأيام والساعات وحيداً.. كنتُ مرتبطاً بكل شخص، لكنني لا اشعر ان شخصاً ما ارتبط بيّ.. داهمني الحزن الغامض مجدداً.. انني لا اكاد أتعرف على روحي.. أكاد أن أفقدها.. دون أن أفهم لماذا.. لقد نهض **گوران** في مخيلتي حياً:

ما هذا الصوت؟

ما هذه النغمة البعيدة؟
حيث يوقظ شعوري؟
ليس من كلمة تعبر عن الاحتراق الذي يلسع قلبي وجوارحي بلهبه.. الليلة، يمكن حتى لقطة ما أن تشاركني وحدتي وتبدد حزني لو وُجدت.. الأغنياء ليسوا مخبولين عندما يُربون القطط والكلاب..! ترى هل يشعرون هم أيضاً بالوحدة؟ المشارب مزدحمة.. وهي تزدحم أكثر.. لو لم تكن آلاف الغرباء والشريدين والمنكودين والمحزونين والوحيدين أمثالنا، فمن كان سيملأ مشارب وحانات الدنيا؟ حياتي عبارة عن قفز متواصل من هذا الرصيف الى ذاك.. سبتي مثل أحدي.. أحدي مثل أثنيني.. أيامي متشابهة كحبات المسبحة.. والفصول والشهور تأتي وتمضي متعاقبة.. الماء والهواء فقط هما اللذان يتغيران.. انني أنتظر شيئاً عظيماً.. لكن لا يأتي.. كل أشيائي مفردة وحيدة: الوسادة والكأس والصورة وفرشاة الأسنان و... أشياء أخرى..".

اجترع كأساً آخر.. أشعل سيكارة.. ألقى نظره على الخارج.. كان المطر يهطل أغزر من ذي قبل.. عاود الانكباب على دفتره:

"الليلة سأمضي الى الفندق البارد.. وازاء النار الصفراء سأجتر أحزاني الأكثر منها صُفرة.. لا نار تدفئني، اللهم إلاّ جمرة السيكارة.. إنني أستشعر في السيكارة لذة امرأة.. لولا ذكريات الأعوام المنصرمة لما كان مكاني في ذلك الفندق العتيق الحقير.. حتى لو كانت الغرفة دافئة، فان قلبي بارد.. منذ أن عرفتُ نفسي، وقلبي كموقد، يشتعل وينطفئ.. لا يكف عن الاشتعال والانطفاء.. وهو الآن ممتلئ بالرماد..

دنيا خيالي وأعماقي باردة مثلوجة بحيث أن الثلوج إذا لم تسقط في أي بلاد، فانها – بلا أدنى ريب – ستهطل كثيفة على خرائب قلبي وستجمدني حتى الصباح.. كم هو محزن ومؤسف أن أقضي نحبي في فندق رخيص وبارد كهذا، دون أن أجد أحداً بجانبي يلثم فمي، كم هو مؤسف؟ أنا صياد، لكن يدي فارغتان! يا للعجب.. كم بودي أن أعرف عدد الأشخاص الذين يولدون الآن.. والذين يموتون.. والذين يُقتلون أيضاً.. وأولئك الذين يتلقون القُبل أيضاً؟ كم من الأشخاص تحفر الوحدة قلوبهم مثلي؟

يحزنني حين يأتي
وحين لا يجيء.. يتعقبه قلبي
هائماً هنا وهناك

الليل يمضي بطيئاً.. وشيئاً فشيئاً تخف الزحمة ويتفرق الناس.. وبعد ذلك ينتشر السُكارى والثملين فراداً في الشوارع وهم يُعدون أنفسهم أسياداً عليها.. يتقيأون عند الجدران.. يتبولون على كل شيء.. يبصقون على كل شيء.. ما الذي لا يفعله الألم بالإنسان؟؟ عدد السيارات يتناقص.. والمشارب والحانات تخلو أكثر فأكثر.. الملاهي والمسارح هي آخر ما تُقفل ابوابها.. ومن ثم – وكالنمل والذباب والطيور والبهائم – يعود كل شخص الى وكره وعشه.. ينتشر بعض العُسس وأفراد الشرطة في الشوارع والأرصفة والأزقة المظلمة للسهر على شرف وعزة المدينة.. المدينة باتت ساكنة هامدة وكأنها قد غرقتْ في مأتم كبير، أم تُراها قد ذابتْ في خضم لذة لا نهائية..؟

أنا آخر من بقي.. سأنطلق في كنف الظلام والصمت.. وكبلادٍ يلفها الضباب، سيلفني حزن مجهول.. ذلك الحزن

الذي لن يبدده سوى الحب.. وهو ما لا أملكه..!".

أغلق دفتره.. اجترع كأساً آخر.. نظر الى الخارج.. رجل وامرأة التفتْ أذرعهما حول خصري بعضهما.. مرّا بسرعة أمام ناظره وهما يحتميان بمظلة.. ومع كل كأس كان غور حزنه يبيت موحلاً متعكراً أكثر، والذهول مستبد به ازاء هذا العالم الذي يستحم تحت المطر..

1979

من مجموعة "الوحشة"

شاعر

ترجمة: فائز يونس

توجه بخطواته صوب السهل الفسيح مُخلّفاً المدينة وراءه.. إتخذ طريقه – دون أن يتلفّت – الى حيث اللقاء بالسماء والشجر والحجر والتراب والتلال والوديان وما يفتن به في الطبيعة.. منذ أمد بعيد وهو يحلم بنزهة يقوم بها لوحده.. طيور أشعار العشق تنوح حبيسة، وهو لا يريد أن يُطلِقها هناك في سماء المدينة.. انشرح صدره رغم ان حزناً – كحزن لحظات الوداع بين عاشقين – يغمر قلبه.. انطلق نحو ذلك السهل لعل دموع الفراق ولهفة العناق ورعشات القُبل تُلهمه بعض أشعار العشق الرائعة.. إنه كمثل امرأة حبلى.. تعرف وقت المخاض.. مخاض الولادة.. وعندها ستمتزج حرارة الدموع والصيحات المجنونة والأسرار التي تملأ رأسه مع بعضها.. عاشق صوفي كبير هو.. يذوب في كل حجر وذرة تراب على سطح هذه البسيطة.. كل الألوان تزدهي وتتموج في عينيه السوداوين.. إنه العاشق الأكبر والمفتون الأوحد على وجه المعمورة.. حينما يهبط عليه

الإلهام، تغدو الأرض كرة يلعب بها على هواه.. وحينما يجتاح الانفعال قلبه فان الغربة والضيق ولذة شفافة أيضاً تختلط لديه ببعضها.. حينها لا يعرف من أي نبع تتفجر دموعه وتروي أرض حزن مجدبة قاحلة محترقة.. ولشدَّ ما كان يألف الإنسان ويركن الى الذكريات الميتة.. فإن عواء كلب جائع ليورثه هماً ثقيلاً.. ألم يستحل عواء ذلك الكلب المرتعش بالتألم والخوف قصيدته في تلك الليلة؟ كانت ليلة باردة.. وكانت لحظات الفراق عن (جيمن) ما تزال تنبض حية في قلبه.. لماذا هجرته جيمن؟ لا يدري.. كان عواء وأنين ذلك الكلب يحكي قصة عذابه ووحدته تلك الليلة.. ان موت حبه ذاك لَهُوَ مأساة أكبر من الشعر.. لذلك بكى.. ليلتها خرج يبحث عن ذلك الكلب.. كانت ليلة تنوء بالبرد والمطر والحزن والشقاء.. لم يجده.. وإلاّ لكان أرقده في فراشه.. باعته جيمن وهو من يمتلك كل رقة القلب هذه.. في تلك الليلة بلّله المطر تماماً.. وقع طريح الفراش.. وفي تلك الليلة – ليلة الفراق – داهمه الحزن والمرض والهياج معاً.. آلان لم يَعُد كما كان وقتذاك.. فيما مضى كانا معاً.. كان بحر روحه يضج بالأمواج المتألقة.. نسي انه مجرد لحم وعظم.. آنذاك كانت اشعاره تمور بطعم قُبَل جيمن ورائحة شعرها ولون عينيها.. كان صديقاً لكل إنسان نقي السريرة.. أما الآن فهو أسير الوحدة والشعر والبيرة والسيكارة.. غدا يضحك أقل مما كان.. ويتحدث أقل..

الوقت ما بعد ظهر نهار ربيعي.. وهو يحث الخطى مسرعاً بدون توقف.. بعجلة.. يريد أن يبتعد ولو لعدة لحظات عن صخب المدينة وضوضائها.. منذ اليوم الذي هجرته فيه جيمن وحتى اليوم لم تُلهمه تلك المأساة أية اشعار.. مد يده

وأرخى ربطة عنقه.. هدّم كل الجسور التي توصله تلك المدينة المسكونة بذكرياته المريرة التعسة.. ألف مرة لعن ذلك الحب.. اعتاد ان يرتاد الحانات ليلاً.. صار سريع التنرفر غير قادر على اتمام قراءة أي رواية.. منذ شهر وهو لم ينتهِ من رواية (مرتفعات وذرنغ).. متى كان متقاعساً هكذا؟ قبل ذلك كان ينجز قراءة أية رواية بنهار واحد وليلة.. كل قصة حب صارت تذكره بقصته هو.. والمركب الذي كان يحمله الى مرفأ مجهول قد تحطم.. لم يبقَ الآن ثمة مستقبل ولا ماض.. سيحيا للساعة التي يتنفس فيها فقط مثل (زوربا).. وقتما كانت جيمن معه، كان للحزن أيضاً لون آخر.

لقد ودعها مفارِقاً.. لم يعد للحدائق بعد ذلك أن تُزهر ولا لنجوم السماء أن تتلألأ.. قبل الآن كان قلبه مرتعاً للرقص كغرفة مزدانة جدرانها بالمرايا، ترقص فيها مجموعة من الفتيات العاريات..! أي منظر رائع خلاب.. مع كل خطوة يخطوها كان يستعيد امتلاك قلبه وجوارحه ويتحرر من أحزان الماضي.. من الذكريات المريرة.. من خوف الليالي القادمات الملأى بالمكابدة.. أية قوة دافقة؟ لم يَعد يهاب حتى الموت.. فليَمُتْ.. على الأقل ستكون ميتة شاعرية وسط هذا السهل الجليل.. لو قضى نحبه هنا فسوف تلثم الزهور البرية شفاهه، وستقيم له الطيور مأتماً وتغطيه بظلالها.. كم هي مُبهِجَة رفرفة أجنحتها.. شاعر يموت بين أحضان الطبيعة.. كم هو جميل.. لا يموت، بل يرقد.. اضطجع وسط سِوارٍ من شقائق النعمان.. وفي اضطجاعه هذا غابت عن ناظريه القصور الفخمة والمنازل السامقة والقبب والمآذن الشاهقة.. راح يمسح وجهه بالأرض والتراب

وشقائق النعمان.. يتمرغ ويتدحرج على ظهره وبطنه واطئاً الزهور والحشائش البرية.. صعدت الى رأسه نشوة ما وأخذت تتعاظم في داخله.. تثيره.. تجعله يهتز متراقصاً.. نهض وخطا بسرعة.. ثم بأسرع.. الزهور تنسحق تحت أقدامه أكثر.. لقد ابتعد عن ضجيج المدينة.. الأشياء الحية والجامدة على السواء في هذا السهل الخالي تلحّ على طلب الوجود والمعنى.. لكل شيء معناه.. الحجر والطير والسماء.. إنها لمعضلة.. كثيرون مثله ختم هذا الهم حياتهم دون أن يتوصلوا الى شيء.. تمنى لو يطير.. سأل نفسه: لماذا لم تنبت للإنسان أجنحة؟ لا، ليس جائزاً.. عندها سيحشر رأسه في ثقب وشق.. وكل يوم سيصطدم الكثير من الناس الطائرين ببعضهم في السماء.. ستنكسر أجنحتهم فوق الشبابيك والنوافذ وسطوح حمامات النساء..! آهٍ من الإنسان.. عَبرتْ بجسده رجفة.. ابتعد أكثر عن المدينة.. أمدينة هي أم مستنقع قيح ودم؟ المدينة أكبر أكذوبة حضارية.. منذ فترة بعيدة تخلى عن صحبة أولئك الأشخاص الذين لا يجدون ذواتهم إلاّ بين أفخاذ المومسات.. هذه الحضارة كداء السفلس من الصعب علاجه.. كان قد ابتعد كثيراً بحيث غابت عن ناظريه – وهو واقف على قدميه – حتى أكثر القصور والمنازل سُحقاً وأكثر المنائر والمآذن علواً.. أشعل سيكارة وأخذ منها نفساً عميقاً.. رفع رأسه.. الدخان الكثيف جعل زرقة السماء الصافية تبدو لعينيه غائمة.. لكنه سرعان ما تبدد وتلاشى وظهرت السماء كما هي.. كانت بعض السحب بلون القطن تنتقل في قبة السماء على غير هدي وكأنها قطيع من الفيلة الهاربة.. وأحياناً كانت تغدو كقطيع جياد.. لكنها سحب

عقيمة.. رفع نفسه على رؤوس أصابع قدميه.. عبَّ برئتيه الهواء الطلق.. دار حول نفسه عدة دورات كراقص باليه.. أصابه دوار خفيف.. سقط على ركبتيه، وراح يدقق النظر في شقائق النعمان، في الخال الأسود الذي يتوسطها..!

في نوروز العام الماضي فقط كانا معاً تغمرهما النشوة.. وما أن انقضى نوروز آخر حتى كانا مفترقين عن بعض.. في نفس هذا السهل الفسيح أقيم الاحتفال بنوروز العام الفائت، وفي ذات هذه البقعة كانا يدوران ويقفزان ويثبان كظبيين جبليين.. عاد الخال الأسود بذاكرته الى سالف ما كان:

"- جيمن.. هذا الخال يشبه الذي على وجنتكِ..

- أهو شعر أيضاً..؟

- أبداً يا جيمن.. خالك أنتِ مُخلّد أيضاً، بينما هذه الورود لا تنعم في السنة إلاّ بربيع واحد فقط..

- توقف، الى أين تأخذ بيدي؟

- الى وسط سنابل القمح..

- لكن.....

وضعتَ أصابعك على شفتيها الدقيقتين.. اضطجعتما سوية.. وضعتْ يديها بين يديك.. اقتربتْ منكَ.. استقرتْ نظرتك على شفاهها الندية الدقيقة الضاجّة بالشهوة.. كانت شفتها السفلى تختلج بالخوف واللذة.. إن شفةً تختلج منتظرة ضاجة بالفتنة والنهم لتوقظ رغبة حتى إنسان ميت.. كانت أصوات وصياح وجلبة النساء والرجال والأطفال تصل سمعك.. وبغتة، ذبتُما في قبل حارة..

- هذه أول مرة لي..

- بماذا أحسستِ؟

- بانهيار أول جدار للخوف والخجل..
- وماذا أيضاً؟
- بالخطيئة..
- كم مرة قلتُ لكِ أن لا خطيئة في نواميس العشق؟
- لا مناص..".

انتشلته رفرفة طائر من شروده.. زحف على ركبتيه الى الموضع الذي حلّق منه الطائر.. راح يُنقّب بين الورود والحشائش والأشواك.. فإذا به أمام عش وبيضتين.. وكمن سقط قلبه والتقطه.. التقط إحداهما بلهفة ورِقّة ووضعها على راحة يده.. لم يعرف لأي طائر هي.. سرعان ما انتهر نفسه مُعيداً البيضة الى العش.. نهض.. مضى بالقرب من زمرة كلاب.. أحس بفزع حقيقي منها.. تفرقت الكلاب مبتعدة عنه.. هي الأخرى خافتة.. وسرعان ما تبادل معها نظرات محملة بمعاني الحب والقربى.. وسرعان ما أقْعَتْ هي على قوائمها الخلفية.. احترقتْ سيكارته تماماً دون أن يعبّ منها نَفَساً آخر.. رفع بصره.. كانت الحشائش والزهور البرية تتموج متمايلة مع كل نسمة ريح.. والطيور والعصافير تملأ أرجاء السهل الرحيب بتغريدها وزقزقتها.. والزهور تتراقص وكأنها طَرِبة لتلك الأنغام.. أخذ يجري كظبي بري يهرب خوف الاصطياد.. وعلى بعدٍ منه أخذ حصان بري يعدو متعباً.. أحس بلذة ما.. بدت الأشياء أكثر صفاءً لناظريه.. اجتاحه هَوَسٌ لا باعث له.. كان يشعر وكأنه طفل عاد من الميتم يوم الجمعة الى حضن أمه.. طرد الكوابيس من مروج خياله.. ما أشبه هذا السهل بحضن أمه الطافح بالحنان.. لكن الخشية واللجاجة لا تتركانه لحاله.. سقطتْ زهرة على حجارة وانسحقت تحت قدمه.. تخضب الحجر

بلون الزهرة.. خالجته رغبة البكاء في حضرة هذا الجمال الساكن الهادئ الذي لا يَسْلَم من أذى وغطرسة الإنسان.. وقف لبرهة وجيزة.. حمل النسيم الى أنفه رائحة عفن نتنة.. أمر غريب أن يحل العفن في هذا السهل الخلاب.. جال ببصره قريباً وبعيداً في أنحاء السهل المغمور بالخضرة والحشائش والسنابل وشقائق النعمان.. تطلع الى الوديان والهضاب.. الى أبعد من ذلك حيث الأفق الساحر البهي يربط الأواصر بين السماء والأرض.. لا شيء يبدو.. أيمكن أن يكون حيوان ما قد نَفَقَ؟ لكن في ربيع كهذا لا يمكن لحيوان ما أن يُنفق..! لو كان الفصل شتاءاً لكان ذلك ممكناً.. إلاّ أن كل شيء جائز.. اضطربتْ بحيرة الجمال تلك.. غام نظره.. ضاق بأنفاسه.. لم يود أن يستنشق الهواء ملء رئتيه.. امتقع وجهه.. كان على وشك أن يسرج جياد شِعره حينما زاغت وانطلقت تعدو.. طارت أسراب الطيور الجبلية التي كادت تكون أليفة الى سماوات أخرى.. جفّ منبع نهر أشعاره الذي كان ينوي إطلاقه في هذا السهل.. ما هذه الرائحة اللعينة؟ عندما طالع تَراقُصَ الحشائش وتماوُج السنابل، كان كمن يُهيئ نفسه لأداء دور في مسرحية ذات فصلين.. شرَعَ يمشي بخطوات قصيرة عجلى متوجهاً نحو تلة صغيرة.. وصلها، وشَرَع يتسلقها.. هدّ التعب قواه.. التقط أنفاسه عند أعلى التلة، ثم راح يهبط سفحها متدحرجاً.. لم ينتبه ساعتها الى انه قد سحق في تدحرجه عدة شقائق نعمان أخرى.. أخذ يحث الخطى مسرعاً نحو ذلك الموضع الذي شغله عن سحر الجمال.. انحدر الى أسفل التلة.. تطلع الى أسفل سفح التلة.. انها واحدة من المزابل.. أراد – بدل كتابة الشعر – ان يُسَطّر في دفتره: "المزبلة نتيجة.. والتقيؤ هو السبب!"..

أخذ يقترب.. ازداد اقتراباً.. جلس مُقرفصاً عند طرفها محدقاً فيها.. زايلته أحاسيس الحب والرغبة.. خمدتْ فورة الشعر.. غربتْ شمس العشق.. أين البهجة والذكرى والقبل والرعشات والطيور والزهور البرية والسماء والتراب والحجارة؟ كلها غدا لها لون ومذاق آخران.. المزبلة ذكرته بالمدينة وصخبها.. ألقى نظرة على تلك الأشياء التي كانت من قبل نموذجاً للجمال وموضعاً للتقدير وشواهد لنوازع الإنسان ورغباته وعلاقاته.. كانت تتمتع بقيمة ومنزلة في نظره ونفسه وقلبه وشعوره.. وها هي الآن مرمية مهملة هنا.. متعفنة وستتعفن أكثر.. ليس الإنسان فقط، بل ان لهذه الأشياء العديمة الفائدة.. الميتة قصصها الخاصة أيضاً.. بداياتها ونهاياتها.. تراجيديتها وكوميديتها.. انها عالم آخر يخاطب العقل بلغة أخرى:

- قنينة البيرة المحطمة هذه، الغارقة الآن في الأوحال.. تُرى كم من موائد العشاق قد ازدانت بها؟ كم من الآهات والرغبات والشكاوي والآلام، من الأحلام الخضراء والليالي الحمراء قد شهدتْ؟

- علبة السكائر الفارغة هذه.. رفيقة ومبددة هموم أي حارس ليلي كانت؟

- وهذا الحصان، حصان أي آغا كان؟ من يقول انه لم يكن حصان عربة؟

- وزوج الأحذية هذا؟

- وهذا الخاتم..

- وذاك..

- وتلك..

- ملحمة ليس لها من خاتمة.. جنون.. قيامة بحد

ذاتها.. في أي الأشياء تفكر؟

اختلطت عليه الحقيقة بالوهم.. الأشياء الحية بالميتة.. الحاضر بالماضي بالمستقبل.. الأسئلة بانعدام إجاباتها.. جميعها شلّتْهُ.. شعر انه امرؤ جاهل كلياً.. لم يرغب في اطلاق العنان لخياله أكثر من ذلك.. أحس بالخجل لتفكيره الصبياني هذا.. أمامه وقت طويل لكي يفهم العشق.. ويفهم هذا العالم.. ويميز بين الأسئلة الصعبة واليسيرة.. على الأرجح، ان الشجار الذي وقع معه هذا الصباح جعله متكدراً هكذا.. كان الذنب ذنب ذلك الرجل.. "اصطدم كتفه بكتفك.. استدار الرجل وبصق عليك بوقاحة.. تلفّتَ كل من صدف وجوده في جانبي الشارع.. قلتَ له: معذرة! لكنه هوى بصفعة من يده على جانب وجهك.. الشجار والشاعر على طرفي نقيض.. أذعنتَ صاغراً.. وعندما وجدتَ نفسك في شارعٍ خالٍ رحتَ تبكي بصمت.."..واليوم، جاء ليقطف أزهاراً.. ليصغي الى تغريد الطيور.. ليكتب شعراً لعيون جيمن.. شعراً وداعياً.. لكنه وجد نفسه – أكثر من أي وقت آخر – خالي الوفاض عديم القريحة.. لماذا؟ لا يعرف.. جاء ليبتعد عن صخب السيارات.. خطر بذهنه ان يرجع بسرعة.. الى كنف وحدة غرفته ومعاودة قراءة رواية (مرتفعات وذرنغ) الرائعة.. لإتمام الفصل الأخير منها ومعرفة ما الذي سيحل بالعاشق المفتون (هيشكلف) بعد موت حبيبته وفاتنته (كاثرين). يا لذاك العشق الملتهب العاصف.. انه لَعاصفة وليس عشقاً.. كم هو جميل ورائع وقتما يحزم لها باقة الزهور الخريفية.. في ذات اليوم تسقط كاترين مريضة في بيت زوجها.. تعاني الاحتضار.. الجور بارد جداً.. إلاّ انها تفتح الشبابيك غير عابئةٍ بالهواء البارد

الذي كان ينفذ الى لحم كتفيها كسكين قاطع.. كانت تتوق الى رؤية الأزهار الجبلية واستنشاق عبيرها.. تلك الزهور التي كان هسكلف يقدمها لها باقات.. عندما فتحت الشبابيك اندفعت الريح العاتية الى الداخل تاركة الستائر تتراقص.. راحت قريبتها تتضرغ إليها بينما هي تصرخ: "افتحيها.. انها آخر مرة لي".. عصف بها البكاء.. راحت تعارك الجدران وتُعضعض الستائر بأسنانها.. العشق جنون.. وهي تحتضر.. وهسكلف هو آخر ما بذاكرتها.. أكان هناك على سطح هذه المعمورة عشق كهذا؟ كلا.. كانت تقول:

"لن أموت وحيدة.. سينبغي ان تدفنونني على عمق اثني عشر قدماً.. لكنني لن أموت وحيدة أبداً.. لن أرقد كذلك وحيدة.. أبداً.. أبداً.. هسكلف هو أمل وغاية حياتي.. كل ما في هذه الدنيا ينتهي ويفنى.. ووحده هو يبقى حياً.. وجودي وحياتي سيستمران.. حبي له كالحجارة المدفونة تحت الأرض تماماً.. انني لا أحبه فحسب، بل انني أنا نفسي هسكلف.. وهو خالد في عقلي أبداً.."

ما أعظمه توحّدُ هاتين الذاتين.. يا للتوحد.. يا للذوبان!!

لا، إنه ليس إلاّ أدباً وحسب.. قصة.. تمنى من صميم فؤاده لو كان هو هسكلف.. تُرى، هل أن عشقاً كبيراً أبدع هذه القصة.. أم أن القصة هي التي صورته بهذه العظمة والقدسية؟ أيهما؟

توصل الى الاقتناع بأن أمامه الوقت الطويل قبل أن يكتب شعراً خالداً وعظيماً.. وأن أمامه الوقت الأطول قبل ان يعيش عشقاً أكثر قدسية كذلك الذي ورد في الرواية..

أخرج دفتره الصغير، وكتب:

"ان ذلك العشق الذي كابدته لم يكن أهلاً لشعر خالد، وإلاّ لكان الشعر هو الذي كتبني!"..
أواخر 1977

من مجموعة "الوحشة"

لوزان

ترجمة/ نوزاد احمد اسود

بدلال رفعت "لوزان" رأسها، ازاحت جدائلها التمرية الملفوفة التي كانت تحيط بجيدها، وسألت سؤالا ينم عن الملل والعتاب..

-(كفى يا لاس، لليال عديدة نجلس انا وانت في هذا البار الهادىء المعزول وانت تتحدث دوما عن كردستان واجزائها الأربعة او الخمسة، لقد استوعبت تلك الجغرافية اللعينة افضل منك، اليس حريا ان تترك هذا الموضوع لليلة واحدة؟).

نظر "لاس" الى "لوزان" بحزن وبعينين تملؤهما

عفة الشهوة و "الهم" المبكوت، كانت اضواء المصابيح الصفراء والحمراء قد اضافت سحرا محرقا الى عينيها الخضراوتين، عينان لا يبدو عليهما اثر للحزن عليهما ولا يبدو أنهما قد أذرفتا الدموع في يوم ما لشيء ما او لشخص ما. بين حين وآخر كانت تزيح شعرها التمري بدلال عاشقة بأناملها الرقيقة الناعمة، وبانحناءة من رأسها يسيل شعرها كما كان. كانت تحاول اضفاء خفائف تصرفاتها الأنثوية عن لاس عمدا او عن غير عمد، واحيانا اخرى ترشف من فنجان القهوة بشفتها السفلى، لم تكن تحتسيى القهوة، فقط كانت تمس حافة الفنجان بشفتها السفلى بحركات كانت كافية لأثارة جنون "لاس" وهيامه.

كانت عيناها الماكرتان العابثتان تناديان ملء البار: "انهض وامسك بيدي.. انهض وعانقني". لم تكن عيناها متشابهتين، اليسرى يقطر منها العشق واليمنى تنبع منها الشهوة، ما ان تغمض اليسرى تشعل اليمنى لتضيء ركنا مظلما قصيا. عندما ابعدت الفنجان عن شفتها السفلى بقي شيء من الغبار الأسود والطري بين ثنيات شفتها تلك. والبقع السوداء لتلك القهوة العربية التي كانت لوزان تفضلها لم تستطع إخفاء دم شفتها السفلى الحار، تلك الشفاه التي آخذت بتلابيب لاس في برج (آيفل) في إحدى الأماسي المغبشة. في تلك الامسية كان الاثنان في مهب نسيم منعش أخاذ، كانا ينظران الى الاضواء التي تنير باريس من الف جهة، ودون وعي منهما ودون الالتفات حولهما التصق لاس الخجول بلوزان امام حشد من الناس.

بأرهاق رفع كأس البيرة متطلعا من خلال لونها الذهبى الى لوزان متأملا، وقد ارتسمت بسمة تائهة على شفتيه لتتحول الى ضحكة معلنة، قالت لوزان:

-(لماذا تضحك؟)

-(ان ملامحك خلف هذا الكأس تبدو غريبة!)

-(مشوهة..؟)

-(اجل.. ولكنها جميلة ايضا)

-(ولكنني اتذكر مرة كنا هنا، قلت لي: انا مرهق الى درجة لا استذوق معها الجمال..)

-(لوزان.. من حقك ان تعاتبيني، اعلم كم انا مقصر بحقك، في الليالي تجلسين معي للاستماع الى معاناتي وآلامي، ربما لايوجد باريسي واحد يجب الجمال بقدرما احبه واستطعمه.. ولكننا نحن الكرد لانستطيع التمتع بأي جمال اذا لم نمزجه مع الحزن والأسى، انت لا تعرفين الكرد جيدا، بمجرد بروز رأسه من رحم امه يألف الأسى ، يألف الألم والدمع والمصائب التي تنساب مع حليب الأم في دمائنا، عندما تمرجح الأمهات مراجيح اطفالهن وهن يتلون الترنيمة باكيات.. كثيرا ما اشعر بأن انين وحزن امي قد استقر في روحي ومن المستحيل الخلاص منه..)

-(أخشى ان تكون مصابا بالمرض نفسه للروائي المعروف لدينا والذي بقي أعزبا.. أتعرف من أقصد؟.. غوستاف فلوبير..)

-(أجل .. كان هو الذي يقول: باستثنائي انا فأن الرجال جميعا سعداء، هؤلاء يتفرجون على صدور وأثداء النساء وأقدامهن وسيقانهن ويتمتعون بها.. لكنني

انا لا ارى من تلك المشاهد غير الهياكل العظمية المخفية تحتها..)

-(إذن.. انت فلوبير آخر..؟)

-(لا يا لوزان.. انا و فلوبير مختلفان، ربما أحسّ هو بالموت بصورة قاتلة، لم يستطع فلوبير مشاهدة الجمال من خلف الموت..)

-(الآن دعك من فلوبير.. قل لي لماذا تتهرب مني، لماذا لم تنم تلك الليلة في غرفتي؟ انت تعلم كم انا بحاجة اليك، لم انم تلك الليلة حتى الفجر ، لقد توسلت اليك بنفسي، ألم تخجل وقد تركت امرأة لوحدها؟)

-(كنت أكثر شوقا منك.. من العار احباط امرأة، والأكثر عاراً ان تكون هي حبيبتك، يجب ان تنام جنبها عندما تكون بحاجة الى انفاسك الحارة..)

-(تذكرت كلمات زوربا عندما ذهب الى الارملة.. كان في اعتقاده اذا لم يذهب الى امرأة وحيدة فإن الله سيعاقبه يوم القامية بالجحيم..)

-(لوزان.. ربما احب الرجال جميعا ان يكونوا مثل زوربا، واغلب النسوة يرغبن في رجل مثل زوربا..)

-(من المستعبد ان تكون أنت زوربا، كل مرة اسأل نفسي: لماذا احببتني انا من بين فتيات السوربون كلها؟)

-(ربما لأننا كلينا نعشق الأدب)

-(نعشق الأدب فقط أم نعشق بعضنا أيضا)

-(أه.. انا اتعجب من رومانسيتك، ربما كنت الرومانسية الوحيدة في باريس!)

-(أي المجنونة الوحيدة)

-(انا لم اقل هذا.. لوزان ان اشخاصا مثلي ليس في

باريس فقط بل ربما حتى في بلادي ينبغي ان يركنوا في المتحف..)

-(لااعتقد، عندنا ان الشرقيين هم في اوج الرومانسية)

-(في وقت ما كان الأمر هكذا، لكن الآن ليس كذلك)

مرة اخرى رفعت القهوة وهي تتأمل الثمالة الراكدة، وهي تدير رأسها بنعومة مع انغام موسيقى (الدانوب).. متمتمة..

-(في تلك الليلة، نظرت الفتاة العربية في قسم الفلسفة في فنجاني وقالت: انك ستتزوجين رجلا غريبا..)

-(وهل صدقت انت..؟)

-(ليست المسالة التصديق، لكن بعض التوقعات جميلة حتى وان كانت كاذبة، انا نفسي احب الصدفة، كل ما هو مبرمج ونظامي لا اطيقه..)

-(غريب.. فتاة سويسرية وطالبة فلسفة في السوربون تكره النظام.. في بلادي كل شيء يحدث بالصدفة، الحياة والموت والزواج.. حتى الثورة والانتكاسات، لكن ليست الصدفة التي تتكلمين عنها، هناك كل الصدف او معظمها بشعة.. لذا انا وعلى العكس منك اكره الصدفة حتى العظام.. كنا شعباً رافقتنا الصدفة دوما ومنحنا انفسنا للقدر..)

-(لندع الصدفة جانباً.. لنتحدث عن انفسنا، عني وعنك في تلك الليلة عندما تحدثت عن كردستان...)

توقفت عن الكلام ثم تطلعت يمنة ويسرة حيث الموائد-باستثنائهما –قد التصق العشاق ببعضهم.. وضعت فنجانها متحسرة وقد شبكت اناملها العشرة بأصابع لاس،

ارخى هو بدوره اصابعه المرتجفة، تأمل اناملها وقد بهت صبغ اظافرها، وتعجب من اصفرار سبابتها بسبب دخان السجائر. عندما شاهد لوزان وقد احنت رأسها تائهة، اراد ان يجعلها تكمل الحديث، عندما رفعت رأسها كانت مرتبكة تماما، سألت بحزن:

-(لاس.. في تلك الليلة قلت لي لماذا لا تغيرين اسمك؟ استغربة من طلبك.. لم افهم.. اسمي ماذا به؟)

-(حبيبتي لوزان.. لوزان اسم جميل وموسيقي.. لكنه اسم ليس بالنسبة لي فقط، بل بالنسبة للكورد جميعا، يرتبط بكارثة.. بل بخيانة..)

-(اية كارثة.. اية خيانة؟)

-(لا تتأثري.. ان سؤالك سيحول ليلتنا كبقية الليالى الى ليلة مزعجة.. علي ان اتكلم عن تجزئة كوردستان..)

-(الآن فهمت.. تقصد معاهدة "سيفر" لعام 1920 حيث وعدوا بأقامة دولة للكورد ثم نكثوا وعدهم حسب معاهدة لوزان عام 1923... ولكن ليس لهذا علاقة بي.. لو كنت ادرك انني التقيك كنت اتمنى ان لايسميني والدي بأسم لوزان لخطة ميلادي..)

-(أي منهم من اهل لوزان؟)

-(لااحد.. والدي من قرية شمالي لوزان)

بهدوء سحبت اناملها من اصابع لاس وبحزن اخرجت سيجارا من العلبة حيث قدم لاس القداح بيد مرتجفة، لم يرغب تقريب النار من السيجار المستقر بين شفتيها.. تأمل للحظة.. كان يخجل ان يؤذيها:

-(لوزان.. في قلبى سرٍ، اريد ان ابوحه به لك)

-(تكلم يا لاس)

-(تتذكرين تلك الليلة في غرفتي وفي اوج العناق كيف انتفضت كرجل لدغته افعى..)

-(لاتذكرني بها.. لقد كرهت نفسي في تلك الليلة. كأنك لا تحبني يا لاس، احيانا اشعر وكأنك تمقتني..)

-(ليس هكذا يا لوزان.. انت هنا اصبحت لي اختا واما ومن ثم حبيبة، لولا لطفك لاختنقت في الغربة..)

-(اذن هذه عقدتك معي.. لماذا لم تتكلم كل هذا الوقت؟)

-(كنت خجلا.. لأنني اعلم لا انت ولا اسمك ليس لها علاقة بتلك المعاهدة المشؤومة التي جزأت كوردستان.. ولكن لا ادرك كيف.. في تلك الليلة وفي حرارة العناق عندما صرخت : "لوزان.. حبيبتي لوزان.." تذكرت تلك المعاهدة اللعينة فجأة وشعرت كأنني لست لاس، بل رجل شرقي متعطش يشتهي امرأة وفتاة رائعة مثلك..

فجأة شعرت، رغم غرابة هذا الشعور وعدم منطقيته وعقلانيته.. شعرت بأنني تلك الكوردستان المجزأة.. شعرت انني لست لاس بل ارض مجزأة.. شعرت كأن رأسي وشفتاي وأعضائي التي تجول في ملامحك الناعمة.. شفتيك.. اذنك.. جبهتك.. شعرت بها جسماً منفصلا عن جسدي.. بقيت يدي اليمنى بين ثنايا شعرك ويدي اليسرى بأصابعها الخمسة والتي كانت تدغدغ خاصرتك و وركك.. وقد تناثرت.. وقعت شفتاي في فمك حاولت الصراخ وجدت لساني ملتصقا بسقف حلقي، لقد تساقطت جميع اسناني وتناثرت فوق ثدييك المتينتين.. فقط العينان بقيتا لسوء الحظ تبصران.. ولو أنهما كانتا ترنوان بعجز كامل الى جسدى المبعثر.. جسدي

الممـزق.. حيـث تنسـال منـه الـدماء علـى سـريرنا دون مبـالاة، وكـان جسـدك المتفـتح ينتظـر بـألم سـواعدي المتناثرة لتحتضنه.. ينتظر شفتاي المنقطعة لتقبله.. في تلك اللحظة استحييت من عريي.. وأنت من عريك.. من بعضنا.. استميحك العذر يالوزان.. لم اقدر.. ماذا افعل لم اقدر.. رجل ممزق مرتبك مبعثر مثلي وقد تناثرت اظافره واصابعه، انفصل رأسه عن الجسد، من العسير جدا ان يحتضن اجمل فتاة في هذه الدنيا.. امام ناظري طفت اصابعي ومن ثم يدي اليمنى وبعدها اليسرى، ساعداي وساقاي ومن ثم جذعي على بحر الدم وقد غطست انت الثقيلة في دمي وتهت.. وكنت ابحث عنك بجنون.. في الليلة نفسها فقدت اجزاء جسدي جميعها.. وهي تبحث عن بعضها في بحيرة دمي التي كانت ترتفع باستمرار..تبحث عنك وعنى انا.. اصبحت في عمق بحيرة الدم..

حيناً وبسباحة تطوفين فوق بحيرة الدم ثم تختفين بسرعة، ولكن كان من المستحيل في غرفة ملأى بالدم ان تلتصق اجزاء جسدى بجذعي، والاكثر محالا هو ان اعثر عليك في بحيرة الدم تلك والتي تحولت امام ناظري الى محيط دم.. لا تؤاخذيني يا لوزان، انا اكثر رجال الأرض انحطاطا لأنني ادرت ظهري في قمة الشهوة لامرأة ناعمة مثلك.. افهميني يالوزان.. تمعني في جيداً.. انا شخص مبعثر.. ليس فقط شعبي وأرضي و وطني مبعثر ومشتت، بل انا نفسي ممزق أيضاً.. انت تعلمين ماذا كان والدي يعمل؟ انه اقدم قصابي اربيل عمراً، واربيل اقدم مدن العالم.. لقد مزق والدي امام ناظري

آلاف المعز والخرفان والأبقار، وامام ناظري كان الدم يسيل من اعناق تلك الحيوانات المجزورة مكونا بركات تحت اقدامي، كنت انا البدين القذر امسك بأرجل الحيوانات التي يقطعها والدي اربا.. وعندما كان يغضب يضربني بمقبض سكينه الملطخ بالدم، وكثيرا ما كان دمي يمتزج مع دماء تلك الحيوانات..

لوزان.. مزق ذلك الرجل روحي الى اجزاء.. في باريس وربما في فرنسا كلها لن تجدي رجلا قاسي القلب مثله، دموياً وشهوانياً معا.. كان دوما يوزع اللحم مجانا على الأرامل كي يجعلهن مديونات له ومن ثم تتزوجن به غصبا.. انا لا اعرف اسماء اشقائي وشقيقاتي، ربما كان لي اخ حمال في اسطنبول.. واسكافي في طهران.. دعيني ولا تثيري اشجاني، كل شيء في حياتي مخلوع الجذور.. انا من هنا ومعك شعرت في تلك الليلة إن بلادي وشعبي وكوردستاني ليست ممزقة فقط، لا يا حبيبتي لوزان، بل حتى أنا نفسي ممزق مثل الماعز العاجز الذي يأخذ القصاب بأذنه ليذبحه فيبدأ الزعيق..

آه يالوزان، الآن انا كبرت ولا استطيع تجميع اجزائي المبعثرة.. اعذريني اذا كنت احدثك بهذه اللهجة الدموية.. لحد الآن انا مندهش.. فتاة سويسرية ملتهية ب (المترو) والفلسفة في باريس، بلد الشبان الفاتنين، تعشق رجلاً مثلي.. في بلدي كانت اشباح اللواتي كنت احبهن تتلاشى حتى في احلامي بسرعة.. لا.. ارجوك.. انا لم اصمد امام حب امرأة.. انا اموت.. اموت من حسرتي..)

كان لاس وهو يتحدث يذرف الدموع الكبيرة، تلك الدموع التي تذرفها الامهات الثكلى والارامل على

أولادهن وازواجهن. كانت لوزان ترنو الى لاس بحيرة واندهاش.. فتاة لم تجرب الحزن، ما كانت تدري كيف تواسي هذا الشاب الرومانسي المجنون، هذا الشاب الذي لايخجل ان يبكي في اكثر الاماكن ازدحاما.. لا تعلم لماذا اصبح اسمها مبعث كل هذا الحزن والبلاء. بصعوبة كانت تنفض رماد سيجارها في المنفضة، قالت : (كفى لاتبك كي لا ينتبه الآخرون..)، رد بعسر: (آه لوزان.. انت تخجلين من مشاهدة احدهم لي وانا ابكي في البار.. نحن الكورد تستمع الدنيا كلها لسنوات لأنيننا ودموعنا.. ان اكثر الشعوب تمدنا صامت ازاء سفح دمائنا ودموعنا.)

-(حسنا.. حسنا.. فهمت.. غدا احاول ان اغير اسمي.. أي اسم توده انت.. ما رأيك في اسم كوردي؟)

-(أي اسم تتسمين به.. فأنت لوزان)

-(انت ظالم جداً.. انا لم اكن هنا عندما وقعت الدول معاهدة لوزان وقسموا بها كوردستانك..)

-(لا تثوري يالوزان.. بثورتك تعذبين روحي اكثر، انا لم اقل ذنبك.. فقط اطلب منك المهلة كي اتخلص من هذه العقدة.. ساعديني.. انا اخشى لو التقينا في ليلة اخرى في السرير ان اؤذيك مرة اخرى.. لا تتركيني يا لوزان.. انت الآن مأواي، بدونك سأموت.. احتمليني لفترة يا لوزان حتى لو كان تظاهرا.. اعلم انني اتعبك.. اعتبري نفسك طبيبة وانا مريض مسكين و وحيد.. اعينيني يا لوزان..)

-(غير ممكن يا لاس.. انا فتاة واقعية.. لا توجد فتاة تتحلى بالصبر مثلي.. مستقبلي معك غامض.. اعذرني

اذا قلت انا لم اتعود على معاناة كهذه.. قبل لحظات سردت لي حلما مخيفا، فيضان من الدم.. من العسير ان افهم حلمك المخيف هذا).

-(إنه صعب بالتأكيد.. لكنه حلم رجل مريض.. مريض لحد الموت..)

-(ولكنني فقدت صبري.. وكفى)

-(لوزان تحمليني.. لا تتركيني)

-(كفى.. انا يائسة منك.. نتيجة الحب هذا معروفة.. الفراق لا غير..)

-(تمهلي.. بقيت لي كأس او اثنتان)

-(لقد انتهى كل شيء..)

-(الى اين؟ وعدتني ان آتيك الليلة)

-(كان وعداً.. لكنني ندمت.. لاتتصرف بنزق كالسابق وتزعجني في منتصف الليل..)

-(الوقت مبكر يالوزان.. انت لا تعلمين انني اموت في كل مرة حينما تسأمين مني وأراك في ليلة تالية ملتصقة بشاب آخر..)

-(انا لست بمريم.. في الحقيقة.. كل مرة اقرر التخلي عنك.. ولكن..)

-(اكملي..)

-(انت تعلم..)

-(فهمت.. آتيك ذليلا.. اتوسل اليك كي تصالحيني.. انت تعلمين كم هو مهين لرجل شرقي ان يقع على حذاء امرأة..)

-(ولكنك تدرس في السوربون يا لاس..)

-(اللعنة على سوربونكم..)

-(يبدو انك جئت بعقلية فلاح ولا تبغي ان تتغير)
-(أه يا لوزان.. مرة اخرى تريدين اهانتي.. انت المتحضرة تشتميني)
-(اسمع يا لاس.. يبدو اننا لانتفاهم.. الحقيقة عندك هي الاهانة..)
-(لا تغضبي كي لا يسمعنا الآخرون..)
-(لاتخف.. لا احد منتبه لنا.. انظر.. هؤلاء منهمكون في نعيم العناق والقبلات.. اما نحن فنتعارك)
-(اعذريني لوزان.. كفى.. لقد فهمت)
-(لا.. اسمع.. لليال عديدة استمع الى شكواك ودموعك.. الحق ان تستمع انت الليلة الى معاناتي.. انا ولحد ألآن ولأجلك بقيت متشبثة بعذريتي..)
-(لا.. انت ذكرت مرة ان والدك رجل قروي..)
-(قلت.. ولكن انا الآن في باريس وانا حرة.. ومن حقي ان اتصرف كما اشاء..)
-(لهذا السبب اريدك.. لم اجد في كل باريس اطهر منك..)
-(عقلية عجيبة..)
-(لماذا العجب..؟)
-(لاس.. عفة الفتات ليست في ذلك الغشاء الرقيق، قد يمزق اثناء صعود ونزول.. اذا كانت العفة والطهارة موجودة فأنها في الخيال وفي الروح والدماغ..)
-(ما هي العفة عندك؟)
-(بقاء الخيال طاهراً)
-(يعنى انك متضايقة لبقائك عذراء والخطأ خطئي انا؟)

-(انا لم اتحدث عن الخطيئة)
-(حسنا اذا كنت متضايقة لهذا الحد من عذريتك فتخلصي منها..)
-(ها.. اراك تنفعل.. هذه المرة تريد انت اهانتي..)
بحزن اطفأت سيجارها في المنفضة وبغضب سحقتها لمرات عدة ثم سحبت قطعة منديل ورقية ومسحت بقية رماد السيجارة من انامله .. وكان لاس يتمعن بحزن وبعيون دامعة في ملامحها وحركاتها وجمالها الذى بيدو من المستحيل الامساك به... جمال بسيط من غير تعقيد. رفع كأسه بيد مرتجفة وارتشف ما فيها دفعة واحدة... في اللحظة تلك نهضت لوزان ومسكت علبة السيجار لتلقيها بغضب في حقيبتها .... وتركت عدة فرنكات على المائدة.. بصوت مبحوح مليئ بالخوف سألها لاس:
-(ماذا بك يالوزان؟)
-(انا ذاهبة..)
-(لماذا ؟ .. ماذا حدث؟)
-(قلت لك ... هذه لليلة احبطتنى بشدة ... لهذا انا ايضا اريد احباطك)
-(تلتقين مع عاشق أخر؟)
-(هذا يخصنى انا)
لمرات عديدة شاهد لاس هذا المشهد في الافلام، فتاة غاضبة تترك حبيبها وحيدا على المائدة.. ولكن لم يخطر في باله قط ان يحدث هذا المشهد معه وبقسوة بالغة في بار مركون كهذا... قالت غير مبالية:
-(لاس.. لاتنزعج.. انا ذاهبة.. في تلك الليلة شاهدت نفسك وانت معي في السرير ممزقا، وها انذا اشاهدك

الأن كذلك .. كنت اتمنى لو جمعت اجزاءك المتناثرة.. لا استطيع مشاهدة رجل ممزق هكذا..ولست من الفتيات اللاتى بامكانهن مواساتك وتهدئة خاطرك..انا سعيدة هذه الليلة بتركك في مأساتك هذه لوحدك.. حتى تفهم ان المواساة لاتعنى شيئا.. اعذرنى اذا كنت اؤذيك اكثر .. انا بحاجة ماسة الى رجل...احد عشاقى القدماء... راغبة في حنان وفي عطف، بل في نار شهوة.....)

-(لا تكملي يا لوزان... فهمت قصدك...)

-(لا.. اسمع .. في هذه الليلة سوف ابحث في الازقة والبارات عن رجل ارافقه الى غرفتى.. رجل واحد لا رجل ممزّق الى أربعة اجزاء!)

سحبت الكرسي الى الخلف، كان العشاق على الموائد منهمكين في احلى لحظات غرامهم.. لا احد انتبه اليهما حيث كانا منذ فترة يتعاتبان.. معاتبة غلبت صدى وايقاع موسيقى (الدانواب) .. بخفة ادارت له ظهرها وخطت بنشاط.. دفعت البوابة الزجاجية وصارت على الرصيف.. توقفت لحظة... التفتت يمنة ويسرة وعبرت الشارع بسرعة.. بقامتها الهيفاء كانت تبدو من خلال اضواء السيارات مثل جسم سحرى لامع، كان لاس يتبعها حتى اختفت عن الانظار وقد هدأ البار باستثناء الهمسات و موسيقى الدانوب، لم يكن يسمع أي صوت آخر.. ملأ كأسه ورنا الى الفرنكات بحزن... بإنهاك امتد الى الخلف متأملا رسوم وزخرفات السقف... بشراهة احتسى كأسه دفعة واحدة.. كان خجلا من جلوسه هكذا وحيداً لوقت اطول.. تحرك.. لكنه لم يستطع الوقوف .. نظر الى نفسه متعجباً.. لقد تناثرت يداه وساقاه وسقطت

تحت المائدة ... كان العرق ينصب من عموده الفقري... بحسرة تأمل في العشاق الملتصقين تحت الاضواء الخافتة، لم يكن يدرك هل كان ذلك حبا وعاطفة مجردة ام شهوة شبابية... وضع روحه العذبة امام شلال موسيقى الدانوب العذب لكي يغسلها.. هل يصمت ام يصرخ ليجمح حوله السقاة والعشاق.. لا.. الافضل ان لا يطلع على حالي احد، كان يحدث نفسه في منتصف الليل بعد خلو المكان، اتوسل الى السقاة ان يطلعوا على حالي ولايخافوا.. لأنه لم يحدث قط ان جلس رجل ممزق الاجزاء على مائدة يشرب ويبكى.. ان يرفعوا جذعك مع الكرسي و يرفعوا يديك و ساقيك فيما بعد.. اتمنى ان لا ينسوا شيئا.. في الليالي لاتنام باريس، فهي الواعية لكل شئ.. باستثنائي انا.. في هذه الليلة اضواؤها لاتنير قلبي المعتم.. بلسان اخرس و بأنين ابكي واقدم لهم عنوان لوزان، حينذاك سيقدمونني الى سائق ثمل وهو يقطع بسيارته عشرات الازقة والشوارع ويهز رأسه مع صدى الموسيقى دون ان يكون منتبها للرجل الذى ينزف دما في المقعد الخلفي.. واخيرا سيرميك وحيدا وممزقا في احد الارصفة امام احدى العمارات.. تغمض عينيك وتراها بعين الخيال، في وقت متأخر من الليل ستصطدم لوزان وعشيقها الجديد بشخص ممزق الجسد، عندها تلتصق بعشيقها كأميرة ترنو الى الجسم الممزق... انه لاس الحبيب، لاس المطروح على الارض دون اهتمام مثل جسم ميت بارد، عبثا ينزف الدم منه ويسيل في ثقوب المجارى... حتما ستشفق عليك وستجمع هي وعشيقها جذعك المقطوع الاطراف و يصعدان بك الى

السلالم ويرميانك فوق مخدع لوزان ...

معا يصعد الاثنان عبر السلالم ليجدا اربعة كلاب مسعورة عبر اضواء الارصفة وقد خطف كل منهم طرفا من اطراف لاس وقد ترك كل منهم خيطا رفيعا من الدماء على الرصيف، مرة لوزان تطارد الكلاب ومرة أخرى عشيقها يطاردهم.. خطوات ثم تفتر عزيمتهم و يرنوان الى بعضهما في حين تكون الكلاب قد تفرقت في الازقة... ويتعانق الاثنان ببرود ويصعدان الدرج، عندما يفتحان باب الغرفة.. ياللعجب... ان لاس غارق في الدم وقد غرقت الارجل القصيرة للسرير في الدم ايضا.. دم غزير لا يبدو نازفا من رجل واحد.. لون الدم.. رائحته وحرارته تبعثان شهوة قاتلة في جسد لوزان.. لا تستطيع الصعود، تغلق الباب برجلها و ترتمي في احضان الرجل الازرق العنيين الذي رأته في كل الشوارع ولاتعرفه... يرنو اليهما بعيون مليئة بالحسرة ويتساءل بلسان اخرس....لماذا كل هذه القسوة؟..

يتأمل العشيق الجديد ولا يعرف هل هو امريكي ام اوروبي، فرنسي ام انجليزي ام روسي... يغرقان في قبلة حارة خانقة.. تطفو لوزان رويدا على دمائك و تغطس احيانا.. في بحر الدم ذاك يتعانقان.. بين حين وأخر يرميان بقطعة من ملابسهما ويلبسان دماءك المتخثرة... يبصقان دمك ... تملأ اذنيك بالدم حتى لا تسمع آهات لوزان الشهوانية... كعاشقين مزيفين او ولهانين يلتصقان و يطفوان فوق دمك ... دمك النازف عبثا و دوما.

1993/4/14

*زقاق الفزاعات ــ مجموعة قصص، شيرزاد حسن، الطبعة الاولى ــالسليمانية- 1997 .

أنا و"قاله" * وكلب بافلوف

ترجمة: د.عادل كرمياني

لولا الرجل السكير لحصلت على شهادة الماجستير، وعندها كان الجميع ينتظر نحوي باحترام واندهاش ابتداءً من الفراش حتى جميع طلبة قسم علم النفس، بل حتى جميع طلبة الأقسام الاخرى.. وحتى البروفيسور المشرف.. والدكاترة.. بل حتى والدتي الأرملة ستفرح، ولكانت شقيقاتي الثلاث الصغيرات يقبلنني دون أن يعرفن ما هو الماجستير وما هو علم النفس، ومن هو بافلوف وفرويد..

لو كان ذلك السكير اللعين يبادر بخلع حذاء قدمه اليسرى لكنت منذ مدة قد قرأت(1) رسالة ماجستيري.. ولم أقم بتأجيلها أو التراجع عنها.. ولا أُصبت بالشك والقلق.. لو لم يكن هو لكان كل شئ قد انتهى.. الحذاء الأيسر لذلك السكير قلب كل الأشياء.. لو أن ذلك اللعين خلع حذائيه مثل كل مرة بأقصى غضب

وعصبية وانزعاج وثمالة.. في البداية يخلع حذاء قدمه اليمنى وبعدها اليسرى.. مرتان يصفعها على أرض الغرفة.. صوت الطقة الأولى ثم الطقة الثانية.. أيّة طقة؟ أنها في منتصف الليل تشبه صوت انهيار جبل.. أو تشبه صوت هزة أرضية.. لو.. لو أنه فعلها لكان فرويد ينهض من قبره ويرقص، وعندها أصبحُ أنا مدرساً نبهاً تحت خيمة وظلال مدرسة فرويد، وعندها سيخرجُ بافلوف رأسه من تحت تراب قبره ويعاتبني، ولربما يأتي مع تابوته الى داخل القاعة ليقول: " لقد بعتني..؟ ياللأسف مائة مرة يا ابن عبد الحُمامجي..!".

ولكن ليس لي ذنب فيما حدث.. الذنب ذنب ذلك السكير الذي أحال الخيوط المغزولة الى صوف.. آه كم كنت أبلهاً وجاهلاً.. كلا لست بالأبله.. أنا تعس.. بذلت مافي وسعي خلال ما يقارب السنتين، وقرأت مئات المصادر باللغتين العربية والانكليزية.. سنتان بكل أيامهما.. وفي لياليها أسهر حتى ساعات متأخرة.. كان الحراس والقطط والعشاق ينامون في مئات الليالي، لكنني كنت أبقى يقظاً حتى الصباح أقرأ في مئات الكتب القديمة والحديثة، واكتشفت عدة أمراض نفسية عضال، ولا أكذب أن قلت بأني سودّت خلالها في مئات الصفحات البيضاء.. ففي موسم الربيع وبعد هطول الأمطار يحتل النمل الأرض الملساء، وهكذا احتلت الكلمات دماغي وتلك الأوراق التي أمامي.. أكتب وأمزق.. أكتب وأمز.. الكتابة والتمزيق أصبحا جزءاً من حياتي، ووصلت بي الأمور الى حد كتابة ملاحظاتي على علب السكائر وعلب الكبريت وعلى باطن كفي

وعلى ذراع قميصي، بل حتى على الدنانير. ولو لم يكن حالي فقيراً كنت أمزق في حالات لاوعية، حتى الدنانير مثل الأوراق.

كل هذه الجهود المضنية ذهبت سدى، فقد جعلني الحذاء الأيسر لسكير وحيد وغريب في فندق من الدرجة السابعة أو الثامنة أو بلا درجة في مدينة مزدحمة ومكتظة السكان مثل بغداد أن أتراجع عن تقديم رسالتي في الليلة الأخيرة من أيام استعدادي وإعدادي الأخير لها.. جعلني ذلك الحذاء أن أتراجع عن المعلومات المتجمعة لديَّ بعد سنتين من البحث والتقصي.. انه أمرٌ غريب لديكم.. لماذا؟.. لقد منح سقوط تفاحة واحدة فقط قانون الجاذبية لنيوتن.. لأُكن أنا ايضاً عالماً صغيراً.. ألا يجوز هذا؟.. إن كان هذا يجوز أو لا يجوز فلا فائدة منه.. لأكن حمار نيوتن.. ألا يجوز ذلك ايضاً؟.. حسناً كيفما تشاءون، ولكنتُ أنا ايضاً في تلك الليلة التي لم يخلع السكير حذاءه الأيسر صرخت: "وجدتها..!".. مإذا وجدت؟.. لقد خسرت نفسي وجهدي وفروید. آه كيف أصبحتُ مفلساً، وإلا كيف يعقل في آخر ليلة من عمر دراستي.. في تلك الليلة التي سأقرأ في صبيحتها رسالة الماجستير أمام أنظار مئات الأشخاص لا يخلع فيها الرجل السكير لتعاستي حذاءه الأيسر، وبسببه تتفكك الأواصر بين كلمات موضوع رسالتي وما بذلته من جهد لأجلها.. لم أنم في تلك الليلة، وحتى الصباح تقلبت على الجنبين، وفي الصباح ذهبت للأستاذ المشرف على رسالتي وبتضرع وتودد قلت له:

-: استاذ.. لقد جئت أطلب الاعتذار.. ولا أستطيع اليوم

قراءة رسالتي..
تغيرت ملامحه حين قلت له كلامي هذا، وتوسعت حدقتا عينيه، وباندهاش كبير تساءل:
-: ماذا.. !؟..
حاولت السيطرة على نفسي لأحدثه بهدوء عن نكبتي، وقلت له:
-: لم أنم هذه الليلة حتى الصباح..
-: لأجل ماذا..؟
-: السكير الملعون الذي.. (لم يدعني الأستاذ أُكمل حديثي)
-: أي سكير.. !؟..
-: أُعذرني يا أستاذ.. أنا تعب جداً.. لقد وصل بي الحال الى حد التراجع..
-: عن مإذا.. !؟..
-: عن رسالتي..
-: هل جننت !؟.. ما هذا الكلام غير الموزون.. !؟
-: كلا.. أنا جاد في كلامي..
- أهدأ يا بُني وأفهمني بهدوء..
-: حسناً.. لا أستطيع بأي شكلٍ كان الحضور أمام اللجنة..
-: لكننا جميعاً ننتظر منذ أُسبوعين قراءتك لرسالتك هذا اليوم.. !
-: أعلنوا عن تأجيلها..
-: ولكن يا ولدي لم يحدث مثل هذا من قبل، وكذلك هذا ليس بالشيء المستحُب لي.. لا يجوز..
-: لمإذا لا يجوز.. تصوّر أني تمرضتُ فجأةً..

-: لكنك سليم مُعافى..
-: بالمظهر فقط..
-: هل تجننت مرة اخرى !؟.. كُف عن هذه الأقوال ولا تمثل جنونك أمامي.. دَعْ ما في جعبتك واحتفظ به لوقت مناقشة أطروحة الدكتوراه..
-: لا تغضب أن قُلت باني تراجعت عن رسالتي، ووصلت الأمور بيَّ الى حد أعادة النظر فيها والتزام جانب بافلوف..
-: هل هذه نغمة جديدة !؟..
-: ان كانت جديدة أو قديمة فلا أستطيع عمل شئ لحين عودتي لحالتي الطبيعية..
-: حسناً، غداً..
-: لا أستطيع..
-: ومتى تستطيع..؟
-: لا أعرف..
-: لو استمر الحال هكذا ستُخجِلَني..
-: أنا آسف.. ولكن لا مفر لي منها.. ذلك الرجل السكير..
قاطع كلامي وبغضب تساءل:
-: أيَّ رجل..؟
-: ذلك الرجل الذي عرفته في الطابق الأعلى لطابق غرفتي..
-: حسناً، وما علاقته برسالتك !؟.. ما علاقته بفرويد وبافلوف !؟.. مإذا فعل هذا الرجل حتى يضطرب تفكيرك..!؟..
-: لم يخلع حذاءيه كعادته في كل ليلة.. !!

-: ها أنك تكاد تقربني من اصابتي بدائك.. ألا تفكر في معيشتك..!؟
-: أفكر فيها كثيراً جداً.. ولكن ما العمل مع الشك والقلق..؟
-: والله أنه لشئ جميل.. بعد سنتين..!؟
-: نعم..
-: ولأجل ماذا..؟
-: لأجل الحقيقة.. لأجل شرف العلم..
-: ان كان حقاً كذلك فأنا اتفق معك.. لكني لم أفهم شيئاً.. السكير والحذاء وفرويد..لا أفهم..
-: لقد جعلني ذلك السكير أن أقول بأني ظلمت بافلوف..
-: كيف؟
-: أنه حديث طويل وذو شجون.. لو أنك أجّلت قراءتي لرسالتي سأعود اليك في صبيحة الغد وأحدثك بهدوء عن قصة ذلك السكير..
هدأ الأستاذ قليلاً، وبعطف أبوي نظر نحوي وابتسم ثم قال لي:
-: يبدو بأنه لا حلَّ هناك سوى ما تقوله.. اذهب.. ولكن لا تنس العودة غداً صباحاً..
هكذا انتهى.. بل الأصح أن أقول هكذا انتهيت، فالحذاء المبارك للرجل السكير فَصَمَ عرى الربط بين كل الأمور، وشوه صورة الحقيقيةٍ أمام عيني.. تلك الحقيقة التي فرحت بعد سنتين.. لقد وجدت نفسي والناس.. أنا وأمراضي.. الخوف والخجل وعشرات العقد والأمراض النفسية لفترة طفولتي.. وجدتها كلها عند فرويد.. تلك

الليلة كانت آخر ليلة. كم كنتُ فيها فرحاً. قرأت عنوان رسالتي عشر مرات، وتصفحت أوراقها، ودققت كلماتها، بل وحتى نقاطها وفوارزها. هنا وهناك كنت أقرأ منها، وخاصة القسم الثالث الموسوم "الدفاع عن فرويد ". فكرت بفرح وخوف في أسئلة الدكاترة وأجوبتي عنها. فكرت بوالدتي العجوز. فكرت بالفتاة ذات العيون السوداء في قسم اللغة الانكليزيه، ولكن ما العمل مع الصدفة السوداء؟. أطار الرجل السكير النوم من عيني، ولغاية الصبح تقلبت على الجنبين، ورغم عدم تذكري فقد نمت دائماً بهدوء في كل ليالي حياتي. أنا سريع النوم، حيث أنام على الفور بعد وضع رأسي فوق الوسادة. أنا لست مثلكم، فأنا أنام حتى لو كانت لديَّ الف مشكلة ومشكلة. قد لا ينام بعضكم لغاية طلوع الفجر عائشاً في دوامة خيالات فتاة أحلامه. الهجران. التخاصم. تشاجر بسيط. نفاد الأموال. المنية. نعم المنية، ففي اليوم الذي مات فيه أبي نمت في ليلته بشكل طبيعي، ورأيت حلماً عجيباً. وأتذكر في ذلك الحلم بأني قبّلت أحدى الفتيات، وليس لي ذنب في ذلك. أنه حلم وقد رأيته في منامي، فأنا لست بالحمار. ولا بالساذج. ولست لهذا الحد بلا هموم. لا تضحكوا على عقلي. أنا أحزن حتى على عصفور ميت على رصيف بسبب ليلة شتائية زمهريرية، وأُحافظ على قدمي اثناء المسير خوفاً من أن تدوس نملة، ولكن حتى لو كان لديَّ الف هم وهم فاني أنام، وتغفو عيناي حين أضع رأسي على الوسادة، رغم أن البعض لايستطيع النوم إن لم يتناول حُبوب الفاليوم، ويتقلب البعض الآخر على الجنبين إن لم

يرتشف كأساً من العرق.. أنه كلام فارغ.. لقد أحُببتُ ابنة خالي سبع سنين.. في أحد الأيام وقبل أن أُقبل في دراسة الماجستير قالوا لي بشكل فجائي: " لقد تزوجت !.. ".تزوجت بأحد التجار الكبار في المدينة.. وفي الليلة التي أبلغوني بخبرها لم أذهب مثلكم الى أحد البارات لأشرب الخمرة بقارورة، ولم أذهب لأقتل الرجل التاجر، أو اتوعد ابنة خالي شراً، أو اتوعد أباها.. أو.. أو.. وفي مساء اليوم التالي من زواجها ذهبت للغابة القريبة من محلتنا وبكيت على تعاسة حظي، وحين رجعت في الليل قمت بإحراق ثلاث صور لها وأربع وأربعين رسالة حُب، وشعرت بأن طيور الفخاتي في صوت هديلها على الأشجار تبكي لحزني، تصورت بأن الأشجار تقول لي بهمس: "لا تحزن لتلك التي لا عهد حُب لديها.. لقد خدعتها الأموال".. وتصورت مياه السواقي المصطنعة في خريرها تهمس لي قائلة: "إن تلك الفتاة ساذجة، ولا تستحق قطرة دمعة واحدة من عيونك.. ".. أنا لا أنوي قص حكاية ذلك الحُب عليكم.. أنها قصة تحتاج بحد ذاتها لمئات الصفحات الغارقة في البكاء.. أنا أود أن اقول: نعم في تلك الليلة.. ليلة انهيار القصر الأبيض للحُب وانقطاع أغنية حُبي لها لسبع سنين.. نعم في تلك الليلة التعساء وضعت رأسي على الوسادة ونمت، ومن الممكن أن تقولوا: " إذن أنك لم تحُبها، وإلا كيف تنام وقد خسرت حُبك الذي طال سبع سنين ".. ثقوا أن الأمر ليس مثلما تتصورون.. لقد نمت وأنا أبكي، وتغير لون وسادتي مع انهمار قطرات دموعي عليها، وفي منامي رأيت في آنٍ واحد حلماً مفرحاً وغير مفرح.. ففي ذلك المنام حلمت

بأني قتلت التاجر واختطفت ابنة خالي.. خطفتها وأخذتها لقرية بين تلك الجبال، وفي ذات المنام حلمت بأن أولاد خالي وصلوا لتلك القرية وقتلوني، وأعادوا شقيقتهم التي هي حبيبتي لبيتهم.. لاتستهزءوا بعقلي، فالمنام يكون على هذه الشاكلة خاصة إذا كان مناماً يخص عاشقاً متكوباً مثلي.. والعجيب في ذلك المنام أنه ورغم كوني مقتولاً كنت أعلم بتهديدات أولاد خالي لشقيقتهم بأنهم سيدفنونها وهي حيّةٌ تُرزق.. بينما لم يدعني رجل سكير أن أنام في تلك الليلة.. ربما تسألون لماذا!؟.. هل دخل غرفتك وهو في حالة سكر وسبب لك الأرق؟.. هل قصَّ عليك قصة حياته وهو سكران؟.. أمْ أنه أخذك عنوةً لأحد البارات لتشربا الخمر معاً؟.. كلا.. طيب مإذا حدث؟.. لا شئ.. أنا لا أستطيع بهذه البساطة أن أحكي قصة ذلك المخمور.. أنا متعب جداً.. أنا مريض.. أنا لم أنم منذ عدة ليال أُفكر بذلك الملعون.. أُفكر برسالة ماجستيري.. أُفكر بتلك المتاهة التي وقعت فيها.. أصغ الي حتى النهاية.. ربما تصاب بالدهشة، أو كما قلت تضحك على عقلي، أو تكون غاضباً لدرجة تسخر من مع (عفطة).. لاتخف ولا تخجل وكُن جراً في ذلك ايضاً.. قد تود سماع قصة عجيبة مليئة بالكوارث أو الفواجع تنتهي بالموت وسفك الدماء؟.. ربما يود صديقك أن تنتهي القصة بأصوات الدفوف والنايات والزغاريد والقبلات؟.. أو ربما يود سماع قصة حُب، أو قصة بوليسية، أو جريمة وعقاب، أو صراع الصديق والعدو، أو صراع الإنسان مع ذاته أو مع المجتمع أو مع كل الدنيا، ولكن هذه القصة لا علاقة لها بكل هذه الأشياء.. انها ذات علاقة بعدم خلع السكير

لحذائه الايسر، وللحذاء والسكير علاقة بـ(بافلوف)..
هذه ليست مزحة.. انها حقيقية حدثت بعد مئات الليالي وبعض الأشهر من القراءة والكتابة، وكذلك بعد دخولي عشرات المكتبات وكتابتي للعديد من الصفحات، وبعد تصفحي للعديد من الصفحات الجديدة والقديمة، وقراءتي لكتب علم النفس الضخمة، وسهر الليالي، وبعد الأيام الطويلة والعديدة التي قضيتها خلف مناضد المكتبات، وبعد التأمل والتأمل، وأصغائي للعشرات من الاساتذة والدكاترة الاذكياء وذوي الرؤوس الصلعاء الذين كانوا يقدمون لي كل ما يملكون من المعلومات والتجارب المتنوعة، وبعد دخولي لتلك الصفوف التي تشرح فيها نفس الإنسان كما يشرح البطيخ الأحمر الناضج جدا، وبعد زواج ابنة خالي وصلت بي الأمور الى حد لمْ يبق لديَّ متسع من الوقت لكي أُحب فتاتاً أُخرى فالحُب يحتاج للوقت وقدرة التحمل والانتظار واللقاءات وصداع الرأس، ولأنها تؤخرني عن تقديم رسالة ماجستيري المقدسة.. لم يكن السبب في ذلك يعود لعدم وجود فتات أحُبها..أو تحُبني.. لا تفهموا مشكلتي هكذا.. ولكن هل هناك من أحبها حقا؟!.. لقد كان حُب ابنة خالي مع الأسف الشديد جرحاً لا يندمل أبداً، والى الآن يتنزف مني دماء ذلك الجرح.. أنا حقير وابن كلب.. أنا آخذ كل الاشياء وكل الأمر في حياتي بجدية وصعوبة فائقة.. كلا لم انسها.. وأحبها.. ومع ان عمري قد تجاوز الخامسة والثلاثين، ولم اتزوج، ولكن لازلت أحبها.. وبسبب الماجستير وتلك الافكار المعشعشة في رأسي، وبسبب ذلك الموضوع المعقد الذي اخترته لا أملك الوقت الكافي

لتحقيق أي شئ آخر، خاصة إذا كان ذلك الموضوع له صلة بالنفس. إن شخصاً مثلي يجد في نفس عشرات الأمراض النفسية ابتداءً من الهستيريا حتى تصل الى الخوف والقلق والحزن.. ربما تقولون ماذا تستفيد من شهادة الماجستير؟.. ولكن إذا تجاوز عمرك الاربعين وبدأت بالسعال وضعف نظرك وأصبحت هزيلاً وبدأت يداك وأصابعهما بالارتجاف وأسنانك بدأت بالتساقط ولم تبق شعرة واحدة في رأسك وأصبحت اصلع، عندها ليس فقط لا ترضى بك الفتاة العانس، بل ربما حتى الأرملة لا ترضى بك زوجاً.. لتكن هكذا.. ولكنها خطيئة.. لا تعتقدوا بأني لأجل المال والمنصب أحاول الحصول على شهادة الماجستير ومُصر على نيلها، فلو اعتقدتم هكذا فسترتكبون خطيئة.. لا تسيئوا الظن بي قبل أن تسمعوا قصتي السوداء.. لا تطلقوا الرصاص عشوائياً في الظلام، فأنا مسكين مثل غالبيتكم.. مستضعف.. بل من أكثركم بؤساً، ولا أريد أن تبكوا على حالي، كلا، رغم استطاعتي أن أجعلكم تبكون.. نعم.. فأنا جعلت الناس يبكي بقصصي وحكاياتي المليئة بالبؤس، وكان بكاؤهم حاداً لدرجة جعلتني أرثي حالتي وأحياناً أفقد الانتباه وأضيف لقصة تعاستي وشقائي كذبتين أو ثلاث كذبات كبيرة، وتختلط في حياتي دائماً الحقيقة والكذب، فأنا إنسان مجنون والا لم أنا متخبط هكذا..! انها بسبب تعبي فأنا مجهد ومنذ مدة لم أنم.. لا تخافوا.. فسوف أحل الآن كل الوشائج المعقدة وأفرقها عن بعضها، وعندها ستندهشون وربما ستصلني من كل جهة رسائل المدح والقبلات والتصفيق، ومن الممكن ايضاً أن تصلني

رسائل مليئة بالشتائم، لكني لا أعير أيّة أهمية تذكر لأيَّ منها، فالمهم لديَّ قصة السكير.. وحذاؤه الأيسر.. نعم.. لقد قلت بأني طالب ماجستير، وكان عليَّ أن أقرأ رسالة ماجستيري قبل الآن، فلو لم يكن ذلك السكير لربما أصبح موضوعي أنفجاراً يكون له صداه، وعندها يصاب الدكاترة بالدهشة، ولربما بعد أسبوع.. كلا.. بل قل إنهم سيجتمعون في اليوم ذاته الذي أقرأ فيه رسالتي ويصدرون قرارهم بصددها لكي تترجم لجميع لغات العالم الحية.. ولربما توجّه لي رسائل دعوة حتى اذهب للجامعات واتحدث عن الموضوع القيّم لرسالتي، ولربما ايضاً تعبس بوجهي لجنة المناقشة ويمنعونا أنا ووالدتي العجوز من أن نفرح، ويمنّون علي إن لم يوصوا باسترجاع مبالغ الطعام والمنام في القسم الداخلي، ولربما تزعل مني تلك الفتاة ذات العينين السوداوين في قسم اللغة الأنكليزية وترفضني، وعندها لا أستطيع العودة الى والدتي العجوز وشقيقاتي الثلاث الصغيرات، وعندها ستقول لي والدتي الأرملة:

-: أغرب عن وجهي ياعديم الغيرة.. لم تستطع تكملة الماجستير ولم تستطع أن تتزوج..

منذ عامين وأنا أحأول تقريب فرويد وبافلوف من بعضهما.. ربما تسألون لماذا اخترت علم النفس بالذات من بين كل تلك العلوم المتعددة؟.. لقد أفصح لي عن مثل هذا التساؤل الكثير من الاقارب والمعارف، ولكن الأشخاص القريبين مني يعرفون بأني منذ الطفولة كنت ذكياً، ولكن ذكيٌ مريض يشكو من أمراض الجسد والنفس، وكان الأصدقاء والأقارب والمعارف يودون أن

أصبح طبيباً أو مهندساً. لم أصبح. ولم أرغب في أي منهما. ودفنت أمالهم تحت التراب. لا تتعجبوا من هذا الأمر؟ فأنا أعرف طبعكم. أنكم متلهفون للأموال والمناصب. يا لتلك الصدفة التي أدين لها بروحي ورمتني في أحضان فرويد وبافلوف. في البدء تعرفت على فرويد. ففي أحد الأيام كنت في بيت أحد الأصدقاء وبالصدفة حصلت على كتاب لفرويد، وبسرعة قرأته وبحثت عن كتب أُخرى له، وأصبحت درويشاً لفرويد. ومنذ ذلك اليوم بدأ ذلك الطموح يراودني وقررت الحصول على شهادة السادس الاعدادي والذهاب الى قسم علم النفس، وقد حدث ما كنت أصبوا اليه، وها أنكم تروني. لقد غرقت لأربع سنين في دنيا علم النفس كأحد شيوخ الطريقة المعتكفين، وأصبح علم النفس غابة كثيفة تهت بين أحضانها. تحول علم النفس لديَّ الى جبال وقمم ومضايق، وتحول ايضاً لديَّ الى بحر، وتحولتُ الى حوت صغير ورويداً رويداً كبرت. سبحت في البدء قرب الضفاف، وحين كبرت ذهبت لأواسطه ومناطق عمقه. تحول علم النفس لديَّ الى كهف مخيف وجدت فيه آلاف الأسرار والجماجم، وفي كل يوم أجد فيه جمجمة جديدة، ولكن يوماً بعد آخر ازداد شعوراً بأني مريض، وأقرأ ليلاً ونهاراً. يقال ان دودة القز إذا وقعت بين غابة من أشجار التوت فلن تبقى ورقة على أغصانها، وأنا ايضاً التهمت الكتب على هذه الشاكلة، وكما الصحارى تمتص قطرات المطر أمتص دماغي على شاكلتها الكلمات المكتوبة، فكنت أقرأ الروايات والمسرحيات والقصائد الشعرية والفلسفية والتاريخ، بل

كنت أقرأ حتى قطع الجرائد القديمة والمرمية.. أقرأها لكي ألِم بكل زوايا وخفايا نفس الإنسان.. أصغي للموسيقى لكي أجد من لحنها جروح وأحزان عازفها.. أشاهد لوحات الفنانين لكي أقرأ من خلال تلك الخطوط والألوان المسكوبة على قطعة قماش آلام ومعاناة وقصة حياتهم، ومن خلالها أصبحت ملماً بمرض (فان كوخ) والخوف في لوحات (مونتش) وقباحة (باكون) وعُقَد (ديستويفسكي) المستعصية و(لورانس) و(دافنشي) وابتسامة (موناليزا) و(كافكا) وتشاؤمه و(هيتشكوف) والخوف و(كيتس) والحزن و(رايش) والجنس. واتضح لي أن (فرويد) هو بالذات مريض ويتحدث عن المرض.. وآخرون كثيرون.. كنت أصدهم وأرغب في أن أتحدث مثلهم بشجاعة عن مرضي، فلو أستطعت التحدث عنه لتطهرت منه.. ها أنا أبتعدت مرة أُخرى عن موضوعي.. حذاء السكير.. على أيّة حال أني قد أنهيت موضوعي ولكن ذلك السكير أفقدني رأس خيوط شليلته، وأصبحت رسالتي كطائرة ورقية في مهب الريح، وجعلني بعد سنتين أقول لـ (بافلوف) أنك قد فزت وأقول لـ(فرويد) أنك قد خسرت.. أو أنهما معاً قد خسرا.. كلا أنهما معاً قد فازا، وأنا الذي قد خسرت.. نعم لقد خسرت نفسي.. آه كم كنت جاهلاً.. ولكن رغم كل ذلك فأنا أحب فرويد كلما أعدت سرد هذه القصة.. أحترمه.. أنا لا استطيع تجاهله.. لقد استطاع بافلوف أن يزحزحه فقط عن مكانه.. كلا ليس بافلوف، بل ذلك السكير استطاع زحزحته.. كلا ليس السكير، بل حذاؤه الأيسر.. لا ليس الحذاء بالذات وانما صوت ارتطامه بالأرض.. رسالتي

مقدسة ولم يسبقني أحد في غوض غمار السباحة في هكذا بحر عميق ومليئ بالمخاوف.. موضوعي.. ها.. أأجرأ على القول بأن موضوعي عبارة عن خلق تجانس بين فرويد وبافلوف.. ربما تقول: لم يجرؤ أحد على تناول مثل هذا الغائط.. أنا تناولته.. أنا ابن عبد الله الحُمامجي تناولته.. فأما أن أنجح فيه أو ان الجميع.. البروفيسور والأستاذ المشرف والفراش والطلبة المستمعين يطردونني من القاعة بالضرب المبرح والركلات.. لربما تكون لموضوعي اصداء طيبة، وعندها يذكره التلفزيون والمذياع في برامجهما وأخبارهما؟.. آه كم ذلك هو مفرح، وعندها ستصفق لي الفتاة ذات العينين السوداوين وتقول لي والدتي العجوز: حسناً يأبني.. لم تذهب أتعابي معك سدى.. يا ليت والدك كان حياً ليفرح بما حققته، فقد كان لا يتصور بأنك ستصبح في يومٍ ما رجلاً.. آه كم كان ينظر لك باستخفاف واستصغار!..

أعرف يا أمي أنك ستقولين عندها لأبناء البيوت المجاورة: " أيتها النسوة.. ها هو فرهاد قد أنهى دراسته في الماجستير.. لقد نذرت لوجه نبينا المصطفى نذراً وسأوفيه في مسجد الملا حسن !.. ".. عن أيَّ نذر تتحدثين؟.. لم ويبق ذلك السكير أيَّ مذاق وحلاوة فيه؟.. على أيّة حال أنا لا أتخلى عن رسالتي، ولن أبغي منها الحصول على شهادة الماجستير لكي أُعلقها فوق رأسي على أحد جدران غرفتي، فرجلٌ مريض مثلي لا يمنح نفسه حق مثل هذا الافتخار.. أنا مريض ومن الداخل ممزق، وحتى لو كنت ذكياً فهذا لا ينفع، فالكثير من

الأذكياء مرضى، بل إنهم مجانين.. لا تقل لي انه من العيب أن تتحدث هكذا عن نفسك؟، وانه عارٌ عليك.. أنك تخاف الإصغاء لي، وترغب في تزيين وصبغ وجهي كامرأة عاهرة، وبعدها آتي اليك وأرقص أمامك.. أنا لست بالعاهرة حتى أجلس بتعقل داخل حضنك.. أنا رجل مجروح.. أنك لا تجرؤ على الحديث عن نفسك، لذا فأنك تحقد على هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون عن يباب وخراب عقولهم وقلوبهم، فلا تصغي إلي ان كنت لم تذق في طفولتك طعم الركلات بالاقدام والبصاق والشتيمة والدم والعلل.. آه حين كان عبد الله الحُمامجي يطعمني الفلقة[2]، ويضربني ضرباً مبرحاً، وآه من الاطفال الأكبر والأصغر سناً مني حين كانوا يضربونني بأقدامهم.. آه من المعلمين حين كانوا بضربات المسطرة وأعواد الخيزران يكوون ظاهر كفي.. آه كم مرة مسحت بصاق هذا وذاك من على وجهي.. أنا اعاني من مرضين عضالين جدا كالسرطان نخرا أعماقي، وهما منذ الطفولة يلتهمان دماغي.. مرضان أنزرعا في أعماقي مثل الأفعيين السوداويين اللتين كانتا فوق كتفَي (ضُحاك)[3].. هاتان الافعيان كانتا تكتفيان بالتهامهما دماغ شابين يافعين وبعدها تهدآن، ولكن أنا..؟.. أنا ايضاً يأكل هذان المرضان دماغي.. هذان المرضان.. هاتان العقدتان هما الخوف والخجل، وبسبب قدسية وعظمة وخوف هاتين العقدتين دخلت قسم علم النفس.. ربما يسأل بعضكم: وما العجب في مثل هذا الأمر.. نحن ايضاً نخاف ونخجل بدرجات متفاوتة ايضاً؟.. نعم أوافقكم.. ولكن لا يوجد شخص بينكم أُعِدَ له وحل مثل وحلي.. ربما تقولون انك

تكذب، فلو كنت لهذه الدرجة خائفاً وخجولاً كيف اذن أحببت ابنة خالك لسبع سنين؟.. كلا.. أنكم مخطئون.. لقد أحببتها خفية، وكانت هي لا تعرف بأمر حبي لها.. كنت من جانبي أتلظى شوقاً لها، وكانت هي تنتظر أن أكشف لها عن هذا السر.. أنا الذي كنت أصم وأبكم وغبي وأبله، ولكن كنتُ رجلاً ولم أبح لها بالسر.. يا أخي لم أستطع قوله لها.. ولم أجرؤ.. وهكذا تزوجت التاجر.. ولها الآن ثلاثة أطفال.. وولدان وبنت، وأعتبر هؤلاء الأطفال أولادي.. لقد سماهم أبوهم: هيوا، بروا، **خەندە**[4].. وأنا سميتهم خفية: هاوار، **غەمبار**، فرميسك[5].. لقد تذكرت، فحين كنتُ طالباً قرأت خاطفة قلبي بالصدفة هذه الجملة التي كانت مكتوبة على أحد دفاتري: " من السهل لديَّ أن أهدم بأظافري جبلاً من أن أقول لامرأة أحبك.. ! "، وحين أنتهت من قراءتها رفعت رأسها وبلا مبالاة فائقة وبأستهزاء قالت لي:

-: أي حمار قال هذا؟

أجبتها بخوف وشفتاي ترتجفان:

-: أحد الشعراء.. !

قالت: ليس من المستحب أن تكتب مثل هذا الشئ في دفاترك..

أصابني البكم حين سمعت قولها، وقلت:

-:انك محقة..

أجابتني بغضب: ماذا جرى لك؟.. كلما أقول لك شيئا تجيبني بالقول:

انك محقة..

قلت لها بخوف وخجل: ـ هذا لأنك محقة..!..

أردت في تلك اللحظة أن أقول لها بأن هذه الجملة التي قرأتها قد كتبتها لرثاء ومواساة حالة وعلة قلبي.. لكني لم أجرؤ على قولها، فحين كانت تتحدث معي كان جسدي يتفصّد قطرة فقطرة عرقاً، ويحمر خجلاً، وأبكي في أغلب الأحيان حزناً على توقف لساني عن الكلام.. ربما تقولون: وما أمر تلك الصور الثلاث والرسائل الأربع والأربعين لابنة خالك..؟.. لا تنخدعوا.. لقد كتبت أنا تلك الرسائل الأربع والأربعين، أنا أيضاً أجبت نفسي فيها، فشخصٌ مثلي أشبه بذلك الشخص الذي يغني لعلة قلبه، ومثل عازف ناي يرقص على أنغام نايه، فان لم تروا أحداً من هذا النوع؟، فأنه أنا.. !.. وبالنسبة للصور الثلاث أقول لكم بأن ابنة خالي لم تعطني إياها، بل تجرأت على سرقتها من بيتهم في إحدى الزيارات من ذهابي اليهم خلال تلك السنوات الثلاث، وقمت باحراقهن جميعاً في الليلة التي تزوجت هي فيها، ولم يكن تصرفي ذلك بسبب زواجها، بل كان بسبب الخوف والخجل منها، لأني ولغاية تلك الليلة كنت أخاف كثيراً من أن يعثروا عليها.. فقد كنت محتفظاً بها داخل صندوق معدني صغير مقفل، وكنت في كل يوم أُغير مكان حفظ ذلك الصندوق.. لم أكن أركب الحافلات بسبب خجلي الشديد وتحسباً من أن يراني الناس، لأني كنت أتصور بأنهم جميعاً سيدققون النظر فيَّ، ويعطفون سراً في أعماقهم على حالتي.. أو أنهم سيستهزؤن مني.. يا ترى هل هم يعرفون بأني جبان ومسكين لهذه الدرجة.. كانت المسافة بين محلتنا والمدرسة تصل الساعة من الزمن سيراً على

الأقدام، ولكن رغم ذلك كنت أقطعها مشياً. ففي الصيف يشوي حرها ظهر رقبتي ويجف بلعومي، وفي الشتاء تغسلني الأمطار وتنهمر فوقي الثلوج والحالوب، ولعدة مرات كان بردها يؤثر فيَّ ويجعلني مريضاً طريح الفراش. ولكن رغم كل هذا فقد فضلت المسير على ركوب الحافلات وتطلُّع الناس لوجهي وقامتي وملابسي الممزقة. كنت لا أمشط شعري خوفاً من قولهم: " هوذا فرهاد مشغول بالمراهقة..! ". آه كم كنت أغضب من كلمة المراهقة، وحين يُقرّب شخصان رأسيهما من بعضيهما يتهامسان ومن ثم يضحكان، وحين يرفعان رأسيهما بالصدفة وينظران نحوي أتصورهما يضحكان عليَّ، فأنظر بدقة نحو نفسي ويغطي ضباب الشك نظري. كنت دائماً أبتعد عن الناس وأخبئ نفسي حين يزورنا زائر، وأعرف بأني سأتفصّد عرقاً كثيراً ويحمرُّ وجهي خجلاً، ولا أستطيع تناول الطعام من الخجل، ومثل السكارى الطاعنين في السن ترتجف أصابعي. كانت أقداح الشاي ولأكثر من مرة تسقط من يدي وتنكسر فتضربني والدتي. كانت عواقب أية حركة لي هي الحاق الضرر، ولعدة مرات بكيت لوحدي، وبعد سبع سنين حين استمنيت وظهرت شعيرات شاربي وتغيرت نبرة صوتي وبرزت تلك التفاحة المدورة التي بين ساقي. آه كم حقدت على تلك التفاحة المنحطة الخلق وعلى نبرة صوتي، فلم أجرأ على التكلم لأن السقف الهش يهتز معها وكأنه صوت ضفدع داخل ساقيه في موسم الربيع. مضى سبع سنوات ولم أجرؤ على إخبار أحد باستمنائي في منامي، وكانت نسوة البيوت المجاورة

يتطلعن نحوي وبين حين وأخر يقلن لوالدتي: " يا بسّيَ.. لقد شب وبلغ أبنك فرهاد. هل انتِ منتبهة له.؟ ". كنت أتجاهل كلامهن وأمضي سائراً، وكنت دائماً أخفي لباسي الداخلي عن أنظار والدتي خوفاً من أن ترى تلك البقع الصفراء اللعينة عليها. لقد عانقت في منامي عشرات النساء، وقمت مع عشرات النساء بممارسة. كلا. من الأفضل أن لا أقولها. كنت أتصور بأن كل الناس على علم بتلك التخيلات والأحلام، وأزداد بهذا التصور خجلاً. كانت عبارة عن سلسلة من الخجل والخوف والإحباط والهزائم العاطفية، فلم أكن أذهب لصالة السينما إلا خلال عرض الفيلم، وذلك لتصوري أنهم سينظرون نحوي عند جلوسي على أحد المقاعد. آه كم كنت أحب أفلام الحب والمغامرات العاطفية، وأتصور باستمرار أني بطل الفلم فيها، وأحسد البطل دائماً على غيرته وشجاعته. آه من تلك اللحظة التي يُقبّل فيها الفتاة، فقد كان قلبي يكاد أن ينقلع من مكانه ويصل لداخل فمي.. كنت أخشى الناس وأتصورهم يعرفون أني خائف وخجول وغير لبق في الكلام، وكلهم يعرفون أن والدتي تعمل خادمة في بيت (باويل آغا)، وأن عبد الله الحُمامجي عصبي المزاج ينهال علي ضرباً مبرحاً بعد شربه الخمر، ومن الخوف أفقد السيطرة على خروج أدراري. من الممكن أنهم يعرفون بأني منذ سبع سنين أحب. كلا، لا شئ. أنا تعيس الحظ، وإلا لماذا في أحدى المرات ، وأنا مازلت طالباً في الصف الثالث الابتدائي فقدت السيطرة على خروج غائطي. لا أعرف ماذا أكلت في الليلة السابقة لذلك اليوم، وحين ذهبت للمدرسة في

صبيحة اليوم التالي بدأ المغص يراود بطني، وتصورته مجرد غازات محتصرة في أمعائي.. وأتذكر بأن المعلم (علي) كان يتحدث عن معركة (أُحد)، ومن خجلي وخوفي لم أجرؤ على الاستئذان منه للخروج وقضاء حاجتي في المرافق الصحية.. قاومت آلام المغص.. وكنت أعرف أنه عصبي المزاج وسيضربني بالعصا الخيزرانية التي بيده أن فاتحته بأمري.. ضغطت أكثر على نفسي لأجل تحمل ما أعانيه، ولكن كانت بلا فائدة، لأن المغص كان يزداد أكثر، وكان وطيس معركة (أُحد) يزداد عنفاً وقتالاً وسفكاً للدماء.. تفصّد جسدي عرقاً غزيراً، وتصورت أن ما أعانيه مجرد غازات محتصرة في أمعائي، وفجاةً صرخ المعلم علي: فرهاد..؟

-: نعم أستاذ..

ـــ: من هو الذي كُسرِت أحدى أسنانهُ في هذه المعركة..؟

نهضت بسرعة وكاد ان يخرج صفير هواء من مخرجي، وأرجعتها عنوةً، ولم أسمح لها بالخروج، وكان المعلم وزملائي الطلبة الصغار ينتظرون أجابتي.. نظرت نحو يميني ونحو يساري.. لم يقل لي أحداً منهم الجواب، وبسبب شدة آلامي قلت بسرعة:

-: أنه الأمام علي.. !

-: كلا..

-: أنه عمر..

-: أي عمر يا كلب.. قُل الأمام عمر..

-: الأمام عمر..

-: كلا يا أنثى الحمار..

أردت أن أبكي وأقول له لا أعرف، فلم أكن مشاركاً في تلك المعركة، لكنه تَقَرَبَ مني وصفعني صفعة شديدة على ما تحت أذني، وظل صوت الطنين يدور لفترة فيه، وبدأ الصف وكأنه يدور بسرعة أمام عيني، ومعها تقلصت كل أعصاب وعضلات جسدي وارتخت، وفجأةً صرخ بشكل اهتزت المدرسة مع صرخته، ثم صفعني على رقبتي وقال:

-: انه الرسول.. يا ابن الكلب.. لقد انكسرت احدى أسنان الرسول المباركة.

مع صفعته الأخيرة فقدت وعي، وتصورت أمري مجرد غازات محتصرة في أمعائي، فأردت اخراجها خفية.. أنفجر.. ألف لعنة على مكروب الأسهال.. أنفجر.. آه من الخجل متُّ.. آه كم خجلت.. بدأ الأطفال المشاكسون بالقهقهة والضحك معا، ولم أتصورهم هكذا يكونون خبثاء معي، وأزداد غضب المعلم علي، وانفتحت حدقتا عينيه أكثر، وبدأ اللعاب يسيل من جانبي شفتيه، ومدَّ يدهُ لعصا الخيزران القريب من السبورة ونهض واقفاً.. ومرةً أخرى صرخ:

-: تعال وأخرج يا حيوان.. هل انت طفل رضيع؟.. (بدأت بالبكاء).. تعال وأخرج ياأبن الحمار.. هل هذا المكان مرافق صحية؟..

تسمّرتُ في مكاني.. وأمسك بشعر رأسي وسحبني، ثم بدأ بضرب جسدي.. جسدي الناعم والهزيل والمفتقر الى الدم.. رفع يده عني حين سمع صوت رنين جرس الاستراحة ونهاية الدرس.. لقد أنقذني الجرس وألا كان يقضي عليَّ، ومن يومها يطلق الأطفال عليَّ تسمية

فرهاد ذي اللباس الوسخ.

أنا أحببت فرويد لأنه يرجع عقدة الخوف والخجل وكل الأمراض الباقية لفترة الطفولة البعيدة.. تلك الفترة التي أنت فيها صفحة ناصعة البياض فيأتي كل شخص ويكتب عليها شتيمته.. لقد قُضي عليَّ بتوسيخي للباس الداخلي.. ليس هذا فقط، بل وجه لي أبي وأمي ولمئات المرات أنواع الشتائم أمام أنظار المعارف والغرباء.. حطماني، وفي المدرسة يتحدث المعلمون مع الطلبة بلغة العصا.. كلا.. يكفي كل هذا الظلم.. أنا في موضوع رسالتي أقمت ثورة حمراء على هذه الأفعال المرفوضة، وعلى ظلم وتعنت الأباء، وعلى عصبية المعلمين المدانين، ولم يبق أحد لم أدنه.. لقد أخافوني.. الخوف.. حتى (هيجكوك) لو لم يخيفوه في طفولته لما ترك من بعده خمسين فلم رعب.. أما بالنسبة لكافكا التعيس..؟، فقد طرده أبوه في تلك الليلة التي كاد الطوفان والمطر أن يغرق العالم، وبقي (كافكا) لليلة واحدة بين الظلام والمطر وخاف.. وبكى، فكانت كتاباته مليئة بالخوف والذنوب.. أما أنا فقد طردني عبد الله الحُمامجي من البيت في مئات الليالي، وفي منتصف الليل وبعد أن اتأكد من نومه أرتقي جدار البيت خفيةً كقطة وأدخل جسدي تحت لحافي القديم الممزق.. آه من تلك الأحلام المخيفة التي رأيتها.. ليس أنا فقط.. هناك المئات من العلماء والحكماء مرضى مثلي أو كانوا مرضى.. أنا أشك في وجود شخص غير مريض، وأشك في ذلك الشخص الذي لا يبكي.. وأيضاً من..؟.. أوه.. أنا دائماً أبتعد عن موضوعي.. لي الحق في هذا، فحذاء الرجل السكير، في

تلك الليلة المشؤومة أعادت لذاكرتي عدة ذكريات مؤثرة ذات شجون.. لقد قلت بأني نمت بهدوء في كل الليالي ماعدى تلك الليلة التي لم ينزع الرجل السكير حذاءه الأيسر.. لم أنم حتى الصباح وأحلت مناقشة رسالتي.. لربما اقرأها بعد عدة أيام.. حسناً وأن تراجعت عنها..؟.. أنه تصرف أحمق..؟.. كما تشاء.. أنت لا تستهزئ بي.. أنا.. أنا استطعت احترام كلتا المدرستين.. استطعت مثل طرفي ميزان أن لا أخل بحق فرويد وبافلوف.. رغم أن.. رغم أن أمراضي النفسية جعلتني أنحاز قليلاً لجانب فرويد.. آه كم كان عمر طفولتي مليئاً بالحسرات.. لن أنسى ذلك التاريخ الأسود.. للآن أشعر بلزوجة ذلك البصاق والقشع الذي كان أبي يغطي بها وجهي.. ولكن الحذاء الأيسر للرجل السكير أعطى ثقلاً لكفة جانب بافلوف في الميزان.. فردة واحدة من أحذية ذلك السكير غيرت كل القضية لديَّ.. ربما تسألون عن حذاء قدم رجل سكير.. ما علاقة رجل مخمور فاقد الوعي في فندق بلا درجة في مدينة بغداد برسالة ماجستيرك؟.. وماعلاقته بفرويد وبافلوف؟.. ما علاقته بابنة خالك؟ وبهتشكوف وكافكا؟ وبكل تلك القيامة.. ماعلاقته بخوف وخجل داخل الحافلات والسينما؟.. آه حقاً لقد تذكرت.. في أحدى المرات لم أدخل سينما سيروان إلا بعد أنطفاء الأضواء.. كان الفلم المعروض فلماً خلاعياً. وكانت الصالة مكتظة بالمراهقين والرجال الكبار، وكان الفلم المعروض هو فلم (جزيرة الفتيات)، وفجأة تعثر قدمي ووقعت على الأرض فارتفع أصوات صراخ وضوضاء لم يحدث لها مثيل، وسمعت أصوات ضحكات وقهقهات

كل هؤلاء الناس، ولم أعرف إن كانوا يضحكون عليَّ، أمْ يضحكون على مشهد كوميدي في الفلم، وتفصّدَ جسدي عرقاً في ذلك الظلام، وشعرت أنهم رأوني وأنا كيف أقع. وحدث لي في مرة أخرى ما هو أشنع وأفضع، ففي احدى المرات ركبت حافلة ولم أجد فيها مقعداً فارغ أجلس عليه مما أضطرني أن أظل واقفاً، وكنت كعادتي غارقا في دنيا الخيالات، لأن الخيال كان جزءاً من حياتي البسيطة، وكنت منسجماً مع أحد تخيلاتي، وفجأةً ضغط سائق الحافلة على الكابح وفقدت توازني ووقعت في حضن فتاة سمينة الجسم غضة الأطراف، ففتحت فاهها وأمطرتني بالشتائم: "ياسافل.. عديم الشرف.. سخيف.. أليست لك أُم وشقيقات.. ألا تستحي؟.."... أعتذرت لها ورجوتها كثيراً، ولكن كل ذلك كان بلا جدوى.. بعض من الركاب ضحكوا والبعض الآخر نظر نحوي بشذر وغضب، ويبدو أنهم في مثل هذه المواقف أما يضحكون عليك أو يحقدون ويغضبون عليك، ومن الخجل جسدي ارتجف.. أنا دائماً أرتجف.. جسدي تفصّدَ عرقاً، ولا أعرف أين نزلتُ من الحافلة، وكلما أعرفه هو أني بسرعة نزلت حين توقفت الحافلة. وفي الطريق لعنت نفسي والحافلة والفتاة، وذهبت الى جامع قريب ثم دخلت المرافق الصحية، وهناك بكيت كثيراً.. أنا دائماً أبكي، وكنت أتصور بأنَّ كل المدينة قد فهموا ذلك الأمر بأني كنت متعمداً عندما رميت نفسي في أحضان تلك الفتاة.. آه من تلك الفتاة المشاكسة والسليطة اللسان.. يا ترى أي إنسان فقير ومنكوب يتزوج بها؟.. لا تلوموني.. ها أنني أبتعد مرة أخرى عن

الموضوع، فحتى لو كنتم محلي لكنتم تتصرفون مثلي.. وتهذون مثلي.. ولكن ماذا أفعل.. وماذا بمقدوري أن أفعل؟، فلو أن الرجل السكير خلع حذاءه الأيسر في تلك الليلة لكنت أنام فيها بهدوء ولا أُصاب بالقلق، ولكنت في صباح اليوم التالي أدخل الى قاعة الفارابي كأفلاطون صغير، وأجلس على الكرسي الذي على الجانب الأيمن، ويُحِدق في الدكاترة المناقشون من خلف منضدتهم على المنصة المرتفعة قليلاً.. يسألونني.. وعندها أضع النظارة على عيني وأقرأ رسالتي القيّمة.. وباحترام فائق يصغي لي عدد غضير من الطلبة، وتجلس الفتاة ذات العيون السوداء في مقدمتهم وتفرح بي وهي مندهشة لكل ما أملكه من ذكاء ومعلومات، ولولا الخجل لقامت بتقبيلي، ولكن آخ من الرجل السكير الملعون.. آخ أيها الغريب القريب من روحي.. هل احضرت نفسك طيلة عامين لتلك الليلة.. كل الناس إما من أنصار فرويد أو من أنصار بافلوف.. منذ عامين وأنا أحاول بعث الروح فيهما لينهضا ويتصافحا، وأجعلهما لأول مرة يقبل أحدهما الآخر.. وأمام أنظار الجميع يقولان لبعضهما:

-: لقد استطاع ذلك الولد الفقير أن يصالحني معك.. !.

وعندها يقول فرويد بزهوٍ:

-: أنا المهيمن بشكلٍ أكثر في رسالته.. !

ويجيبه بافلوف بحسرة:

-: ليس كثيراً..

-: أتعرف لماذا..؟

-: طبعا.. ربما فرهاد ملتزم بنظريات حضرتك..

-: ولكن لا تنس أنه مريض..

-: ولكن إن فكرَّ بشكل علمي لعرف من أين جاءت هذه العلل وأين استقرت..

يسأله فرويد وكأنه يريد ممازحته:

-: كيف.. !

-: حسناً.. أنك تتجاهل دور دماغ الإنسان وتعتمد بشكل كبير على الأحلام والأساطير..!!

-: لأن الأسطورة كانت أول خزين لمعلومات ومعرفة ووعي الإنسان..

-: ولكن أنا لا أقتنع بأي شئ الا بعد اجراء التجربة الملموسة عليه..

-: حسناً، وما الذي كنت أفعله في عيادتي..؟

-: كنت تصغي السمع لهذيان بعض المرضى، وتنظر بالمنظار للأصحاء.

-: وأنت أيضاً كنت محتفظاً ببعض الكلاب من دون..

-: من دون أن أرحم بهنَّ.. أليس كذلك؟.. لينتبه كل الذين يقولون مثل هذا الرأي من أن يدوسوا بأقدامهم ظهر الإنسان..

-: على أية حال يعتبر فرهاد واحداً من آلاف النماذج الذين يثبتون أية نتيجة كبيرة خرجت بها من تحليل نفس الإنسان..

-: كإنسان مريض..؟

-: نعم.. !

-: كلا.. ليس هو لوحده.. انك تتجاهل بيئته.. لا يلد الإنسان مريضاً.

-: لا أفهمك..

-: يتكاثر وجود البعوض أينما تكون المستنقعات..

-: كنا نتحدث عن النفس.. !
-: لم النفس فقط..؟.. ولم لا نتحدث عن الدماغ الذي هو مركز كل تلك العُقَد التي تتحدث أنت عنها..
-: لا أحتاجه.. نظرياتي منتشرة في كل أرجاء العالم من دون الحاجة لأي برهان..
-: خاصة في المجتمعات البرجوازية والرأسمالية..
-: ألا تعتقد بأني قد انتقدت تلك المجتمعات..؟
ـ: هذا ليس قولك، بل من أقوال هؤلاء الناس المدافعين عنك..
-: ولكن هوذا فرهاد أثبت أن الاختلاف الأكبر بيني وبينك هو في المصطلحات السايكولوجية.
-: لا أعتقد..
-: كما تشاء..
-: على أية حال أنا مقتنع بديمومة التجارب..
-: وأنا مقتنع بفحص المريض سريرياً..
-: أنا أعتقد بأن المجتمع إذا كان نظيفاً وبلا عاهات حينها لا يصاب الإنسان بالعُقَد التي حيرت وأربكت نفسك معها..
-: ومتى سيصبح المجتمع نظيفاً وبلا عاهات..؟
ـ: في يومٍ ما.. وعندها ستدخل متحفاً كل تلك الأمراض التي تتحدث عنها انت..
ربما يقول فرويد وأستاذي المشرف والطلبة المستمعون، ولربما حتى أنتم تقولون، بأن وجود مجتمع بتلك الشاكلة، نظيف وبلا عاهات، هو حلم مقدس لنحتفظ به للمستقبل.. وفجأة يرفع فرويد النظاراة من على عينيه وكأنما يريد الهروب من بافلوف.. ضاحكاً ويقول:

-: حتى الان لم ينس فرهاد توسيخ لباسه الداخلي في فترة طفولته..

وعندها تضحكون جميعاً، وأنا أخجل كما خجلت في فترة طفولتي، وتتفصّد أرنوبة أنفي عرقاً..

مرة أخرى أبتعدت عن الموضوع.. كلا.. كل الأشياء مختلطة مع بعضها.. أنا أستطيع أيجاد العلاقة بين الطيور والسمك، وبين الماء والنار، التراب والرب، الأشجار والأحجار، النجوم والشمس، السماء والشيطان، وأنا وعبد الله وبافلوف وأنت.. أووه.. أنا قلت أن الأشياء لدي مختلفة.. أنا منهمك.. بافلوف وفرويد تعيسان.. لو لم يكونا تعيسين كيف أذن يئنان تحت يدي أنا التعيس.. من أنا حتى أجرؤ على إدخال نفسي في مثل هذه المتاهة المخيفة..؟.. حقاً أنها لدينا عجيبة وأنا أتهجم عليهما.. أني أشبه جزاراً ذا قلب قاسٍ أحاول تقطيعهما.. أنا بلا خطيئة.. الخطيئة.. الخطيئة خطيئة ذلك الرجل السكير وليحاسبه فرويد.. من الضروري أن ينبعث بافلوف للحياة مرةً أخرى ولمدة شهر يدعو ذلك الرجل السكير لتناول شراب (الفودكا) الروسي في أحد البارات الراقية، ومن الضروري وضع حذائه الأيسر في متحف ويحتفظ به مثلما وضع بافلوف ميدالية ذكائه في عنق كلبه.. ذلك الكلب الذي تسبب في اكتشافه لنظريته العظيمة.. اذن لم لا توضع ميدالية ذهبية داخل الحذاء الأيسر للرجل السكير؟، ولم لا يقبله بافلوف من بين عينيه ويدخل اسمه في تاريخ علم النفس.. أعرف أن نتيجة الموضوع قد بدأت تضايقك، فلست أنا بالمجنون.. ففي تلك الليلة التي لم ينزع الرجل السكير حذاءه الأيسر وأصبت بالقلق

ظَهَرَ على الفور في دماغي بريق نظرية بافلوف ودوى صوتها فيه.. تمرين.. وتمرين.. ومن ثم يتعود الإنسان ويتكيّف.. إن كان على الحَسَن أو على السيئ، لدرجة أني قلت بأن كل العُقَد النفسية تتجمع في العقل الباطني وتبقى فيها، ولكن هوذا حذاء الرجل السكير أعاد لذاكرتي كلب بافلوف.. " يفتح بافلوف باب مختبره، و يضيئ المصباح.. يضع قطعة لحم أمام كلبه.. يتكرر هذا الأمر مرتين وثلاث ومئات المرات.. المصباح واللحم.. المصباح واللحم.. الى أن يصل الأمر بالكلب أن يسيل اللعاب من فمه مع كل إضاءة للمصباح متصوراً بأنه قَدْ جيء باللحم..".

يبدو أن الإنسان يتعود على كل تصرف جميل.. ولِمَ لا..؟.. ليعيش كلب بافلوف.. ولكن ليعيش ألف مرة الحذاء الأيسر للرجل السكير الذي جعلني أعيد النظر بأفكاري، وأنظر لبافلوف بمنظار آخر.. اتراجع عن شتائمي.. آخ.. أفهموني أذن.. كدح سنتين.. أعذرني يا فرويد.. أضع حذاءك على رأسي.. أنت ايضاً عظيم.. لا تنظر الي بغضب.. أنا أعرف بأني مريض.. من أنا؟.. أعرف أني أحببت ابنة خالي لسبع سنين ولم اجرؤ على البوح بجي لها، وأخجل من ركوب الحافلات، وأنَّ عبد الله الحُمامجي بَصَقَ عليَّ، ولكن الخطيئة خطيئة الرجل السكير.. صغ الي ولا تغضب.. كل عظيم وله محبة.. صحيح أني تعرفت على بافلوف مؤخراً، وأنك فتحت عيني على عدة أمور، ولكن اصغ الي فقط.. أنك أصغيت لمئات المرضى من أمثالي.. ها.. أنت مريض.. لا تحبذ أن يفوز بافلوف في الرهان.. الذنب ذنب قادر.. حاسبه

هو بالذات.. لسنتين أراه في الليل فقط. في الأوقات المتأخرة منه. لا أعرف من هو.. وأبن مَن.. وماهي مهنته.. لم هو في بغداد.. هل هو متزوج أم طلقها أو غير متزوج للآن.. هل لديه أطفال أمْ لا؟.. عدة أسئلة بلا أجوبة.. بل حتى صاحب الفندق لا يعرف من أين جاء هذا الطير.. لا أعرف ماذا وجد في بغداد، أو ماذا فَقَدَ فيها؟.. أنه بطل لقصة طويلة ولا اجرؤ أنا الذي بلا قدرة عليها.. حاولت لعدة مرات أن أستفيد منه كحالة سايكولوجية.. لم يدعني !.. لَمْ أُلاحظهُ يتحدث مع أحد طيلة تلك السنين.. كان يسعل فقط. فقط سعال.. في النهار، يُغيبُ نفسه عن الأنظار، وفي الليل.. كل ليلة عندما تقترب عقارب الساعة من الثانية عشر يعود.. أية عودة؟.. يترنح ويصطدم بكل شيء، وفي أغلب الأحيان يتأخر لساعات متأخرة من الليل، ويعود من البار سيراً على الأقدام.. كل ليلة بذات الشكل ذاته والحركات ذاته، الأنين نفسه والسعال نفسه.. يرتقي درجات سلم الفندق ذي الطوابق الثلاثة بخطوات بطيئة تصدر عن حالة ثمالة، ورويداً، وببطأ، وكأنما يدوس على قلبه، وفي أغلب الأحيان يقف على احدى درجات السلم لمدة عشر دقائق ويغرق في دنيا خيالاته.. يلوي نفسه ويحرك جسمه مثل شخص تعتريه آلام، أو يرقص لوفاة شخص عزيز لديه، ومثل شخص يجعل من نفسه ارجوحة ويجعل من الدنيا كلها طفلا يركبه فيها ويدفعها لتهتز، وفجأة تذكّرَ نفسه، ومرة أخرى يخطو خطوات بطيئة، وبسرعة يفتح باب غرفته المكروهة ويغلقها على نفسه بمزلاجها المتصدئ.. كان قادر في ذلك الفندق الرخيص

قبل بداية منامي فيه، وكأنما ولِدَ فيه ايضاً.. في البداية ولعدة ايام تخليت عن الماجستير وقراءة الكتب الضخمة.. تتبعت قادر.. ها هو هنا.. ها هو هناك.. في الشوارع والأزقة والأسواق والبارات ودور السينما والجوامع والملاهي.. كان يخطو خطواته بسرعة.. كان يدخل بعض الأماكن وكأنه فأر يغيب عن أنظاري، أو أنه جِن تحول الى إنسان بصورة غير شرعية.. عجيبة.. لم يبادر بالسلام عليَّ طيلة تلك السنين رغم ان غرفته تقع فوق غرفتي، ورغم انه كان يجب عليه أن يسير من أمام غرفتي، فأراه من الشباك يصعد درجات السلم بخطوات ثملة ومترنحة.. أدقق النظر فيه لحين صعوده.. السترة الرمادية القذرة والمتوسخة نفسها، البنطلون الأسود المصنوع من القديفة نفسه، ومؤخرته مبللة ومتطينة، وشعره أشعث ومُترَب، وزوج من أحذية فاقدة لبريق لونها.. أنها قديمة جداً وقد انسكب عليها الكثير من المواد والأشياء لدرجة فقدت لونها الأصلي.. ذلك الحذاء الذي جعلني أُعيد النظر في نفسي في فرويد وبافلوف، فلو أن بافلوف انبعث مرة أخرى وعَرَفَ بهما لأخذهما لمتحف، ومثل كلب بافلوف الذي عُمِلَ له تمثال سيفتخر ايضاً بهذين الـ الحذاءين.. وسيوضعان في قفص زجاجي ويُكتَب عليه: " هذان الحذاءان العائدان لقادر هما موضع افتخار لنا مثل كلب بافلوف، وأصبحا جزءاً من تاريخ علم النفس ".. نعم طيلة سنتين وأنا متلهف حد الجنون لسلام وتحية قادر.. أو حتى شتيمة قادر، ولكن ماذا يفعل الحب؟.. لعنة الله على قادر.. ربما يسأل أحدكم وكيف عرفت اسمه؟.. لقد كان صاحب الفندق يقول له في كل

ليلة: " يا قادر.. كفاك العودة المتأخرة.. لن أفتح لك الباب مرةً أخرى إن عُدت متأخراً في الليل ".. لَمْ يجبه قادر، ولَمْ يعتبره ايضاً من الرجال.. لقد تصورته في البداية أصم وأبكم، لكنه غنى في أحد الليالي بصوت حزين.. غنى مقاماً ثم حولها الى أهزوجة وفجأةً قَطَعها وتحول للغناء بالهورامي[6]، ومن ثم تحول للغناء بالتركي، ثم توقف عنها وتحول لغناء أغنية قديمة للمطربة زهور حسين[7]، وأنهى غناءه بإداء مقاطع من اللاوك والحيران[8] التي تغنى في قرى سهل اربيل، وبعدها سمعت صوت بكاء شديد مليء بالحسرة والاختناق.. مليء بالآلام والمعاناة.. بكى في تلك الليلة كثيراً.. وظل يبكي، وبعدها مثل كل الليالي الأخرى ظل يمشي جيئة وذهاباً داخل غرفته، وظل يدور مثل شخص فقد شيئاً وتحت ضوء خافت يبحث عنه، وكان في الليالي لا ينام الا بعد الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل، فكنت لا أنام ألا بعد خلوده للنوم، وانتظره لحين عودته. لقد قلت بأن مشكلتي تتلخص في كوني حساساً في منامي ومتيقظاً حتى لصوت أقدام القطط، وكان قادر حين يعود ثملاً حتى النخالة، جائع ومتعب، وشبيه ايضاً بهؤلاء الذين بعد احتساء الخمر يلتهمون كل ما يقع يدهم عليه.. لقد تعودت على ايقاعات صوت قدميه، وأصبحتُ أشبه بساعة مؤقته، فلا أنام من دون نومه.. تعوّد.. تمرين.. تعوّد.. تمرين.. ولتعاسة حظي كان السقف الفاصل بين غرفتينا مثل الصفيحة يصدر أصواتاً بسبب تهرئه وقِدَمِهُ، فكنت أسمع كل طرقة عليه وكل خشخشة وهمسة، ومن النافذة أسمع كل أنين وتأوه يصدر عنه،

وكان بمقدوري تبديل غرفتي، لكني لم أحبذ تبديلها، بل أني من الأعماق كنت أشكر قادر لأنه يجعلني أن أضطر للقراءة والكتابة حتى ساعات متأخرة من الليل. أردت أن أُكمل إعداد وكتابة رسالة ماجستيري في أقل من سنتين وأرجع بعدها لوالدتي العجوز وشقيقاتي، ولكن لم يدر بخلدي أن يقوم قادر في اخر ليلة من لياليها بتحويل ماحكته الى صوف من جديد، فلو أنه خلع حذاءه لكنت أنا ايضاً.. دَعْ عنك هذا الأمر لكي لا تثار جروحي.

بقيت في الغرفة وتعودت على الأمر، وتآلفت مع تلك الحالة، وكان بمقدوري الذهاب الى القسم الداخلي للطلاب، ولكن ثلاثمئة طالب أو أربعمئة طالب من سكنتها سيصبحون محل مشاغلة لذهني وصداعي، فلكل واحد منهم مزاج خاص، وقد عاشرتهم من قبل. فقد كنت مشرفاً على أحد الأقسام الداخلية ثلاثة أسابيع، فكان العشرات من الطلبة يعودون للقسم في كل ليلة وهم سكارى، وأصبحت طبيباً نفسياً لهم، وكل طالب منهم لغاية منتصف الليل يفرغ لدي ما في قلبه المليء بالهموم، ولذا تخليت بسرعة عن فكرة الانتقال من غرفتي، وفضلت مجاراة قادر على أن أصبح حارساً لمجموعة من الطلبة الجياع للخبز والجماع والنساء. بقيت أنا في الغرفة السفلية وقادر في الغرفة العليا، وكنت أصغي لكل صوت، وأنظر لسقف غرفتي مثل شخص يرفع رأسه للأعلى منتظراً رحمة الله. كانت نافذة غرفتي وغرفة قادر تطلان على خرابة، ولم يكن يغلق نافذتها لا في الصيف ولا في الشتاء، وأحياناً أراهُ يرمي منها قناني العرق وعلب الفاصوليا واللوبية والباذنجان

والمربى الفارغة، وكل شيء يعتبره قادر فائضاً عن الحاجة يرميها في الخرابة التي أصبحت مزبلة كبيرة. مزبلة تليق بمثل هذه العاصمة الكبيرة، فكل مدينة كبيرة تحتاج لمزبلة كبيرة، وكنت أنا ايضاً أقلد ما يفعله قادر والآخرون، ولكن ماذا أرمي فيها؟.. قطع الأوراق المستنسخة والسودات.. يرمي قادر قناني العرق وأنا أرمي الاوراق.. هو يفعلها لأجل علل قلبه وأعماقه، وأنا كذلك.. هو بِلون يخصه، وأنا بِلون اخر.. أنا الغريب عن نفسي وعن بغداد وكل الدنيا، وهو أكثر غرابة مني.. أنا الجائع للخبز والقبلات وأمي ومئات الأشياء الأخرى، وهو أكثر جوعاً مني.. كنت من النافذة ومن السقف الذي بين غرفتنا أسمع الكثير من الأصوات التي أُلونها حسبما اشاء، وبعيون الخيال أشعر بعالمه.. كان عالماً مليئاً بالأسرار والطلاسم.. كان كهفاً غير مكتشف.. كان من هؤلاء الأشخاص الذين يعمل الفنانون لهم بورتريتات من على مناضد المقاهي، أو يجعله كاتب كبير بطلاً لأحدى قصصه، ولكن أنا المريض وفاقد الإرادة والإبداع ماذا بمستطاعي فعله؟.. أنا نفس كنت أبحث عن فنان يكتشف لوناً من سيمائي المليئة بالأحزان والعلل، أو شاعر يحول تأوهي في قصيدته الى ايقاع ويحول دموعي في منتصف الليل الى قلادة وعقد قصائده، أو قاص يجعلني بطلاً مرفوع الرأس ومنهزماً، شجاعاً وجباناً.. بل حتى قادر لَمْ يعطف على حالتي، فها هو لَمْ يخلع حذاءه الأيسر ولَمْ أنم في تلك الليلة.. خسرت رسالة ماجستيرى.. وليس بعيداً أن أُجن.. لماذا يا قادر..؟ !.. على الأقل انتظرتك لليال كصديقين.. صديقين في كل ليلة.. أنت لم تشعر بي،

ومتى سيشعر بي سكير مثلك..؟.. يا قادر.. أنا حتى الآن أحترم حذاءيك.. أعلم أن علة كبيرة أو مصيبة مباغتة أو نزوة مفجعة رمتك الى هنا.. يا ترى أين كنت فلاحاً في حينها؟ وفي أيّة قرية كنت راعي غنم أو راعي بقر؟.. يا ترى كم أحببت من الفتيات اللاتي يُعلقن ترجية في أنفهن أو يُعلقن تراجي متهذلة في اذانهن.. كم ليلة ذهبت فيها الى اللقاءات بين قطيع الغنم أو في المعالف؟.. أنا لا أعرف يا قادر.. أنا ضجر وغاضب لكونك لا تدعني أن أعرفك.. لماذا لا ترفع يدك.. رأسك.. لا تُسلِم؟.. ماذا جرى لك.. هل أنك مريض مثلي؟ أنا لو عرفتك لربما تخليت عن بافلوف وفرويد وعدت لمدينتنا الخامدة، وأسرد قصة غُربتك للجميع.. لكنك عظيم تريد الموت كالجِن، وتذوب مثل الثلج، وتنفجر كالبركان فجأةً. قد أثور ليلة وأصعد للأعلى وأُحطم باب غرفتك وأُقبلك مائتي ألف قبلة.. أنا أرغب في ذلك (اللاوك) الذي غنيته تلك الليلة بصوت حزين مليء بالألام، وأرغب أن تشتمني بلغتنا.. انت مرض عضال.. حين بكيت في تلك الليلة شعرت بأن دموعك تثقب السقف وتنهمر على قامتي، وكالمطر تبلل فراشي، وأردت مثل فرخ عصفور ذي اصفرار على حافتي شدقيه أفتح فمي بدموعك وارتشفها.. خفت من أن تبكي بكثرة لدرجة يتخسف السقف الفاصل بين غرفتينا وتمتلئ غرفتي بالدموع.. ومن كثرة بكائك يطوف الفندق فوق الماء.. بل حتى العاصمة.. تصبح مثل طوفان نوح فتغسل كل الدنيا.. من حقك أن تبكي.. ولكن أين هو.. لقد سيطرت بسرعة على نفسك وهدأت.. أنت لا تحبني.. لا تعرفني.. أنزل في ليلة

وأدخل غرفتي. غرفتي غير المرتبة وكُن ضيفي وشرفني بك. أنا ايضاً إنسان، ومثلك أبكي. فقط في تلك الليلة. تلك الليلة التي بكيت فيها وغنيت اللاوك عرفت بأنك لست بالأصم والأبكم. كنت في كل ليلة انتظرك لحين عودتك. أشعر بكل حركة تبدر منك، همسة وخشخشة سعالك. أصبحت جزءاً من كتبي وأوراقي وقلمي وعويناتي. من دونك لا أستطيع عمل شيء، وأفقد النوم، وبِكَ ارتبط. علاقة غريبة وغير ظاهرة. حين تعود لتنام على الفور تضع بيضة أو أي شيء آخر فوق المحماة الكهربائية (الهيتر)، ويصل صوت احتراق الدهن لمسامعي، تفتح النافذة ومن ثم تغلقها. تفتحها وتغلقها، ثم تتناول الطعام، وتنتشر رائحة الشاي في الغرفة، وصوت ارتطام حذائيك مثل حصان ضائع عن القافلة ولا تهدأ، وكنت سكيراً غليظ القلب ولا تنام، ومثل امرأة حامل في أول شهر ويوم ولادة حملها ويعصرها المخاض. أرفع رأسي وأشاهد السقف، عامين. عامين بالتمام وأنا متعود على صوت حذاءيك، بنفس الحركة والايقاع، وبعدها؟؟؟ تجلس على حافة سريرك المتهرئ، وتغير مكانها بين الحين والآخر، وكنت وحدك فقط. غرفة صغيرة، وملك ليالي السكر، وقبل تمددك النهائي تخلع حذاءك الأيمن. تتكرر كل ليلة طيلة عامين. اشعر بها جيداً، تخلع حذاءك الأيمن وبقوة تصفعها بأرض غرفتك. بعصبية. بأقصى غضب وثمالة وضجر. أسمع الصفعة الاولى وأقول لقد أصبح الوقت متأخراً وسينام قادر. وأنا ايضاً مُتعب وسأنام، وبسرعة أجمع أقلامي وكُتبي

وقصاصات أوراقي، وبعدها ترفع قدمك الأيسر وتخلع الحذاء، وهذا ايضاً مثل الحذاء الأيمن بأقصى غضب وثمالة وضجر تصفعها بالأرض وتصدر صوتا كأنك غاضب وعصبي وضجر من كل الدنيا، وبعد الصفعة الثانية تتمدد.. الصفعة الأولى، الثانية، الأولى، الثانية.. مئات الليالي.. وبعدها يصدر سريرك صوتاً، ولثوانٍ يستمر ذلك الصوت، وثم خشخشة.. صوت سرير، وبعدها هدوء وصمت والخمود العميق لمنتصف الليل.. وأعرف بعدها بأنك نائم.. وحتى الصباح تصبح كالميت منذ مئة عام وأنا.. أنام على الفور بعدك. تعودت هكذا مئات الليالي.. تعودت.. تعودت لقد أصبحت يا قادر من دون أن أدري كلب بافلوف.. لا أنام الى أن تنام.. طيلة العديد من الليالي.. الشكل والحال واللون والصوت نفسه، الحركة والتنفس والايقاع نفسه.. فتح الباب، غلقه، صوت دهن يحترق، رائحة الشاي، فتح النافذة، غلقها، صفعة الحذاء الأيمن، وثم الأيسر، أيمن.. أيسر، أيمن.. أيسر.. صفعتان.. طق.. طق.. الأول.. الثاني.. صوت السرير، ارتخاء، خمود، نوم.. وأنا بعدك.. مثل جندي وَفي يحب قائده وخلفه دائماً في المعارك الكبيرة والصغيرة دون أن يسأل. ولكن.. لتعاسة حظي عدت في تلك الليلة أكثر تأخراً من بقية الليالي.. رأيتك من النافذة تترنح وأنت ترتقي درجات السلم بخطوات بطيئة وثملة ومتعبة، ودخلت غرفة العَرقَ والعَرقِ.. الغرفة المليئة بمئة لون ولون.. الغرفة المليئة بالأسرار وبكاء نصف الليل، وهَم بلا

بداية ونهاية وهَم نزوة عظيمة.. غرفة النوم والخيال والحلم والغربة والوحدة.. أصغيت السمع مرة أُخرى لمئة مرة، وانتظرت نومك لأني سأقرأ في صبيحة الغد رسالة ماجستيري، وأعود بعدها لحضن الوالدة العجوز، وأودع بغداد الازدحام وصداع الرأس، وأذهب الى غابة المدينة الهادئة وأسمع صوت الفخاتي، ومن الفرح يتباهى فرويد وهو يمد يده الى شاربه.. ويعاتبني بافلوف.. ركزت نظري نحو السقف.. ذهاباً وإياباً، طق طق، صوت احتراق الدهن، رائحة الشاي، أغنية خافتة ومخنوقة، فتح الشباك.. صوت السرير، خلع الحذاء الأيمن.. وانتظرت.. انتظرت.. الانتظار.. ها هو انتهى.. خلع حذاءه الأيمن.. وسيخلع حذاءه الأيسر وعلى الفور ينام.. وأنا ايضاً سأنام وفي الغد الماجستير.. سينام وأنام.. انتظرت.

هوامش المترجم

*قاله: اسم مصغر لـ(قادر) و هو استخدام شائع في اللغة الكردية، للدلالة على الدلع او التحقير على السواء.

1-يجد قارئ هذه القصة المترجمة بأن كاتبها شيرزاد حسن، وفي أكثر من مكان، يذكر عبارة قراءة رسالة الماجستير من قبل بطله، وهذا الشيء بعيد عن واقع المناقشات الأكاديمية التي تجرى بحق رسائل وأطاريح الدراسات العليا، حيث يكون واجب الباحث فيها هو الدفاع عن رسالته أو اطروحته أمام اسئلة الأساتذة في لجنة المناقشة، والتي يطلب منهم في أغلب الأحيان أن لا

تتجاوز المدة المخصصة لطرح اسئلتهم ومناقشتهم للباحث أكثر من نصف ساعة. وكذلك يسمح للباحث فيها قبل بدء المناقشة أن يقدم تعريفاً مختصراً وموجزاً عن طبيعة رسالته أو اطروحته، ولا يقوم الباحث فيها بقراءة كل رسالته للماجستير أو اطروحته للدكتوراه أمام لجنة المناقشة والسادة الحضور من المستمعين داخل قاعة المناقشة. وحرصاً منا على اسلوب شيرزاد حسن في كتابته لهذه القصة وجدنا من الضروري عدم التصرف بعبارة "قراءة رسالة الماجستير" أينما وردت في النص والتي كان بالأمكان استخدام عبارة "دفاعي عن رسالة الماجستير" بدلاً عنها.

2-ضرب الفَلَقة (بفتح الفاء واللام) نوع من الضرب يوجه نحو السطح السفلي للأقدام باستخدام عصا الخيزران، ويكون أثرها موجعاً خاصة لدى الأطفال الصغار. وقد كانت هذه الطريقة من العقوبة مستخدمة سابقاً في المدارس الابتدائية لتأديب الطلبة المشاكسين، ومعاقبة الطلبة الكسالى.

3-ضُحاك أو (زوحاك) هو الشخص الحاكم في اسطورة (كاوه) الحداد الكردية، والتي تتحدث عن عيد نوروز وبطولة (كاوه) الحداد حين قضى بمطرقته على (ضُحاك) الطاغية، والذي تشير الأسطورة الى اصابته بمرض عضال أو ظهور الأفعى على كتفيه اللتين لم تكن لتهدئا الا باطعامهما مخ شابين. وبعد أن طفح الكيل من صبر اهل المدينة على ذبح فلذات اكبادهم من الشباب انتفضوا للقضاء على الطاغية (ضُحاك) بقيادة (كاوه) الحداد. وهكذا انتصر الشعب في كفاحه وظهر عيد نوروز

الـذي يحتفـل بـه الكـرد والفـرس وبعـض شـعوب الشـرق سنوياً في 21/اذار من كل عام ميلادي.

4-هيوا وبروا **وخەندە** من الأسماء الكردية التي تعني الأمل والثقة والابتسامة، ومـن بـاب التنويـه نشـير الـى ان هيوا من اسماء الأولاد عند الكرد.

5-هاوار وغه مبار وفرميسك من الأسماء الكرديـة التـي تعنـي الصـرخة والحزين والـدموع و الاسـتنجاد، ومـن بـاب التنويـه نشـير الـى ان هـاوار مـن اسـماء الأولاد عنـد الكـرد. وقد تقصد بطل القصة في اختيـار مثـل هـذه الأسـماء للتعبيـر عن واقع حاله.

6-الغنـاء الهـورامي نـوع مـن الغنـاء الكـردي لـدى أهـالي منطقـة هورامـان الواقعـة بـين كردسـتان إيـران وكردسـتان العراق، ولهذا النوع من الغناء الكردي طابعه المميز عن بقية أنواع الغناء الكردي.

7-زهور حسين من مطربات بغداد المشهورات خلال أعـوام الأربعينيـات والخمسـينيات، ولهـا اسـلوبها الغنـائي المتميز بصوتها الشجي والعذب.

8-الـلاوك والحيـران مـن أنـواع الغنـاء الفلكلـوري الكردي، حيث يغنـى اللاوك فـي منطقـة دهوك وقصـباتها بينما يغنـى الحيـران فـي منطقـة اربيـل وقصـباتها. وهنـاك العديد من المطربين الكرد المشـهورين باداء كل نـوع مـن هذين النوعين من أنواع الغناء الكردي الفلكلوري.

من مجموعة "الوردة السوداء"

الفهرست

- مملكة الببغاوات ترجمة: صباح آرام.....,..... 5
- عزرائيل ترجمة: آزاد برزنجي..... 21
- قبلة مالحة ترجمة: آزاد برزنجي..... 39
- تلك الليلة التي احببت فيها الكلاب – ترجمة: آزاد مولـود ... 51
- طائر الزرزور ترجمة: فائز يونس..... 69
- الأخوات ترجمة: فائز يونس..... 81
- الخوف ترجمة: فائز يونس..... 93
- ماوراء الباب الحديدي ترجمة: فائز يونس..... 109
- الارملة ترجمة: فائز يونس..... 126
- العقدة ترجمة: فائز يونس..... 135
- ليلة ماطرة ترجمة: فائز يونس..... 155
- شاعر ترجمة: فائز يونس..... 171
- لـوزان ترجمـة: نـوزاد احمـد اسـود..... 183
- انا و "قاله" وكلب بافلوف – ترجمة: عادل كرمياني..... 203

الكتب الصادرة ضمن سلسلة "كتب سردم العربي"

1- زهير كاظم عبود، طاؤوس ملك - رئيس الملائكة لدى الايزدية.
2- خالد سليمان، الانفال - حكايات من زمن مستقطع.
3- زهير كاظم عبود، الشبك في العراق.
4- د. سروه اسعد صابر، كوردستان الجنوبية 1926-1929
دراسة تاريخية - سياسية
5- د. نيان نوشيروان فؤاد، الشحنة الديناميكية بين شيللي وكوران ونازك الملائكة - دراسة مقارنة.
6- لطيف مصطفى امين، الفيدرالية وآفاق نجاحها في العراق.
7-الدكتور عبدالستار طاهر شريف – الجمعيات والمنظمات والاحزاب الكوردية في نصف قرن 1908 – 1958.
8- د. فاضل عبود التميمي، بواكير محيي الدين زنكنه القصصية.
9- د. شاهو سعيد، التبئير الفلسفي في الرواية – مقاربة ظاهراتية في تجربة سليم بركات.
10- لطيف فاتح فرج، من نكرة السلمان الى الموت، ترجمة: يوسف زنكنه.